شرح

العقيدة الواسطية

لشيخ الإسلام ابن تيمية

شرحه

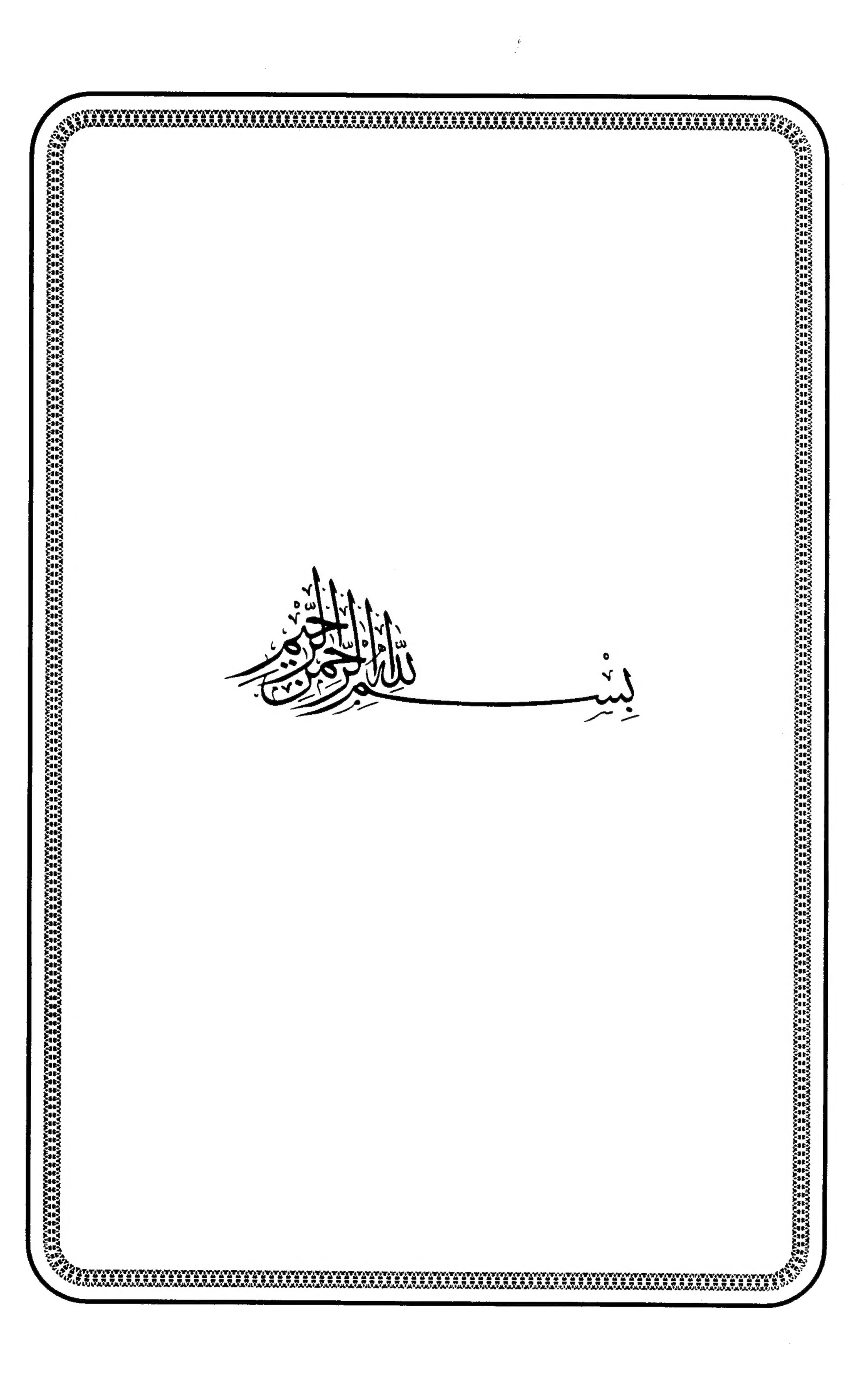
سماحة الشيخ محمد الصالح العثيمين

خرج أحاديثه واعتنى به

سعد بن فواز الصميل

المجلد الثاني

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم

شَرحُ

العَقِيدَةِ الوَاسِطِيَّةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد جرى مني الإذن لـ (دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع) بطبع مؤلفي (شرح العقيدة الواسطية) بشرط العناية بالتصحيح وأن لا يحتفظوا بحقوق الطبع. كتبه محمد الصالح العثيمين في ٢٩/١٢/١٤١٥هـ

محمد العثيمين

الطّبعة السّادسة

جمادى الأولى ١٤٢١ هجري



دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية

الدمام - شارع ابن خلدون - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٨٩ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب: ٢٩٨٢ - الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الإحساء - الهفوف - شارع الجامعة - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة: ت: ٦٥١٦٥٤٩
الرياض: ت: ٤٢٦٦٣٣٩

فصل

في سنة رسول الله ﷺ

الشرح:

* السنة في اللغة: الطريقة، ومنه قال ﷺ: «لتركبن سنن من كان قبلكم»[1]؛ يعني: طريقتهم.

* وفي الاصطلاح: هي قول النبي ﷺ وفعله وإقراره.

فتشمل الواجب والمستحب.

* والسنة هي المصدر الثاني في التشريع.

ومعنى قولنا: «المصدر الثاني»: يعني: في العدد، وليس في الترتيب؛ فإن منزلتها إذا صحت عن النبي ﷺ كمنزلة القرآن.

لكن الناظر في القرآن يحتاج إلى شيء واحد، وهو صحة الدلالة على الحكم، والناظر في السنة يحتاج إلى شيئين: الأول: صحة نسبتها إلى الرسول ﷺ، والثاني: صحة دلالتها على الحكم؛ فكان المستدل بالسنة يعاني من الجهد أكثر مما يعانيه المستدل بالقرآن؛ لأن القرآن قد كفينا سنده؛ فسنده متواتر، ليس فيه ما يوجب الشك؛ بخلاف ما ينسب إلى الرسول ﷺ.

فإذا صحت السنة عن رسول الله ﷺ؛ كانت بمنزلة القرآن تماماً في تصديق الخبر والعمل بالحكم:

كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء:

---

(١) رواه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

.[١١٣

وقال النبي ﷺ: «لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته؛ يأتيه الأمر من أمري؛ يقول: لا ندري! ما وجدنا في كتاب الله؛ اتبعناه، ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه»(١).

ولهذا كان القول الصحيح أن القرآن يُنسخ بالسنة إذا صحت عن النبي ﷺ، وأن ذلك جائز عقلاً وشرعاً، ولكن ليس له مثال مستقيم(٢).

* * *

● قال المؤلف: «**فَالسُّنَّةُ تُفَسِّرُ القُرْآنَ وَتُبَيِّنُهُ وَتَدُلُّ عَلَيْهِ وَتُعَبِّرُ عَنْهُ**».

* قوله: «**تفسر القرآن**»؛ يعني: توضح المعنى المراد منه:

كما في تفسير قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]؛ حيث فسرها النبي ﷺ بأنها النظر إلى وجه الله عز وجل(٣).

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٣٢)، وأبو داود (٤٦٠٥)، والترمذي (٢٦٦٣)، وابن ماجه (١٣)، والحاكم (١/ ١٠٩)، وقد أطال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على «الرسالة» للشافعي (ص٩) تخريج هذا الحديث وتَصْحيحِه.

وانظر «الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام» للألباني، فقد صححه.

(٢) وهو قول الجمهور كما حكاه عنهم الشوكاني في «إرشاد الفحول» (ص١٩١).

(٣) تقدم تخريجه (١/ ٤٥٢).

وكما فَسَّر النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فقال: «ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»[1].

* و «تبيِّنُه»؛ يعني: تبين المجمل منه؛ حيث إن في القرآن آيات مجملة، لكن السنة بينتها ووضحتها؛ مثل:

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]: أمر الله بإقامتها، وبيَّنت السنة كيفيتها.

وقوله سبحانه: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨].

﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾؛ يعني: من دلوك الشمس إلى غسق الليل؛ أي: غاية ظلمته، وهو نصفه؛ لأن أشد ما يكون في ظلمة الليل نصفه.

فظاهر الآية أن هذا وقت واحد، ولكن السنة فصلت هذا المجمل:

فللظهر: من دلوك الشمس إلى أن يصير ظل كل شيء مثله.

وللعصر: من ذلك إلى اصفرار الشمس في الاختيار، ثم إلى غروبها في الضرورة.

وللمغرب: من غروب الشمس إلى مغيب الشفق الأحمر.

---

(١) رواه مسلم (١٩١٧)، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه.

وللعشاء: من مغيب الشفق الأحمر إلى نصف الليل، وليس هناك وقت ضرورة للعشاء، ولهذا لو طهرت الحائض في منتصف الليل الأخير؛ لم يجب عليها صلاة العشاء ولا صلاة المغرب؛ لأن وقت صلاة العشاء تنتهي بانتصاف الليل، ولم يأت في السنة دليل على أن وقت صلاة العشاء يمتد إلى طلوع الفجر.

وللفجر: من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

ولهذا قال في نفس الآية: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾، ثم فَصَلَ وقت الفجر، فقال: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ [الإسراء: ٧٨]؛ لأن وقت الفجر بينه وبين الأوقات الأخرى فاصل من قبله ومن بعده؛ فنصف الليل الثاني قبله، ونصف النهار الأول بعده.

هذا من بيان السنة حيث بينت الأوقات.

كذلك: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]؛ بينت السنة الأنصبة والأموال الزكوية.

* و «**تدل عليه**»: هذه كلمة تعم التفسير والتبيين والتعبير؛ فالسنة تفسر القرآن وتبين القرآن.

* و«**تعبر عنه**»؛ يعني: تأتي بمعانٍ جديدة أو بأحكام جديدة ليست في القرآن.

وهذا كثير؛ فإن كثيراً من الأحكام الشرعية استقلت بها السنة، ولم يأت بها القرآن.

لكن دل على أن لها حكم ما جاء في القرآن مثل قوله تعالى:

﴿مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]، وقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

أما الحكم المعين؛ فالسنة استقلت بأحكام كثيرة عن القرآن، ومن ذلك ما سيأتينا في أول حديث ذكره المؤلف في هذا الفصل: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر...»(١)؛ فإن هذا ليس في القرآن.

إذاً؛ السنة مقامها مع القرآن على هذه الأنواع الأربعة: تفسير مشكل، وتبيين مجمل، ودلالة عليه، وتعبير عنه.

* * *

● ثم قال رحمه الله قاعدة مهمة: **«وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّه عَزَّ وَجَلَّ مِن الأَحَادِيثِ الصِّحاحِ الَّتي تَلَقَّاها أَهْلُ المَعْرِفَةِ بِالقَبُولِ؛ وَجَبَ الإيمانُ بِهَا كَذَلِكَ»**.

* قوله: «وما»: هذه شرطية. وفعل الشرط: «وصف». «وجب الإيمان بها»: هذا جواب الشرط.

فما وصف الرسول به ربه، وكذلك ما سمى به ربه؛ لأن هناك أسماء مما سمى به الرسول ربه لم تكن موجودة في القرآن؛ مثل (الشافي)؛ قال النبي ﷺ: «واشف أنت الشافي، لا شفاء

(١) سوف يأتي الحديث بطوله (٢/ ١٣)، وهو في الصحيحين.

إلا شفاؤك»[1].

* «**الرب**»: لم يأت في القرآن بدون إضافة لكن في السنة قال الرسول ﷺ: «أما الركوع فعظموا فيه الرب»[2].

وقال في السواك: «مطهرة للفم مرضاة للرب»[3]

وظاهر كلام المؤلف أنه يشترط لقبولها شرطان:

الأول: أن تكون الأحاديث صحيحة.

الثاني: أن يكون أهل المعرفة يعني بالأحاديث تلقوها بالقبول، ولكن ليس هذا هو المراد، بل مراد الشيخ ـ رحمه الله ـ أن الأحاديث الصحاح تلقاها أهل المعرفة بالقبول فتكون الصفة هذه صفة كاشفة لا صفة مقيدة.

* فقوله: «**التي تلقاها**»: هذا بيان لحال الأحاديث الصحيحة أي أن أهل المعرفة تلقوها بالقبول لأنه من المستحيل أن تكون الأحاديث صحيحة، ثم يرفضها أهل المعرفة، بل سيقبلونها.

صحيح أن هناك أحاديث ظاهرها الصحة، ولكن قد تكون معلولة بعلة؛ كانقلاب على الراوي ونحوه، وهذه لا تعد من الأحاديث الصحيحة.

---

(١) رواه: البخاري (٥٧٤٢)، ومسلم (٢١٩١)؛ عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه مسلم (٤٧٩)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه البخاري معلقاً مجزوماً (٤/١٥٨)، ووصله أحمد (٦/٦٢)، والنسائي (١/١٠)، وابن حبان (٢/٢٨٧)، وحسّنه البغوي في «شرح السنة» (١/٣٤٩).

قال: «وَجَبَ الإيمانُ بها»: لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [القصص: ٦٥ ـ ٦٦]. . . والنصوص في هذا كثيرة معلومة.

واعلم أن موقف أهل الأهواء والبدع تجاه الأحاديث المخالفة لأهوائهم يدور على أمرين: إما التكذيب، وإما التحريف.

فإن كان يمكنهم تكذيبه؛ كذبوه؛ كقولهم في القاعدة الباطلة: أخبار الآحاد لا تقبل في العقيدة!!

وقد رد ابن القيم رحمه الله هذه القاعدة وأبطلها بأدلة كثيرة في آخر «مختصر الصواعق».

وإن كان لا يمكنهم تكذيبه؛ حرفوه؛ كما حرفوا نصوص القرآن.

أما أهل السنة؛ فقبلوا كل ما صح عن النبي ﷺ في الأمور العلمية والأمور العملية؛ لقيام الدليل على وجوب قبول ذلك.

* وقوله: «كَذَلِك»؛ يعني: كما يجب الإيمان بما في القرآن؛ من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل.

وقد ذكر المؤلف منها أحاديث عديدة؛ منها.

* * *



فصل
في أحاديث الصفات

● الحديث الأول في إثبات نزول الله إلى السماء الدنيا:

وهو قوله ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنا إلى سَماءِ الدُّنْيا كُلَّ لَيْلَةٍ، حينَ يَبْقى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرِ، فَيَقولُ: مَنْ يَدْعوني فَأَسْتَجيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُني فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُني فَأَغْفِرَ لَهُ». متفق عليه[1].

الشرح:

* هٰذا الحديث قال بعض أهل العلم: إنه من الأحاديث المتواترة، واتفقوا على أنه من الأحاديث المشهورة المستفيضة عند أهل العلم بالسنة.

* قوله: «**ينزل ربنا إلى السماء الدنيا**»: نزوله تعالى حقيقي؛ لأنه كما مرَّ علينا من قبل: أن كل شيء كان الضَّمير يعود فيه إلى الله؛ فهو ينسب إليه حقيقة.

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٩٤).

فعلينا أن نؤمن به ونصدق ونقول: ينزل ربُّنا إلى السماء الدنيا، وهي أقرب السماوات إلى الأرض، والسماوات سبع، وإنما ينزل عز وجل في هٰذا الوقت من الليل للقرب من عباده جل وعلا؛ كما يقرب منهم عشية عرفة؛ حيث يباهي بالواقفين الملائكة[1].

* وقوله: «**كل ليلة**»: يشمل جميع ليالي العام.

* «**حين يبقى ثلث الليل الآخر**» والليل يبتدىء من غروب الشمس اتفاقاً لكن حصل الخلاف في انتهائه هل يكون بطلوع الفجر أو بطلوع الشمس والظاهر أن الليل الشرعي ينتهي بطلوع الفجر والليل الفلكي ينتهي بطلوع الشمس.

* وقوله: «**فيقول: من يدعوني**»: «من»: استفهام للتشويق؛ كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ [الصف: ١٠].

* و «**يدعوني**»؛ أي: يقول: يا رب!

* وقوله: «**فأستجيب له**»: بالنصب؛ لأنها جواب الطلب.

* «**من يسألني**»: يقول: أسألك الجنة، أو نحو ذٰلك.

* «**من يستغفرني**»: فيقول: اللهم اغفر لي، أو: أستغفرك اللهم!

* «**فأغفر له**»: والمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه.

بهٰذا يتبيَّن لكل إنسان قرأ هٰذا الحديث أن المراد بالنزول هنا نزول الله نفسه، ولا نحتاج أن نقول: بذاته؛ ما دام الفعل أُضيف

---

(١) كما جاء ذلك في «صحيح مسلم» (١٣٤٨)، عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء؟».

إليه؛ فهو له، لكن بعض العلماء قالوا: ينزل بذاته؛ لأنهم لجؤوا إلى ذلك، واضطروا إليه؛ لأن هناك من حرَّفوا الحديث وقالوا: الذي ينزل أمر الله! وقال آخرون: بل الذي ينزل رحمة الله! وقال آخرون: بل الذي ينزل مَلَكٌ من ملائكة الله!

وهذا باطل؛ فإن نزول أمر الله دائماً وأبداً، ولا يختص نزوله في الثلث الأخير من الليل؛ قال الله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥]، وقال: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣].

وأما قولهم: تنزل رحمة الله إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر! فسبحان الله! الرحمة لا تنزل إلا في هذا الوقت! قال الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]؛ كل النعم من الله، وهي من آثار رحمته، وهي تترى كل وقت!!

ثم نقول: أي فائدة لنا بنزول الرحمة إلى السماء الدنيا؟!

ثم نقول لمن قال: إنه ملَك من ملائكته: هل من المعقول أنَّ الملَك من ملائكة الله يقول: مَن يدعوني فأستجيب له... إلخ؟!

فتبيَّن بهذا أن هذه الأقوال تحريف باطل يبطله الحديث.

ووالله؛ ليسوا أعلم بالله من رسول الله، وليسوا أنصح لعباد الله من رسول الله، وليسوا أفصح في قولهم من رسول الله ﷺ!!

يقولون: كيف تقولون: إن الله ينزل؟! إذا نزل؛ أين العلو؟! وإذا نزل؛ أين الاستواء على العرش؟! إذا نزل؛ فالنزول حركة

وانتقال!! إذا نزل؛ فالنزول حادث، والحوادث لا تقوم إلا بحادث!!

فنقول: هٰذا جدال بالباطل، وليس بمانع من القول بحقيقة النزول!!

هل أنتم أعلم بما يستحقُّه الله عز وجل من أصحاب الرسول ﷺ؟!

فأصحاب الرسول ﷺ ما قالوا هٰذه الاحتمالات أبداً؛ قالوا: سمعنا وآمنَّا وقبلنا وصدَّقنا.

وأنتم أيها الخالفون المخالفون تأتون الآن وتجادلون بالباطل وتقولون: كيف؟! وكيف؟!

نحن نقول: ينزل، ولا نتكلَّم عن استوائه على العرش؛ هل يخلو منه العرش أو لا يخلو؟!

أما العلو؛ فنقول: ينزل، لٰكنه عال عز وجل على خلقه؛ لأنه ليس معنى النزول أن السماء تُقِلُّه، وأن السماوات الأخرى تظلُّه؛ إذ إنه لا يحيط به شيء من مخلوقاته.

فنقول: هو ينزل حقيقة مع علوه حقيقة، وليس كمثله شيء.

أما الاستواء على العرش فهو فعل، ليس من صفات الذات، وليس لنا حق ـ فيما أرى ـ أن نتكلم هل يخلو منه العرش أو لا يخلو، بل نسكت كما سكت عن ذٰلك الصحابة رضي الله عنهم.

وإذا كان علماء أهل السنة لهم في هٰذا ثلاثة أقوال: قول بأنه

يخلو، وقول بأنه لا يخلو، وقول بالتوقُّف.

وشيخ الإسلام رحمه الله في «الرسالة العرشية» يقول: إنه لا يخلو منه العرش؛ لأن أدلة استوائه على العرش محكمَة، والحديث هٰذا محكم، والله عز وجل لا تُقاس صفاته بصفات الخلق؛ فيجب علينا أن نبقي نصوص الاستواء على إحكامها، ونصَّ النزول على إحكامه، ونقول: هو مستوٍ على عرشه، نازل إلى السماء الدنيا، والله أعلم بكيفية ذٰلك، وعقولنا أقصر وأدنى وأحقر من أن تحيط بالله عز وجل.

القول الثاني: التوقُّف؛ يقولون: لا نقول: يخلو، ولا: لا يخلو.

والثالث: أنه يخلو منه العرش.

وأورد المتأخرون الذين عرفوا أن الأرض كروية وأن الشمس تدور على الأرض إشكالاً؛ قالوا: كيف ينزل في ثلث الليل الآخر؟! وثلث الليل الآخر إذا انتقل عن المملكة العربية السعودية؛ ذهب إلى أوروبا وما قاربها؟! أفيكون نازلاً دائماً؟!

فنقول: آمن أولاً بأن الله ينزل في هٰذا الوقت المعيَّن، وإذا آمنت؛ ليس عليك شيء وراء ذٰلك، لا تقل: كيف؟! وكيف؟! بل قل: إذا كان ثلث الليل الآخر في السعودية؛ فالله نازل، وإذا كان في أمريكا ثلث الليل؛ يكون نزول الله أيضاً، وإذا طلع الفجر؛ انتهى وقت النزول في كل مكان بحسبه.

إذاً؛ موقفنا أن نقول: إنا نؤمن بما وصل إلينا عن طريق محمد رسول الله؛ بأن الله ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى الثلث الآخر من الليل، ويقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟!

*** من فوائد هٰذا الحديث:**

أولاً: إثبات العلو لله من قوله: «ينزل».

ثانياً: إثبات الأفعال الاختيارية التي هي الصفات الفعلية من قوله: «ينزل ربنا حين يبقى ثلث الليل الآخر».

ثالثاً: إثبات القول لله من قوله: «يقول».

رابعاً: إثبات الكَرَم لله عز وجل من قوله: «مَن يدعوني... مَن يسألني... مَن يستغفرني...».

*** وفيه من الناحية المسلكية:**

أنه ينبغي للإنسان أن يغتنم هٰذا الجزء من الليل، فيسأل الله عز وجل ويدعوه ويستغفره.

ما دام الرب سبحانه يقول: «من يدعوني... من يستغفرني...»، و (مَن): للتشويق؛ فينبغي لنا أن نستغل هٰذه الفرصة؛ لأنه ليس لك من العمر إلا ما أمضيته في طاعة الله، وستمر بك الأيام؛ فإذا نزل بك الموت؛ فكأنك وُلِدت تلك الساعة، وكل ما مضى ليس بشيء.

* * *

● **الحديث الثاني في إثبات الفرح، وهو قوله ﷺ: «لَلَهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِراحِلَتِهِ...» الحديث، متفق عليه**[1].

* «**لله**»: اللام هٰذه لام الابتداء. «الله»: مبتدأ.

* «**أشد**»: خبر المبتدأ.

* «**فرحاً**»: تمييز.

* قال المؤلف: «**الحديث**»؛ أي: أكمل الحديث.

والحديث أن هٰذا الرجل كان معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فضلَّت عنه، فذهب يطلبها، فلم يجدها، فأيس من الحياة، ثم اضطجع تحت شجرة ينتظر الموت؛ فإذا بخطام ناقته متعلقاً بالشجرة... ولا أحد يستطيع أن يقدر هٰذا الفرح؛ إلا من وقع فيه... فأمسك بخطام الناقة، وقال: اللهمَّ! أنت عبدي، وأنا ربك؛ أخطأ من شدة الفرح؛ لم يملك كيف يتصرَّف في الكلام!!

فالله عز وجل أفرح بتوبة عبده إذا تاب إليه من هٰذا الرجل براحلته، وليس الله عز وجل بمحتاج إلى توبتنا، بل نحن مفتقرون إليه في كل أحوالنا، لكن لكرمه جل وعلا ومحبته للإحسان والفضل والجود يفرح هٰذا الفرح الذي لا نظير له بتوبة الإنسان إذا تاب إليه.

* **في هٰذا الحديث**: إثبات الفرح لله عز وجل؛ فنقول في

(١) رواه البخاري (١١/١٠٢)، ومسلم (ص ٢١٠٢)، عن عدة من الصحابة بألفاظ مختلفة.

هٰذا الفرح: إنه فرح حقيقي، وأشد فرح، ولٰكنه ليس كفرح المخلوقين.

الفرح بالنسبة للإنسان هو نشوة وخفة يجدها الإنسان من نفسه عند حصول ما يسرُّه، ولهٰذا تشعر بأنك إذا فرحت بالشيء كأنك تمشي على الهواء، لٰكن بالنسبة لله عز وجل لا نفسِّر الفرح بمثل ما نعرفه من أنفسنا؛ نقول: هو فرح يليق به عز وجل؛ مثل بقية الصفات؛ كما أننا نقول: لله ذات، ولٰكن لا تماثل ذواتنا؛ فله صفات لا تماثل صفاتنا؛ لأن الكلام عن الصفات فرع عن الكلام في الذات.

فنؤمن بأن الله تعالى له فرح كما أثبت ذٰلك أعلم الخلق به، محمد ﷺ، وأنصح الخلق للخلق، وأفصح الخلق فيما ينطق به عليه الصلاة والسلام.

ونحن على خطر إذا قلنا: المراد بالفرح الثَّواب؛ لأن أهل التحريف يقولون: إن الله لا يفرح، والمراد بفرحه: إثابته التائب، أو: إرادة الثواب؛ لأنهم هم يثبتون أن لله تعالى مخلوقاً بائناً منه هو الثواب، ويثبتون الإرادة؛ فيقولون في الفرح: إنه الثواب المخلوق، أو: إرادة الثواب.

ونحن نقول: المراد بالفرح: الفرح حقيقة؛ مثلما أن المراد بالله عزَّ وجلَّ: نفسه حقيقة، ولٰكننا لا نمثل صفاتنا بصفات الله أبداً.

* **ويستفاد من هٰذا الحديث** مع إثبات الفرح لله عز وجل:

كمال رحمته جلَّ وعلا ورأفته بعباده؛ حيث يحب رجوع العاصي إليه هٰذه المحبة العظيمة... هارب من الله، ثم وقف ورجع إلى الله... يفرح الله به هٰذا الفرح العظيم.

* **ومن الناحية المسلكية**: يفيدنا أن نحرص على التوبة غاية الحرص، كلما فعلنا ذنباً؛ تبنا إلى الله.

قال الله تعالى في وصف المتقين: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً ﴾؛ أي فاحشة؛ مثل: الزنى، واللواط، ونكاح ذوات المحارم... قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٢٢]، ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال لوط لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

إذاً؛ ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ ﴾؛ ذكروا الله تعالى في نفوسهم؛ ذكروا عظمته، وذكروا عقابه، وذكروا ثوابه للتائبين؛ ﴿ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾؛ فعلوا ما فعلوا؛ لٰكنهم ذكروا الله تعالى في نفوسهم، واستغفروا لذنوبهم، فيغفر الله لهم، والدليل: ﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فأنت إذا علمت أن الله يفرح بتوبتك هٰذا الفرح الذي لا نظير له؛ لا شك أنك سوف تحرص غاية الحرص على التوبة.

* **وللتوبة شروط خمسة:**

الأول: الإخلاص لله عز وجل؛ بأن لا يحملك على التوبة مراءاة الناس، أو نيل الجاه عندهم، أو ما أشبه ذلك من مقاصد الدنيا.

الثاني: الندم على المعصية.

الثالث: الإقلاع عنها، ومن الإقلاع إذا كانت التوبة في حقٍّ من حقوق الآدميين: أن ترد الحق إلى صاحبه.

الرابع: العزم على أن لا تعود في المستقبل.

الخامس: أن تكون التوبة في وقت القبول، وينقطع قَبول التوبة بالنسبة لعموم الناس بطلوع الشمس من مغربها، وبالنسبة لكل واحد بحضور أجله.

قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النساء: ١٨].

وصحَّ عن النبي ﷺ أن زمن التوبة ينقطع إذا طلعت الشمس من مغربها، والناس يؤمنون حينئذ، ولكن؛ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨][1].

---

(١) لما رواه البخاري (٤٦٣٦)، ومسلم (١٥٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها، ثم قرأ الآية».

هٰذه خمسة شروط؛ إذا تمت؛ صحت التوبة.

* ولٰكن؛ هل يشترط لصحة التوبة أن يتوب من جميع الذُّنوب؟!

فيه خلاف، ولٰكن الصحيح أنه ليس بشرط، وأنها تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره[1]، لٰكن هٰذا التائب لا يصدق عليه وصف التائبين المطلق؛ فيقال: تاب توبة مقيدة، لا مطلقة.

فلو كان أحد يشرب الخمر ويأكل الربا، فتاب من شرب الخمر؛ صحت توبته من الخمر، وبقي إثمه في أكل الربا، ولا ينال منزلة التائبين على الإطلاق؛ لأنه مصرٌّ على بعض المعاصي.

* رجل تمَّت الشروط في حقِّه، وعاد إلى الذنب مرة أخرى؛ فلا تنتقض توبته الأولى؛ لأنه عزم على أن لا يعود، ولٰكن سوَّلت له نفسه، فعاد؛ إنما يجب عليه أن يتوب مرة ثانية... وهٰكذا؛ كلما أذنب؛ يتوب... وفضل الله واسع.

* * *

● **الحديث الثالث في إثبات الضحك، وهو قوله ﷺ: «يَضْحَكُ اللهُ إلى رَجُلَيْنِ؛ يَقْتُلُ أَحَدُهُما الآخَرَ؛ كِلاهُما يَدْخُلُ الجَنَّةَ»**[2].

وفي بعض النسخ: «يدخلان»، وهي صحيحة؛ لأن (كلا)

---

(١) وهما روايتان للإمام أحمد، انظر كتاب «مدارج السالكين» لابن القيم (١/ ٢٧٣).

(٢) رواه: البخاري (٢٨٢٦)، ومسلم (١٨٩٠)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

يجوز في خبرها ـ سواء كان فعلاً أو اسماً ـ مراعاة اللفظ ومراعاة المعنى، وقد اجتمعا في قول الشاعر يصف فرسين:

كِلاهُما حِينَ جَدَّ الجَرْيُ بَيْنَهُما قَدْ أقْلَعا وَكِلا أنْفَيْهِما رَابِي

* الحديث يخبر فيه النبي عليه الصلاة والسلام أن الله يضحك إلى رجلين؛ عند ملاقاتهما يقتل أحدهما الآخر؛ كلاهما يدخلان الجنة، وأحدهما لم يقتل الآخر إلا لشدة العداوة بينهما، ثم يدخلان الجنة بعد ذلك، فتزول تلك العداوة؛ لأن أحدهما كان مسلماً، والآخر كان كافراً، فقتله الكافر، فيكون هذا المسلم شهيدا، فيدخل الجنة، ثم منَّ الله على هٰذا الكافر، فأسلم، ثم قُتِلَ شهيداً، أو مات بدون قتل؛ فإنه يدخل الجنة، فيكون هٰذا القاتل والمقتول كلاهما يدخل الجنة، فيضحك الله إليهما.

* ففي هٰذا إثبات الضحك لله عز وجل، وهو ضحك حقيقي، لٰكنه لا يماثل ضحك المخلوقين؛ ضحك يليق بجلاله وعظمته، ولا يمكن أن نمثِّله؛ لأننا لا يجوز أن نقول: إن لله فماً أو أسناناً أو ما أشبه ذٰلك، لٰكن نثبت الضحك لله على وجه يليق به سبحانه وتعالى.

* فإذا قال قائل: يلزم من إثبات الضحك أن يكون الله مماثلاً للمخلوق!!

فالجواب: لا يلزم أن يكون مماثلاً للمخلوق؛ لأن الذي قال: «يضحك»: هو الذي أُنزِل عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ومن جهة أخرى؛ فالنبي عليه الصلاة والسلام لا يتكلم في مثل هٰذا إلا عن وحي؛ لأنه من أمور الغيب، ليس من الأمور الاجتهادية التي قد يجتهد فيها الرسول عليه الصلاة والسلام، ثم يقرُّه الله على ذٰلك أو لا يقرُّه، ولٰكنه من الأمور الغيبية التي يتلقَّاها الرسول عليه الصلاة والسلام عن طريق الوحي.

* لو قال قائل: المراد بالضحك الرضى؛ لأن الإنسان إذا رضي عن الشيء؛ سُرَّ به وضحك، والمراد بالرضى الثواب أو إرادة الثواب؛ كما قال ذٰلك أهل التعطيل.

فالجواب أن نقول: هٰذا تحريف للكَلِم عن مواضعه؛ فما الذي أدراكم أن المراد بالرضى الثواب؟!

فأنتم الآن قلتم على الله ما لا تعلمون من وجهين:

الوجه الأول: صرفتم النص عن ظاهره بلا علم.

الثاني: أثبتُّم له معنى خلاف الظاهر بلا علم.

ثم نقول لهم: الإرادة؛ إذا قلتم: إنها ثابتة لله عز وجل؛ فإنه تنتقض قاعدتكم؛ لأن للإنسان إرادة؛ كما قال تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]؛ فللإنسان إرادة، بل للجدار إرادة؛ كما قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧]؛ فأنتم إما أن تنفوا الإرادة عن الله عز وجل كما نفيتم ما نفيتم من الصفات، وإما إن تثبتوا لله عز وجل ما أثبته لنفسه، وإن كان للمخلوق نظيره في

الاسم لا في الحقيقة.

* **والفائدة المسلكية من هٰذا الحديث**: هو أننا إذا علمنا أن الله عز وجل يضحك؛ فإننا نرجو منه كل خير.

ولهٰذا قال رجل للنبي ﷺ: يا رسول الله! أَوَيضحك ربنا؟ قال: «نعم». قال: لن نعدم من رب يضحك خيراً[(١)].

إذا علمنا ذٰلك؛ انفتح لنا الأمل في كل خير؛ لأن هناك فرقاً بين إنسان عبوس لا يكاد يُرى ضاحكاً، وبين إنسان يضحك.

وقد كان النبي ﷺ دائم البِشر كثير التبسُّم عليه الصلاة والسلام.

* * *

● **الحديث الرابع: في إثبات العجب وصفات أخرى.**

وهو قوله: «عَجِبَ رَبُّنا مِنْ قُنوطِ عِبادِهِ وقُرْبِ غِيَرِهِ؛ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَزِلِينَ قَنِطينَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ؛ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ». حديث حسن[(٢)].

---

(١) لما رواه وكيع بن عدس عن عمه أبي رزين قال: قال رسول الله ﷺ: «ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب غيره، قال: قلت يا رسول الله! أويضحك الرب عز وجل قال: نعم، قال: لن نعدم من رب يضحك خيراً»، رواه أحمد (٤/ ١١، ١٢)، وابن ماجه (١٨١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٩٨٧)، والآجري في «الشريعة» (٢٧٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ٢٤٤)، والحديث حسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٨١٠) مخطوط، كما نقله عنه الأخ علي الحلبي في تحقيقه لـ «العقيدة الواسطية» (ص٤١)، وانظر ما بعده.

(٢) من حديث أبي رزين عند ابن كثير في تفسيره، لقوله تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا=

* العجب: هو استغراب الشيء، ويكون ذٰلك لسببين:

السبب الأول: خَفاء الأسباب على هٰذا المستغرب للشيء المتعجَّب منه؛ بحيث يأتيه بغتة بدون توقع، وهٰذا مستحيل على الله تعالى؛ لأن الله بكل شيء عليم، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

والثاني: أن يكون السبب فيه خروج هٰذا الشيء عن نظائره وعمّا ينبغي أن يكون عليه؛ بدون قصور من المتعجب؛ بحيث يعمل عملاً مستغرباً لا ينبغي أن يقع من مثله.

وهٰذا ثابت لله تعالى؛ لأنه ليس عن نقص من المتعجِّب، ولٰكنه عجب بالنظر إلى حال المتعجَّب منه.

* قوله: «**عَجِبَ ربُّنا من قنوط عباده**»: القنوط: أشد اليأس. يعجب الرب عز وجل من دخول اليأس الشديد على قلوب العباد.

«**وقُربِ غِيَرِه**»: الواو بمعنى (مع)؛ يعني: مع قرب غيره.

و(الغير): اسم جمع غِيَرَة؛ كطِيَر: اسم جمع طِيَرَة، وهي اسم بمعنى التغيير، وعلى هٰذا؛ فيكون المعنى: وقرب تغييره.

فيعجب الرب عز وجل؛ كيف نقنط وهو سبحانه وتعالى

= الجنة...﴾ [البقرة: ٢١٤]، ولفظه: «عجب ربك...» الحديث. وبدل «غيره» «غيثه».

قريب التغيير، يغير الحال إلى حال أُخرى بكلمة واحدة، وهي: كُنْ. فيكون.

* وقوله: «**ينظر إليكم أَزِلين**»؛ أي: ينظر الله إلينا بعينه.

* «**أزِلين قَنِطين**»: الأزِل: الواقع في الشدة. و«قنطينَ»: جمع قانط، والقانط: اليائس من الفرج وزوال الشدة.

فذكر النبي ﷺ حال الإنسان وحال قلبه؛ حاله أنه واقع في شدة، وقلبه قانط يائس مستبعد للفَرَجِ.

* «**فيظل يضحك**»: يظل يضحك من هٰذه الحال العجيبة الغريبة؛ كيف تقنط من رحمة أرحم الراحمين الذي يقول للشيء: كنْ. فيكون؟!

* «**يعلم أن فرجكم قريب**»؛ أي: زوال شدتكم قريب.

* **في هٰذا الحديث عدة صفات:**

ـ أولاً: العجب؛ لقوله: «عجب ربنا من قنوط عباده».

وقد دلَّ على هٰذه الصفة القرآن الكريم؛ قال الله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢]؛ على قراءة ضم التاء.

ـ وفيه أيضاً بيان قدرة الله عز وجل؛ لقوله: «وقرب غِيَرِه»، وأنه عز وجل تام القدرة، إذا أراد؛ غيَّر الحال من حال إلى ضدها في وقت قريب.

ـ وفيه أيضاً إثبات النظر؛ لقوله: «ينظر إليكم».

ـ وفيه إثبات الضحك؛ لقوله: «فيظل يضحك».

ـ وكذٰلك العلم؛ «يعلم أن فرجكم قريب».

ـ والرحمة؛ لأن الفرج من الله دليل على رحمة الله بعباده.

وكل هٰذه الصفات التي دلَّ عليها الحديث يجب علينا أن نثبتها لله عز وجل حقّاً على حقيقتها، ولا نتأول فيها.

* **والفائدة المسلكية في هٰذا**: أن الإنسان إذا علم ذٰلك من الله سبحانه وتعالى؛ حذر من هٰذا الأمر، وهو القنوط من رحمة الله، ولهٰذا؛ كان القنوط من رحمة الله من الكبائر:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

فالقنوط من رحمة الله، واستبعاد الرحمة: من كبائر الذنوب، والواجب على الإنسان أن يحسن الظن بربه؛ إن دعاه؛ أحسن الظن به بأنه سيجيبه، وإن تعبَّد له بمقتضى شرعه؛ فليحسن الظن بأن الله سوف يقبل منه، وإن وقعت به شدة؛ فليحسن الظن بأن الله سوف يزيلها؛ لقول النبي ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً»[1].

(١) قطعة من الحديث الذي رواه الإمام أحمد (١/٣٠٧)، والترمذي (٢٥١٨)، وقال حديث حسن صحيح، وأبو يعلى (٢٥٥٦) عن ابن عباس. قال الحافظ ابن رجب =

بل قد قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦]، ولن يغلب عسر يسرين؛ كما يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما.

* * *

● **الحديث الخامس: في إثبات الرجل أو القدم:**

وهو قوله ﷺ: «لا تزال جهَنَّمُ يُلْقى فيها، وهيَ تَقولُ: هَلْ مِنْ مَزيدٍ؛ حتّى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فيها رِجْلَهُ (وفي رواية: عليها قَدَمَهُ)، فيَنْزَوي بَعْضُها إلى بَعْضٍ، فتَقولُ: قَطْ قَطْ». متفق عليه[1].

* قوله: «**لا تزال جهنمُ يُلْقى فيها**»: هٰذا يوم القيامة؛ يعني: يُلقى فيها الناس والحجارة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]، وقد يقال: يُلقى فيها الناس فقط، وأن الحجارة لم تزل موجودة فيها، والعلم عند الله.

* «**يُلْقَى فيها**»: في هٰذا دليل على أن أهلها ـ والعياذ بالله ـ يُلْقَون فيها إلقاء لا يدخلون مكرَّمين، بل يدَعُّون إلى نار جهنم دَعّاً؛ ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨].

* قوله: «**وهي تقول: هل من مزيد؟**»: (هل): للطلب؛

= في شرحه لهذا الحديث في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٦٠): وقد روي هذا الحديث من طرق كثيرة، وأصح الطرق كلها طريق حنش الصنعاني التي خرجها الترمذي.

(١) رواه: البخاري (٧٣٨٤)، ومسلم (٢٨٤٨)؛ عن أنس رضي الله عنه.

يعني: زيدوا. وأبعد النجعة من قال: إن الاستفهام هنا للنفي، والمعنى على زعمه: لا مزيد على ما فيَّ، والدليل على بطلان هٰذا التأويل:

* قوله: «**حتى يضع رب العزة فيها رجله (وفي رواية: عليها قدمه)**»: لأن هٰذا يدل على أنها تطلب زيادة، وإلا؛ لما وضع الله عليها رجله حتى ينزوي بعضها إلى بعض؛ فكأنها تطلب بشوق إلى من يلقى فيها زيادة على ما فيها.

* قوله: «**حتى يضع رب العزة**»: عَبَّر برب العزة؛ لأن المقام مقام عزَّة وغلبة وقهر.

وهنا (رب)؛ بمعنى: صاحب، وليست بمعنى خالق؛ لأن العزة صفة من صفات الله، وصفات الله تعالى غير مخلوقة.

* وقوله: «**فيها رجله**»، وفي رواية: «عليها قدمه»: (في) و (على): معناهما واحد هنا، والظاهر أن (في) بمعنى (على)؛ كقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]؛ أي: عليها.

أما الرجل والقدم؛ فمعناهما واحد، وسميت رجل الإنسان قدماً؛ لأنها تتقدم في المشي؛ فإن الإنسان لا يستطيع أن يمشي برجله إلا إذا قدمها.

* قوله: «**فينزوي بعضها إلى بعض**»؛ يعني: ينضم بعضها إلى بعض من عظمة قدم الباري عز وجل.

* قوله: «**فتقول: قط قط**»؛ بمعنى: حسبي حسبي؛ يعني:

لا أريد أحداً.

*** في هٰذا الحديث من الصفات:**

أولاً: إثبات القول من الجماد؛ لقوله: «وهي تقول»، وكذٰلك: «فتقول: قط قط»، وهو دليل على قدرة الله الذي أنطق كل شيء.

ثانياً: التحذير من النار؛ لقوله: «لا تزال جهنم يُلْقَى فيها، وهي تقول: هل من مزيد؟».

ثالثاً: إثبات فضل الله عز وجل؛ فإن الله تعالى تكفَّل للنار بأن يملأها كما قال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]؛ فإذا دخلها أهلها، وبقي فيها فضل، وقالت: هل من مزيد؟ وضع الله عليها رجله، فانزوى بعضها إلى بعض، وامتلأت بهٰذا الانزواء.

وهٰذا من فضل الله عز وجل؛ وإلا؛ فإن الله قادر على أن يخلق أقواماً ويكمل ملأها بهم، ولٰكنه عز وجل لا يعذب أحداً بغير ذنب؛ بخلاف الجنة، فيبقى فيها فضل عمن دخلها من أهل الدنيا، فيخلق الله أقواماً يوم القيامة ويدخلهم الجنة بفضله ورحمته.

رابعاً: أن لله تعالى رجلاً وقدماً حقيقية، لا تماثل أرجل المخلوقين، ويسمي أهل السنة مثل هٰذه الصفة: الصفة الذاتية الخبرية؛ لأنها لم تعلم إلا بالخبر، ولأن مسماها أبعاض لنا

وأجزاء، لٰكن لا نقول بالنسبة لله: إنها أبعاض وأجزاء؛ لأن هٰذا ممتنع على الله عز وجل.

وخالف الأشاعرة وأهل التحريف في ذٰلك، فقالوا: «يضع عليها رجله»؛ يعني: طائفة من عباده مستحقين للدخول، والرجل تأتي بمعنى الطائفة؛ كما في حديث أيوب عليه الصلاة والسلام[1]؛ أرسل الله إليه رجل جراد من ذهب؛ يعني: طائفة من جراد.

وهٰذا تحريف باطل؛ لأن قوله: «عليها»: يمنع ذٰلك.

وأيضاً؛ لا يمكن أن يضيف الله عز وجل أهل النار إلى نفسه؛ لأن إضافة الشيء إلى الله تكريم وتشريف.

وقالوا في القدم: قدم؛ بمعنى: مقدم؛ أي: يضع الله تعالى عليها مقدمه؛ أي: من يقدمهم إلى النار.

وهٰذا باطل أيضاً؛ فإن أهل النار لا يقدمهم الباري عز وجل، ولٰكنهم ﴿يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣]، ويلقون فيها إلقاء؛ فهٰؤلاء المحرفون فروا من شيء ووقعوا في شرٍّ منه؛ فروا من تنزيه الله عن القدم والرجل، لٰكنهم وقعوا في السفه ومجانبة الحكمة في أفعال الله عز وجل.

والحاصل أنه يجب علينا أن نؤمن بأن لله تعالى قدماً، وإن شئنا؛ قلنا: رجلاً؛ على سبيل الحقيقة؛ مع عدم المماثلة، ولا نكيِّف الرجل؛ لأن النبي ﷺ أخبرنا بأن لله تعالى رجلاً أو قدماً،

---

(١) رواه البخاري (٣٣٩١، ٧٤٩٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ولم يخبرنا كيف هٰذه الرجل أو القدم، وقد قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

* **والفائدة المسلكية من هٰذا الحديث:** هو الحذر الشديد من عمل أهل النار؛ خشية أن يلقى الإنسان فيها كما يلقى غيره.

* * *

● **الحديث السادس: في إثبات الكلام والصوت:**

وهو قوله ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعالى: يا آدَمُ! فَيَقولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيُنادِي بِصَوْتٍ: إنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثاً إلى النَّارِ...». متفق عليه[(١)].

الشرح:

* يخبر النبي عليه الصلاة والسلام عن ربه أنه يقول: يا آدم! وهٰذا يوم القيامة، فيجيب آدم: «لبيك وسعديك».

* «**لبيك**»؛ بمعنى: إجابة بعد إجابة، وهو مثنى لفظاً، ومعناه: الجمع، ولهٰذا يعرب على أنه ملحق بالمثنى.

* و«**سعديك**»؛ يعني: إسعاداً بعد إسعاد؛ فأنا ألبي قولك وأسألك أن تسعدني وتعينني.

* قال: «**فينادي**»؛ أي: الله؛ فالفاعل هو الله عز وجل.

---

(١) رواه: البخاري (٧٤٨٣)، ومسلم (٢٢٢)؛ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

* وقوله: «**بصوت**»: هٰذا من باب التأكيد؛ لأن النداء لا يكون إلا بصوت مرتفع؛ فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]؛ فالطائر الذي يطير؛ إنما يطير بجناحيه، وهٰذا من باب التأكيد.

* وقوله: «**إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار**»: ولم يقل: إني آمرك! وهٰذا من باب الكبرياء والعظمة؛ حيث كنى عن نفسه تعالى بكنية الغائب، فقال: «إن الله يأمرك»؛ كما يقول الملك لجنوده: إنَّ الملك يأمركم بكذا وكذا؛ تفاخراً وتعاظماً، والله سبحانه هو المتكبر وهو العظيم.

وجاء في القرآن مثل هٰذا: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، ولم يقل: إني آمركم.

* وقوله: «**أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار**»؛ أي: مبعوثاً.

* والحديث الآخر؛ قال: «يا رب! وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعون»[1].

* * *

● **الحديث السابع في إثبات الكلام أيضاً:**

وهو قوله ﷺ: «ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، ولَيْسَ

---

(١) رواه: البخاري (٦٥٣٠)، ومسلم (٢٢٢)؛ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمانٌ»[1].

الشرح:

* «**ما**»: نافية.

* «**من أحد**»: مبتدأ؛ دخلت عليه (من) الزائدة للتوكيد؛ يعني: ما منكم من أحد.

* «**إلا سيكلمه ربه**»؛ يعني: هٰذه حاله؛ سيكلمه الله عز وجل؛ «**ليس بينه وبينه ترجمان**»، وذٰلك يوم القيامة.

* والترجمان: هو الذي يكون واسطة بين متكلمين مختلفين في اللغة، ينقل إلى أحدهما كلام الآخر باللغة التي يفهمها.

ويشترط في المترجم أربعة شروط: الأمانة، وأن يكون عالماً باللغة التي يترجم منها، وباللغة التي يترجم إليها، وبالموضوع الذي يترجمه.

* **وفي هٰذا الحديث من صفات الله**: الكلام، وأنه بصوت مسموع مفهوم.

* **الفوائد المسلكية في الحديث الأول**: «يقول الله: يا آدم!»: فيه بيان أن الإنسان إذا علم بذٰلك؛ فإنه يحذر ويخاف أن يكون من التسع مئة والتسعة والتسعين.

وفي الحديث الثاني: يخاف الإنسان من ذٰلك الكلام الذي

---

(١) رواه: البخاري (٦٥٣٩)، ومسلم (١٠١٦) عن عدي بن حاتم رضي الله عنه.

يجري بينه وبين ربه عز وجل أن يفتضح بين يدي الله إذا كلمه تعالى بذنوبه، فيقلع عن الذنوب، ويخاف من الله عز وجل.

* * *

● **الحديث الثامن: في إثبات العلو لله وصفات أخرى:**

وهو قوله ﷺ في رُقْيَةِ المريض: «رَبَّنا اللهُ الذي في السَّماءِ! تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أمْرُكَ في السَّماءِ والأرْضِ؛ كما رَحْمَتُكَ في السَّماءِ؛ اجْعَلْ رَحْمَتَكَ في الأرْضِ، اغْفِرْ لَنا حُوبَنا وخَطايانا، أنتَ رَبُّ الطَّيِّبينَ، أنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ وَشِفاءً مِنْ شِفائِكَ على هٰذا الوَجِعِ؛ فَيَبْرَأ». حديث حسن، رواه أبو داود وغيره[1].

الشرح:

* قوله: «**في رُقْيَة المريض**»: من باب إضافة المصدر إلى المفعول؛ يعني: في الرقية إذا قرأ على المريض.

* قوله: «**ربنا الله الذي في السماء**»: تقدم الكلام على قوله: «في السماء» في الآيات.

* وقوله: «**تقدَّس اسمُك**»؛ أي: طهر، والاسم هنا مفرد،

---

(١) رواه أبو داود (٣٨٩٢)، وأحمد (٦/ ٢٠)، واللالكائي (٦٤٨)، والحاكم (١/ ٣٤٤)، وصححه ابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٠٥٤)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٩٢)، وابن قدامة في «العلو» (ص٤٨)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (٧٠)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» كما في «تحفة الأشراف» (٨/ ٢٣٠).

لٰكنه مضاف، فيشمل كل الأسماء؛ أي: تقدست أسماؤك من كل نقص.

* «**أمرك في السماء والأرض**»: أمر الله نافذ في السماء والأرض؛ كما قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥]، وقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

* وقوله: «**كما رحمتك في السماء؛ اجعل رحمتك في الأرض**»: الكاف هنا للتعليل، والمراد بها التوسُّل؛ توسل إلى الله تعالى بجعل رحمته في السماء أن يجعلها في الأرض.

فإن قلت: أليس رحمة الله في الأرض أيضاً؟!

قلنا: هو يقرأ على المريض، والمريض يحتاج إلى رحمة خاصة يزول بها مرضه.

* وقوله: «**اغفر لنا حُوبنا وخطايانا**»: الغفر: ستر الذنب والتجاوز عنه. والحوب: كبائر الإثم. والخطايا: صغائره. هٰذا إذا جمع بينهما، أما إذا افترقا؛ فهما بمعنى واحد؛ يعني: اغفر لنا كبائر الأثم وصغائره؛ لأن في المغفرة زوال المكروب وحصول المطلوب، ولأن الذنوب قد تحول بين الإنسان وبين توفيقه؛ فلا يوفَّق ولا يُجاب دعاؤه.

* قوله: «**أنت رب الطَّيِّبين**»: هٰذه ربوبية خاصة، وأما الربوبية العامة؛ فهو رب كل شيء، والربوبية قد تكون خاصة وقد تكون عامة.

واستمع إلى قول السحرة الذين آمنوا: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١ ـ ١٢٣]؛ حيث عموا ثم خصوا.

واستمع إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ [النمل: ٩١]؛ فـ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾: خاص، ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾: عام.

* والطيبون: هم المؤمنون؛ فكل مؤمن؛ فهو طيب، وهٰذا من باب التوسل بهٰذه الربوبية الخاصة، إلى أن يستجيب الله الدعاء ويشفي المريض.

* قوله: «**أنزل رحمةً من رحمتك وشفاءً من شفائك على هٰذا الوجع**»: هٰذا الدعاء وما سبقه من باب التوسل.

* «**أنزل رحمة من رحمتك**»: الرحمة نوعان:

ـ رحمة هي صفة الله؛ فهٰذه غير مخلوقة وغير بائنة من الله عز وجل؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، ولا يطلب نزولها.

ـ ورحمة مخلوقة، لٰكنها أثر من آثار رحمة الله؛ فأطلق عليها الرحمة؛ مثل قوله تعالى في الحديث القدسي عن الجنة: «أنت رحمتي أرحم بك من أشاء»[1].

---

(١) سبق تخريجه (١/ ٣٤٤)، وهو في «الصحيحين».

* كذٰلك الشفاء؛ فالله شاف، ومنه الشفاء؛ فوصفه الشفاء، وهو فعل من أفعاله، وهو بهٰذا المعنى صفة من صفاته، وأما باعتبار تعديه إلى المريض؛ فهو مخلوق من مخلوقاته؛ فإن الشفاء زوال المرض.

* قوله: «فيبرأ»: بفتح الهمزة منصوباً؛ لأنه جواب الدعاء: أنزل رحمة؛ فيبرأ. أما إذا قرىء بالضم مرفوعاً؛ فإنه مستأنف، ولا يتبع الحديث، بل يوقف عند قوله: «الوجع»، وتكون «فيبرأ»: جملة خبرية تفيد أن الإنسان إذا قرأ بهٰذه الرقية؛ فإن المريض يبرأ، ولٰكن الوجه الأول أحسن وهو بالنصب.

* * *

● الحديث التاسع: في إثبات العلو أيضاً:

وهو قوله ﷺ: «أَلا تَأْمَنوني وأَنا أَمينُ مَنْ في السَّماءِ»[1].

الشرح:

* **«ألا تأمنوني»**: فيها إشكال لغوي، وهو حذف نون الفعل بدون ناصب ولا جازم!!

والجواب عن هٰذا: أنه إذا اتصلت نون الوقاية بفعل من الأفعال الخمسة؛ جاز حذف نون الرفع.

---

(١) رواه البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤)؛ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

* «**ألا تأمنوني**»؛ أي: ألا تعتبروني أميناً.

* «**وأنا أمين من في السماء**»: والذي في السماء هو الله عز وجل، وهو أمينه عليه الصلاة والسلام على وحيه، وهو سيد الأمناء عليه الصلاة والسلام، والرسول والذي ينزل عليه جبريل هو أيضاً أمين: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۞ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۞ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢٠].

* وهٰذا الحديث له سبب، وهو أن النبي ﷺ قسم ذهيبة بعث بها علي من اليمن بين أربعة نفر، فقال له رجل: نحن أحق بهٰذا من هٰؤلاء. فقال النبي ﷺ: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء».

* «**ألا**»: للعرض؛ كأنه يقول: ائمنوني؛ فإني أمين من في السماء!

ويحتمل أن تكون الهمزة لاستفهام الإنكار، و(لا): نافية.

* والشاهد قوله: «**من في السماء**»، ونقول فيها ما قلناه فيما سبق في الآيات.

* * *

● **الحديث العاشر: في إثبات العلو أيضاً:**

وهو قوله ﷺ: «وَالعَرْشُ فَوْقَ الماءِ، وَاللهُ فَوْقَ العَرْشِ، وَهُوَ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ». حديث حسن، رواه أبو داود

وغيره[1].

الشرح:

* لما ذكر النبي عليه الصلاة والسلام المسافات التي بين السماوات؛ قال: «والعرش فوق الماء».

ويشهد لهٰذا قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧].

* قال: **«والله فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه»**: هو فوق العرش، ومع ذٰلك لا يخفى عليه شيء من أحوالنا وأعمالنا، بل قد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [قٓ: ١٦]؛ يعني: الشيء الذي في ضميرك يعلمه الله؛ مع أنه ما بان لأحد.

* وقوله: **«وهو يعلم ما أنتم عليه»**: يفيد إحاطة علم الله بكل ما نحن عليه.

*** الفائدة المسلكية من هٰذا الحديث:**

وإذا آمنا بهٰذا الحديث؛ فإننا نستفيد منه فائدة مسلكية، وهي

---

(١) رواه ابن خزيمة في كتاب «التوحيد» (١/٢٤٢)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٥١)، وأبو الشيخ في كتاب «العظمة» (٢٧٩)، واللالكائي في «شرح السنة» (٦٥٩)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (٨١)، وقال الذهبي: في «مختصر العلو» (١٠٣) إسناده صحيح، وعزاه الهيثمي في «المجمع» (١/٨٦) للطبراني في «الكبير» وقال: رجاله رجال الصحيح.

تعظيم الله عز وجل، وأنه في العلو، وأنه يعلم ما نحن عليه، فنقوم بطاعته؛ بحيث لا يفقدنا حيث أمرنا، ولا يجدنا حيث نهانا.

* * *

● **الحديث الحادي عشر: في إثبات العلو أيضاً:**

وهو قوله ﷺ للجارية: «أَيْنَ اللهُ؟». قالت: في السماء. قال: «مَنْ أنا؟». قالت: أنت رسول الله. قال: «أَعْتِقْها؛ فإنَّها مُؤْمِنَة». رواه مسلم[1].

الشرح:

* **قوله:** «أين الله؟»: (أين): يستفهم بها عن المكان.

* «**قالت: في السماء**»؛ يعني: على السماء، أو: في العلو؛ على حسب الاحتمالين السابقين[2].

* «**قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله. قال: أعتقها فإنها مؤمنة**».

وعند أهل التعطيل هي بقولها: «في السماء»: إذا أرادت أنه في العلو؛ هي كافرة!! لأنهم يرون أن من أثبت أن الله في جهة؛ فهو كافر؛ إذ يقولون: إن الجهات خالية منه.

واستفهام النبي ﷺ بـ (أين) يدل على أن لله مكاناً.

ولٰكن يجب أن نعلم أن الله تعالى لا تحيط به الأمكنة؛ لأنه

---

(١) سبق تخريجه (١/ ٨٥).

(٢) (١/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨).

أكبر من كل شيء، وأن ما فوق الكون عدم، ما ثَمَّ إلا الله؛ فهو فوق كل شيء.

* وفي قوله: «**أعتقها؛ فإنها مؤمنة**»: دليل على أن عتق الكافر ليس بمشروع، ولهٰذا لا يجزىء عتقه في الكفارات؛ لأن بقاء الكافر عندك رقيقاً؛ فيه نوع حماية له وسلطة وإمرة وتقريب من الإسلام؛ فإذا أعتقته؛ تحرر، وإذا تحرر؛ فيخشى منه أن يرجع إلى بلاد الكفر؛ لأن أصل الرق هو الكفر، ويبقى معيناً للكافرين على المؤمنين.

* * *

● **الحديث الثاني عشر: في إثبات المعية:**

وهو قوله ﷺ: «أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت». حديث حسن، أخرجه الطبراني من حديث عبادة بن الصامت[1].

الشرح:

* أفاد الحديث معيّة الله عز وجل، وقد سبق في الآيات أن معية الله لا تستلزم أن يكون في الأرض، بل يمتنع غاية الامتناع أن يكون في الأرض؛ لأن العلو من صفاته الذاتية التي لا ينفك عنها أبداً، بل هي لازمة له سبحانه وتعالى.

---

(١) سبق تخريجه (١/٤٠٧).

وسبق[1] أيضاً أنها قسمان.

* وقول الرسول ﷺ: «**أفضل الإيمان أن تعلم**»: يدل على أن الإيمان يتفاضل؛ لأنك إذا علمت أن الله معك حيثما كنت؛ خفت منه عز وجل وعظَّمته.

لو كنت في حجرة مظلمة ليس فيها أحد؛ فاعلم أن الله معك، لا في الحجرة؛ لٰكنه سبحانه وتعالى معك؛ لإحاطته بك علماً وقدرة وسلطاناً وغير ذٰلك من معاني ربوبيته.

● **الحديث الثالث عشر: في إثبات كون الله قبل وجه المصلي:**

وهو قوله ﷺ: «إذا قامَ أحَدُكُمْ إلىٰ الصَّلاة؛ فَلا يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلا عَنْ يَمينِهِ؛ فإنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ، ولٰكِنْ عَنْ يَسارِهِ، أو تَحْتَ قَدَمِهِ». متفق عليه[2].

الشرح:

* «**قبل وجهه**»؛ يعني: أمامه.

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

* «**يمينه**»: ورد فيه حديث: «فإن عن يمينه ملكاً[3]»، ولأن

---

(١) (١/٣٨٦ ـ ٣٨٨).
(٢) البخاري (٤٠٥)، ومسلم (٥٤٧)؛ عن ابن عمر رضي الله عنهما.
(٣) البخاري (٤١٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

اليمين أفضل من الشمال، فيكون اليسار أولى بالبصاق ونحوه، ولهٰذا قال: «ولٰكن عن يساره أو تحت قدمه».

فإن كان في المسجد؛ قال العلماء: فإنه يجعل البصاق في خرقة أو منديل أو ثوبه، ويحك بعضه ببعض، حتى تزول صورة البصاق، وإذا كان الإنسان في المسجد عند الجدار، والجدار قصير عن يساره؛ فإنه يمكن أن يبصق عن يساره إذا لم يؤذ أحداً من المارة.

* **يستفاد من هٰذا الحديث**: أن الله تبارك وتعالى أمام وجه المصلي، ولٰكن يجب أن نعلم أن الذي قال: إنه أمام وجه المصلي؛ هو الذي قال: إنه في السماء، ولا تناقض في كلامه هٰذا وهٰذا؛ إذ يمكن الجمع من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن الشرع جمع بينهما، ولا يجمع بين متناقضين.

الوجه الثاني: أنه يمكن أن يكون الشيء عالياً، وهو قِبَل وجهك؛ فها هو الرجل يستقبل الشمس أول النهار، فتكون أمامه، وهي في السماء، ويستقبلها في آخر النهار، تكون أمامه، وهي في السماء؛ فإذا كان هٰذا ممكناً في المخلوق؛ ففي الخالق من باب أولى بلا شك.

الوجه الثالث: هب أن هٰذا ممتنع في المخلوق؛ فإنه لا يمتنع في الخالق؛ لأن الله تعالى ليس كمثله شيء في جميع صفاته.

يستفاد من هذا الحديث من الناحية المسلكية وجوب الأدب مع الله عز وجل ويستفاد أنه متى آمن المصلي بذلك فإنه يحدث له خشوعاً وهيبة من الله عز وجل.

● **الحديث الرابع عشر: في إثبات العلو وصفات أخرى:**

وهو قوله ﷺ: «اللهُمَّ! رَبَّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَالأَرْضِ وَرَبَّ العَرْشِ العَظيمِ! رَبَّنا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ! فالِقَ الحَبِّ والنَّوَى! مُنْزِلَ التَّوْراةِ وَالإِنْجيلِ وَالقُرْآنِ! أعوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسي، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِناصِيَتِها. أَنْتَ الأَوَّلُ؛ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وأَنْتَ الآخِرُ؛ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وأَنْتَ الظَّاهِرُ؛ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وأَنْتَ الباطِنُ؛ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ؛ اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ، وأَغْنِني مِنَ الفَقْرِ». رواه مسلم[(١)].

الشرح:

* هٰذا حديث عظيم، توسل النبي ﷺ إلى الله تعالى بربوبيته في قوله: «اللهم! رب السماوات السبع والأرض! ورب العرش العظيم! ربنا ورب كل شيء!»، وهٰذا من باب التعميم بعد التخصيص في قوله: «ورب كل شيء»، وهٰذا التعميم بعد التخصيص؛ لئلا يتوهم واهم اختصاص الحكم بما خصص به.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٩١]؛ حيث قال: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ

---

(١) مسلم (٢٧١٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

شَيۡءٖ﴾؛ حتى لا يظن ظان أنه ليس رباً إلا لهٰذه البلدة.

* «فالق الحب والنوى»: حب الزروع. و«النوى»: نوى الغرس؛ فالأشجار التي تخرج: إما زروع أصلها الحب، وإما أشجار أصلها النوى؛ فما للأشجار يسمى نوى، وما للزروع يسمى حباً؛ ﴿فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ﴾ [الأنعام: ٦].

هٰذا الحب والنوى اليابس الذي لا ينمو ولا يزيد؛ يفلقه الرب عز وجل؛ أي: يفتحه حتى تخرج منه الأشجار والزروع، ولا يستطيع أحد أن يفعل ذٰلك؛ مهما بلغ الناس في القدرة؛ ما استطاعوا أن يفلقوا حبة واحدة أبداً! والنوى كذٰلك الذي كالحجر؛ لا ينمو، ولا يزيد؛ يفلقه الله عز وجل، وينفرج، ثم تكون منه الغريسة التي تنمو، ولا أحد يستطيع ذٰلك؛ إلا الذي فلقها سبحانه وتعالى.

ولما ذكر الآية الكونية العظيمة؛ ذكر الآيات الشرعية، وهي:

* قوله: «منزل التوراة والإنجيل والقرآن»: وهٰذه أعظم كتب أنزلها الله عز وجل، وبدأها على الترتيب الزمني: التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، والفرقان على محمد ﷺ.

وفي هٰذا نص صريح على أن التوراة منزلة كما جاء في القرآن: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال في أول سورة آل عمران: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ * مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾ [آل عمران: ٣ ـ ٤].

* قوله: «أعوذ بك من شر نفسي»: أعتصم بالله من شر نفسي.

إذاً؛ في نفسك شر؛ ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

لكن النفس نفسان:

ـ نفس مطمئنة طيبة تأمر بالخير.

ـ ونفس شريرة أمارة بالسوء.

والنفس اللوامة؛ هل هي ثالثة، أو وصف للثنتين السابقتين؟!

فيه خلاف: بعضهم يقول: إنها نفس ثالثة. وبعضهم يقول: هي وصف للثنتين السابقتين؛ فالمطمئنة تلومك، والأمارة بالسوء تلومك؛ فيكون قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]؛ يشمل النفسين جميعاً.

فالمطمئنة تلومك على التقصير في الواجب؛ إذا أهملت واجباً؛ لامتك، وإذا فعلت محرماً؛ لامتك.

والأمارة بالسوء بالعكس؛ إذا فعلت الخير؛ لامتك، وتلومك إذا فوَّتَّ ما تأمرك به من السوء.

إذاً؛ صارت اللوَّامة على القول الراجح وصفاً للنفسين معاً.

وقوله هنا: «أعوذ بك من شر نفسي»: المراد بها النفس الأمارة بالسوء.

* قوله: «**ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها**»: الدابة: كل ما يدب على الأرض، حتى الذي يمشي على بطنه داخل في هٰذا الحديث؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ [النور: ٤٥]، وقوله: ﴿۞وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٧].

وإن كانت الدابة تطلق في العرف على ذوات الأربع، وفي عرف أخص تطلق على الحمار فقط، لٰكنها في مثل هٰذا الحديث يراد بها كل ما يدب على الأرض، وما يدب على الأرض فيه شرور، أما بعضه؛ فشر محض بالنسبة لذاته، وأما بعضه؛ ففيه خير وفيه شر، وحتى الذي فيه خير؛ لا يسلم من الشر.

* قوله: «**أنت آخذ بناصيتها**»: الناصية: مقدم الرأس، وإنما نص على الناصية؛ لأنه هو المقدم، وهو الذي يمسك به لقيادة البعير وشبهه. وقيل: خُصَّ ذٰلك؛ لأن المخ الذي فيه التصور والتلقي يكون في مقدمة الرأس، والعلم عند الله.

* قوله: «**أنت الأول؛ فليس قبلك شيء**»: هٰذا تفسير من النبي ﷺ لقوله: «الأول»، والأول من أسماء الله.

وقد ذكرنا عند تفسير الآية أن أهل الفلسفة يسمُّون الله: القديم، وذكرنا أن القديم ليس من أسماء الله الحسنى، وأنه لا يجوز أن يسمَّى به، لٰكن يجوز أن يخبر به عنه، وباب الخبر أوسع من باب التسمية؛ لأن القديم ليس من الأسماء الحسنى، والقديم فيه نقص؛ لأن القدم قد يكون قدماً نسبيّاً؛ ألم تر إلى قوله تعالى:

﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يس: ٣٩]، والعرجون القديم حادث، لٰكنه قديم بالنسبة لما بعده.

* قوله: «**وأنت الظاهر؛ فليس فوقك شيء**»: الظاهر من الظهور، وهو العلو؛ كما قال تعالى: ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ [الكهف: ٩٧]؛ ﴿ يَظْهَرُوهُ ﴾؛ أي: يعلوا عليه.

وأما من قال: الظاهر بآياته؛ فهٰذا خطأ؛ لأنه لا أحد أعلم بتفسير كلام الله من رسول الله ﷺ، وقد قال: «**الظاهر؛ فليس فوقك شيء**»؛ بل هو فوق كل شيء سبحانه.

* قوله: «**وأنت الباطن؛ فليس دونك شيء**»: المعنى: ليس دون الله شيء، لا أحد يدبر دون الله، ولا أحد ينفرد بشيء دون الله، ولا أحد يخفى على الله؛ كل شيء؛ فالله محيط به، ولهٰذا قال: «ليس دونك شيء»؛ يعني: لا يحول دونك شيء، ولا يمنع دونك شيء، ولا ينفع ذا الجد منك الجد... وهٰكذا.

* قوله: «**اقض عني الدَّين**»: الدَّين: ما يستحق على الإنسان من مال أو حق؛ اشتريت منك حاجة، ولم أنقدك الثمن؛ فهٰذا يسمى ديناً، وإن كان غير مؤجل.

* قوله: «**وأغنني من الفقر**»: الفقر: خلو ذات اليد، ولا شك أن الفقر فيه إيلام للنفس، والدَّين فيه ذل؛ المدين ذليل للدائن، والفقير معوز ربما يجره الفقر إلى أمر محرم.

ألم يأتكم نبأ الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار، فتوسل كل

واحد منهم بصالح عمله، وكان لأحدهم ابنة عم أعجبته، وكان يراودها عن نفسها، ولٰكنها كانت تأبى ذٰلك، فألمت بها سنة من السنين، واحتاجت، وجاءت إليه تطلب منه أن يعينها، فأبى عليها؛ إلا أن تمكِّنه من نفسها، ومن أجل ضرورتها؛ وافقت على هٰذا، فلما جلس منها مجلس الرجل من امرأته؛ قالت له: يا هٰذا! اتق الله! ولا تفض الخاتم إلا بحقه! وأثرت هٰذه الكلمة في الرجل عندما كانت نابعة من القلب، فقام عنها. قال: فقمت عنها وهي أحب الناس إليَّ. لٰكن ذكرته هٰذه الموعظة الكريمة؛ فأقلع[1].

فانظر إلى الفقر؛ فإن هٰذه المرأة أرادت أن تبيع عرضها بسبب الفقر.

إذاً؛ قول الرسول ﷺ: «أغنني من الفقر»: سأل النبي ﷺ ربه أن يغنيه من الفقر؛ لأن الفقر له آفات عظيمة.

*** وفي هٰذا الحديث أسماء وصفات:**

ـ فمن الأسماء: الأول، والآخر، والظاهر، والباطن.

ـ ومن الصفات: الأولية والآخرية، وفيهما الإحاطة الزمانية. والظاهرية والباطنية، وفيهما الإحاطة المكانية. ومنها: العلو، وعموم ربوبيته، وتمام قدرته. ومنها: كمال رحمته وحكمته بإنزال الكتب؛ لتحكم بين الناس وتهديهم صراط الله.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٦٥)، ومسلم (٢٧٤٣)؛ عن ابن عمر رضي الله عنهما.

* **ومن غير الأسماء والصفات: التوسل إلى الله بصفات الله**، والتحذير من شر النفوس، وسؤال النبي ﷺ أن يقضي الله دينه ويغنيه من الفقر، وبيان ضعف الحديث الذي فيه سؤال النبي ﷺ أن يحييه ربه مسكيناً[1].

* **وفيه من الفوائد المسلكية: التحذير من شر النفس**، وتعظيم شأن الدين، وأن يحرص على تلافي الدَّين بقدر الإمكان، ويقتصد في ماله طلباً وتصرفاً؛ لأنه إذا اقتصد في ذٰلك؛ سلم غالباً من الفقر والدين.

* * *

● الحديث الخامس عشر: في إثبات قرب الله تعالى:

وهو قوله ﷺ لمَّا رفع الصحابة أصواتهم بالذكر: «أيُّها النَّاسُ! ٱرْبَعُوا عَلى أنفُسِكُمْ؛ فَإنَّكُمْ لا تَدْعُون أصَمَّ وَلا غائِباً؛ إنَّما تَدْعونَ سَميعاً بَصيراً؛ إنَّ الذي تَدْعونَهُ أقْرَبُ إلى أحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ

---

(١) لما رواه الترمذي (٢٣٥٢) عن أنس، وابن ماجه (٤١٢٦) عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٠٨) و«الإرواء» (٨٥٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: وسواء صح لفظه أم لم يصح، فالمسكين المحمود هو المتواضع. «مجموع الفتاوى» (١٨/٣٢٦)، وقال الحافظ في «التلخيص الحبير» (٢٧٥): أسرف ابن الجوزي فذكر هذا الحديث في «الموضوعات»!

راحِلَتِهِ». متفق عليه[1].

الشرح:

* كان الصحابة رضي الله عنهم مع النبي ﷺ؛ إذا علوا نشزاً؛ كبروا، وإذا نزلوا وادياً؛ سبحوا[2]؛ لأن الإنسان إذا ارتفع؛ قد يتعاظم في نفسه، ويرى أنه مرتفع عظيم؛ فناسب أن يقول: الله أكبر! تذكيراً لنفسه بكبرياء الله عز وجل، وأما إذا نزل؛ فهٰذا سفول ونزول، فيقول: سبحان الله! تذكيراً لنفسه بتنزه الله عن السفل. فكان الصحابة رضي الله عنهم يرفعون أصواتهم بالذكر جدّاً، فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

* «**أيها الناس! اربعوا على أنفسكم**»؛ يعني: هوّنوا عليها.

* «**فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً**»؛ لا تدعون أصم لا يسمع، ولا غائباً لا يرى.

* «**إنما تدعون سميعاً**»؛ يسمع ذكركم، «**بصيراً**»؛ يرى أفعالكم.

* «**إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**»: عنق الراحلة للراكب قريب جدّاً؛ فالله تعالى أقرب من هٰذا إلى الإنسان، ومع هٰذا؛ فهو فوق سماواته على عرشه.

---

(١) رواه: البخاري (٦٦١٠)، ومسلم (٢٧٠٤)، والإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٤٠٢)؛ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٣٥٩).

ولا منافاة بين القرب والعلو؛ لأن الشيء قد يكون بعيداً قريباً؛ هٰذا بالنسبة للمخلوق؛ فكيف بالخالق؟! فالرب عز وجل قريب مع علوه، أقرب إلى أحدنا من عنق راحلته.

*** هٰذا الحديث فيه فوائد:**

ـ فيه شيء من الصفات السلبية: نفي كونه أصم أو غائباً؛ لكمال سمعه ولكمال بصره وعلمه وقربه.

ـ وفيه أيضاً أنه ينبغي للإنسان ألا يشقَّ على نفسه في العبادة؛ لأن الإنسان إذا شق على نفسه؛ تعبت النفس وملت، وربما يتأثر البدن، ولهٰذا قال النبي ﷺ: «اكلفوا من العمل ما تطيقون؛ فإن الله لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا»[1].

فلا ينبغي للإنسان أن يشق على نفسه، بل ينبغي أن يسوس نفسه: إذا وجد منها نشاطاً في العبادة؛ عمل واستغلَّ النشاط، وإذا رأى فتوراً في غير الواجبات، أو أنها تميل إلى شيء آخر من العبادات؛ وجهها إليه.

حتى إن الرسول ﷺ أمر من نعس في صلاته أن ينام ويدع الصلاة؛ قال: «فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يستغفر فيسب نفسه»[2].

ولهٰذا كان النبي ﷺ يصوم حتى يقول القائل: لا يفطر،

---

(١) رواه: البخاري (١١٥١، ١٩٧٠)، ومسلم (٧٨٢)؛ عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه: البخاري (٢١٢)، ومسلم (٧٨٦)؛ عن عائشة رضي الله عنها.

ويفطر حتى يقول القائل: لا يصوم[1]، وكذٰلك في القيام والنوم.

ـ وفيه أيضاً: أن الله قريب، وقد دل عليه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

* **ونستفيد من هٰذا الحديث من الناحية المسلكية:**

ـ أنه لا ينبغي لنا أن نشق على أنفسنا بالعبادات، وأن يكون سيرنا إلى الله وسطاً؛ لا تفريط ولا إفراط.

ـ وفيه أيضاً: الحذر من الله؛ لأنه سميع وقريب وبصير، فنبتعد عن مخالفته.

ـ وفيه أيضاً من الناحية الحكمية: جواز تشبيه الغائب بالحاضر للإيضاح؛ حيث قال: «إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته».

ـ وفيه أيضاً أنه ينبغي أن يراعي الإنسان في المعاني ما كان أقرب إلى الفهم؛ لأن هٰؤلاء مسافرون، وكل منهم على راحلته، وإذا ضرب المثل بما هو قريب؛ فلا أحسن من هٰذا المثل الذي ذكره النبي عليه الصلاة والسلام.

* * *

---

(١) كما جاء ذلك في «صحيح البخاري» (١٩٧٢، ١٩٧٣)، ومسلم (١١٥٧)؛ من حديث ابن عباس وأنس بن مالك رضي الله عنهم. أن رسول الله ﷺ كان يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم».

● **الحديث السادس عشر: إثبات رؤية المؤمنين لربهم:**

وهو ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كما تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ، لا تُضامُّونَ في رُؤْيَتِهِ؛ فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أنْ لا تُغْلَبُوا على صَلاةٍ قَبْلَ طُلوعِ الشَّمْسِ وَصَلاةٍ قَبْلَ غُروبِها؛ فَافْعَلوا». متفق عليه[1].

الشرح:

* قوله: «**إنكم سترون ربكم**»: السين للتحقيق، وتخلص الفعل المضارع إلى الاستقبال بعد أن كان صالحاً للحال والاستقبال؛ كما أن (لم) تخلصه للماضي، والخطاب للمؤمنين.

* قوله: «**كما ترون القمر**»: هٰذه رؤية بصرية؛ لأن رؤيتنا للقمر بصرية، وهنا شبه الرؤية بالرؤية؛ فتكون رؤية بصرية.

* وقوله: «**كما ترون**»: (ما) هٰذه مصدرية، فيحوَّل الفعل بعدها إلى مصدر، ويكون التقدير: كرؤيتكم القمر؛ فالتشبيه حينئذ للرؤية بالرؤية، وليس للمرئي بالمرئي، لأن الله تعالى ليس كمثله شيء.

والنبي عليه الصلاة والسلام يقرب المعاني أحياناً بذكر الأمثلة الحسية الواقعية؛ كما سأله أبو رزين العقيلي لقيط بن عامر؛ قال: يا رسول الله! أكلنا يرى ربه يوم القيامة، وما آية ذٰلك في خلقه؟ فقال النبي ﷺ: «كلكم ينظر إلى القمر مخلياً به». قال: بلى. قال

(١) رواه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣)؛ عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

النبي ﷺ: «فالله أعظم»[1].

وقوله: «مُخلياً به»؛ يعني: خالياً به.

وكما ثبت به الحديث في «صحيح مسلم»[2] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «إن الله يقول: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين؛ فإذا قال: الحمد لله رب العالمين. قال: حمدني عبدي».

وهٰذا يشمل كل مصلٍّ، ومن المعلوم أنه قد يتفق المصلون في هٰذه الآية جميعاً، فيقول الله لكل واحد: «حمدني عبدي»؛ في آن واحد.

* قال: **«كما ترون القمر ليلة البدر»**: أي: ليلة إبداره، وهي الليلة الرابعة عشرة والخامسة عشرة والثالثة عشرة أحياناً، والوسط الرابعة عشرة؛ كما قال ابن القيم: كالبدر ليل الست بعد ثمان.

* قوله: **«لا تضامُّون في رؤيته»**، وفي لفظ: «لا تضامُون»، وفي لفظ: «لا تضارون»:

ـ «لا تُضامون»: بضم التاء وتخفيف الميم؛ أي: لا

---

(١) رواه الإمام أحمد (٤/ ١١)، وأبو داود (٤٧٣١)، والحاكم (٤/ ٥٦٠)، وصححه ووافقه الذهبي، ورواه ابن خزيمة في «التوحيد» (٤٣٨)، والآجري في «الشريعة» (٢٦٢)، وابن أبي عاصم في كتاب «السنة» (١/ ٢٠٠)، وقال الألباني في «ظلال الجنة»: حديث حسن، رجاله رجال مسلم غير وكيع بن عدس ويقال: حدس.

(٢) رواه مسلم (٣٩٥).

يلحقكم ضيم، والضيم الظلم، والمعنى: لا يحجب بعضكم بعضاً عن الرؤية فيظلمه بمنعه إياه. لأن كل واحد يراه.

ـ «لا تضامُّون»: بتشديد الميم وفتح التاء وضمها: يعني: لا ينضم بعضكم إلى بعض في رؤيته؛ لأن الشيء إذا كان خفيّاً؛ ينضم الواحد إلى صاحبه ليريه إياه.

ـ أما «لا تضارُون» أو «لا تضارُّون»؛ فالمعنى: لا يلحقكم ضرر؛ لأن كل إنسان يراه سبحانه وتعالى وهو في غاية ما يكون من الطمأنينة والراحة.

* قوله: **«فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها؛ فافعلوا»**: الصلاة قبل طلوع الشمس هي الفجر، وقبل غروبها هي العصر.

والعصر أفضل من الفجر؛ لأنها الصلاة الوسطى التي خصها الله بالأمر بالمحافظة عليها بعد التعميم، والفجر أفضل من العصر من وجه؛ لأنها الصلاة المشهودة؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، وجاء في الحديث الصحيح: «من صلى البردين؛ دخل الجنة»[١]، وهما: الفجر والعصر.

* **في هٰذا الحديث من صفات الله**: إثبات أن الله يرى، وقد سبق[٢] شرح هٰذه الصفة عند ذكر الآيات الدالة عليها، وهي أربع

---

(١) رواه: البخاري (٥٧٤)، ومسلم (٦٣٥)؛ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
(٢) (١/٤٤٨ ـ ٤٥٥).

آيات، والأحاديث في هٰذا متواترة عن النبي ﷺ؛ فثبوتها قطعي، ودلالتها قطعية.

ولهٰذا ذهب بعض العلماء إلى أن من أنكر رؤية الله تعالى؛ فهو كافر مرتد[1]، وأن الواجب على كل مؤمن أن يقر بذٰلك. قال: وإنما كفرناه؛ لأن الأدلة قطعية الثبوت وقطعية الدلالة، ولا يمكن لأحد أن يقول: إن قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «إنكم سترون ربكم»؛ إنه ليس قطعي الدلالة؛ إذ ليس هناك شيء أشد قطعاً من مثل هٰذا التركيب.

لو كان الحديث: «إنكم ترون ربكم»: لربما تحتمل التأويل، وأنه عبر عن العلم اليقيني بالرؤية البصرية، ولٰكنه صرح بأنا نراه كما نرى القمر، وهو حسي.

وسبق لنا أن أهل التعطيل يؤولون هٰذه الأحاديث ويفسرون الرؤية برؤية العلم، وسبق بطلان قولهم[2].

* قوله: «**إلى أمثال هٰذه الأحاديث...**» إلخ؛ يعني: انظر إلى أمثال هٰذه الأحاديث التي يخبر بها النبي ﷺ عن ربه؛ فما كان مثلها ثبوتاً ودلالة؛ فحكمه حكمها.

* قوله: «**الفرقة الناجية**»: «الفرقة»؛ أي: الطائفة.

* «**الناجية**»: التي نجت في الدنيا من البدع، وفي الآخرة من

---

(١) انظر «حادي الأرواح» لابن القيم (ص٢٤٢)، فقد نقل كلام الإمام أحمد وغيره؛ في أن من أنكر رؤية الله تعالى فهو كافر.

(٢) (٤٥٦/١ ـ ٤٥٨).

النار.

* **«أهل السنة والجماعة»**؛ أي: الذين أخذوا بالسنة واجتمعوا عليها.

* **«يؤمنون بذٰلك»**؛ أي: بما أخبر به الرسول ﷺ.

* **«كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه»**: لأن ما أخبر به الرسول عليه الصلاة والسلام يجب علينا أن نؤمن به كما يجب علينا أن نؤمن بما أخبر الله به في كتابه؛ إلا أنه يختلف عن القرآن في الثبوت؛ فإن لنا نظرين بالنسبة لما جاءت به السنة:

النظر الأول: في ثبوته.

والنظر الثاني: في دلالته.

أما ما في القرآن؛ فلنا نظر واحد، وهو النظر في الدلالة.

وقد سبق[1] لنا بيان الأدلة الدالة على وجوب قبول ما أخبر به النبي ﷺ.

* قال: **«من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل»**: سبق شرح هٰذا[2].

* * *

---

(١) (٢/١١).

(٢) (٢/٨٦).



فصل

مكانة أهل السنة والجماعة بين فرق الأمة واتصافهم بالوسطية

● قال المؤلف رحمه الله: «بَلْ هُمُ الوَسَطُ في فِرَقِ الأمَّةِ؛ كَما أنَّ الأمَّةَ هِيَ الوَسَطُ في الأمَمِ».

الشرح:

* قوله: «الأمة هي الوسط بين الأمم»؛ يعني: الأمم السابقة، وذٰلك من عدة أوجه:

- ففي حق الله تعالى: كانت اليهود تصف الله تعالى بالنقائص، فتلحقه بالمخلوق. وكانت النصارى تلحق المخلوق الناقص بالرب الكامل. أما هٰذه الأمة؛ فلم تصف الرب بالنقائص، ولم تلحق المخلوق به.

- وفي حق الأنبياء؛ كذبت اليهود عيسى بن مريم، وكفرت به. وغلت النصارى فيه، حتى جعلته إلٰهاً. أما هٰذه الأمة؛ فآمنت

به بدون غلو، وقالت: هو عبد الله ورسوله.

ـ وفي العبادات؛ النصارى يدينون لله عز وجل بعدم الطهارة؛ بمعنى أنهم لا يتطهرون من الخبث؛ يبول الواحد منهم، ويصيب البول ثيابه، ويقوم، ويصلي في الكنيسة!! واليهود بالعكس؛ إذا أصابتهم النجاسة؛ فإنهم يقرضونها من الثوب؛ فلا يطهرها الماء عندهم؛ حتى إنهم يبتعدون عن الحائض لا يؤاكلونها ولا يجتمعون بها. أما هٰذه الأمة؛ فهم وسط؛ فيقولون: لا هٰذا ولا هٰذا؛ لا يُشَق الثوب، ولا يُصَلى بالنجاسة، بل يغسل غسلاً حتى تزول النجاسة منه، ويصلى به، ولا يبتعدون عن الحائض؛ بل يؤاكلونها ويباشرها زوجها في غير الجماع.

ـ وكذٰلك أيضاً في باب المحرَّمات من المآكل والمشارب؛ النصارى استحلوا الخبائث وجميع المحرمات، واليهود حرِّم عليهم كل ذي ظفر؛ كما قال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، أما هٰذه الأمة؛ فهم وسط؛ أحلت لهم الطيبات، وحرمت عليهم الخبائث.

ـ وفي القصاص؛ القصاص فرض على اليهود، والتسامح عن القصاص فرض على النصارى، أما هٰذه الأمة؛ فهي مخيرة بين القصاص والدية والعفو مجاناً.

فكانت الأمة الإسلامية وسطاً بين الأمم بين الغلو والتقصير.

فأهل السنة والجماعة بين فرق الأمة كالأمة بين الديانات الأخرى؛ يعني: أنهم وسط.

ثم ذكر المؤلف رحمه الله أصولاً خمسة كان أهل السنة والجماعة فيها وسطاً بين فرق الأمة:

* * *

● **الأصل الأول: باب الأسماء والصفات:**

قال المؤلف: «**فَهُمْ وَسَطٌ في بابِ صِفاتِ اللهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطيلِ الجَهْمِيَّةِ وَأَهْلِ التَّمْثيلِ المُشَبِّهَةِ**».

الشرح:

* هٰذان طرفان متطرفان: أهل التعطيل الجهمية، وأهل التمثيل المشبهة.

ـ فالجهمية: ينكرون صفات الله عز وجل، بل غلاتهم ينكرون الأسماء ويقولون: لا يجوز أن نثبت لله اسماً ولاصفةً؛ لأنك إذا أثبت له اسماً؛ شبهته بالمسميات، أو صفة؛ شبهته بالموصوفات!! إذاً؛ لا نثبت اسماً ولا صفة!! وما أضاف الله إلى نفسه من الأسماء؛ فهو من باب المجاز، وليس من باب التسمي بهٰذه الأسماء!!

ـ والمعتزلة ينكرون الصفات ويثبتون الأسماء.

ـ والأشعرية يثبتون الأسماء وسبعاً من الصفات.

* كل هٰؤلاء يشملهم اسم التعطيل، لٰكن بعضهم معطل تعطيلاً كاملاً؛ كالجهمية، وبعضهم تعطيلاً نسبيّاً؛ مثل المعتزلة والأشاعرة.

* وأما أهل التمثيل المشبهة؛ فيثبتون لله الصفات، ويقولون: يجب أن نثبت لله الصفات؛ لأنه أثبتها لنفسه، لٰكن يقولون: إنها مثل صفات المخلوقين.

فهٰؤلاء غلوا في الإثبات، وأهل التعطيل غلوا في التنزيه.

فهٰؤلاء قالوا: يجب عليك أن تثبت لله وجهاً، وهٰذا الوجه مثل وجه أحسن واحد من بني آدم. قالوا: لأن الله خاطبنا بما نعقل ونفهم؛ قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، ولا نعقل ونفهم من الوجه إلا ما نشاهد، وأحسن ما نشاهد الإنسان.

فهو على زعمهم ـ والعياذ بالله ـ على مثل أحسن واحد من الشباب الإنساني!!

ويدَّعون أن هٰذا هو المعقول !!

* وأما أهل السنة والجماعة؛ فقالوا: نحن نأخذ بالحق الذي مع الجانبين؛ فنأخذ بالحق في باب التنزيه؛ فلا نمثل، ونأخذ بالحق في باب الإثبات؛ فلا نعطل؛ بل إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل؛ نحن نثبت ولٰكن بدون تمثيل، فنأخذ بالأدلة من هنا ومن هنا.

والخلاصة: هم وسط في باب الصفات بين طائفتين متطرفتين: طائفة غلت في التنزيه والنفي، وهم أهل التعطيل من الجهمية وغيرهم، وطائفة غلت في الإثبات، وهم الممثلة.

وأهل السنة والجماعة يقولون: لا نغلوا في الإثبات ولا في النفي، ونثبت بدون تمثيل؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

* * *

● **الأصل الثاني: أفعال الله:**

قال المؤلف: «**وَهُمْ وَسَطٌ في بابِ أفْعالِ اللهِ بَيْنَ الجَبْرِيَّةِ وَالقَدَرِيَّةِ**».

الشرح:

* في باب القدر انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام:

ـ قسم آمنوا بقدر الله عز وجل وغلوا في إثباته، حتى سلبوا الإنسان قدرته واختياره، وقالوا: إن الله فاعل كل شيء، وليس للعبد اختيار ولا قدرة، وإنما يفعل الفعل مجبراً عليه، بل إن بعضهم ادعى أن فعل العبد هو فعل الله، ولهٰذا دخل من بابهم أهل الاتحاد والحلول، وهٰؤلاء هم الجبرية.

ـ والقسم الثاني قالوا: إن العبد مستقل بفعله، وليس لله فيه مشيئة ولا تقدير، حتى غلا بعضهم، فقال: إن الله لا يعلم فعل العبد إلا إذا فعله، أما قبل؛ فلا يعلم عنه شيئاً، وهٰؤلاء هم

القدرية، مجوس هٰذه الأمة.

فالأولون غلوا في إثبات أفعال الله وقدره وقالوا: إن الله عز وجل يجبر الإنسان على فعله، وليس للإنسان اختيار.

والآخرون غلوا في إثبات قدرة العبد، وقالوا: إن القدرة الإلٰهية والمشيئة الإلٰهية لا علاقة لها في فعل العبد؛ فهو الفاعل المطلق الاختيار.

ـ والقسم الثالث: أهل السنة والجماعة؛ قالوا: نحن نأخذ بالحق الذي مع الجانبين؛ فنقول: إن فعل العبد واقع بمشيئة الله وخلق الله، ولا يمكن أن يكون في ملك الله ما لا يشاؤه أبداً، والإنسان له اختيار وإرادة، ويفرق بين الفعل الذي يضطر إليه والفعل الذي يختاره؛ فأفعال العباد باختيارهم وإرادتهم، ومع ذٰلك؛ فهي واقعة بمشيئة الله وخلقه.

لٰكن سيبقى عندنا إشكال: كيف تكون خلقاً لله وهي فعل الإنسان؟!

والجواب أن أفعال العبد صدرت بإرادة وقدرة، والذي خلق فيه الإرادة والقدرة هو الله عز وجل.

لو شاء الله تعالى؛ لسلبك القدرة؛ فلم تستطع.

ولو أن أحداً قادراً لم يرد فعلاً؛ لم يقع الفعل منه.

كل إنسان قادر يفعل الفعل؛ فإنه بإرادته، اللهمَّ إلا من أكره.

فنحن نفعل باختيارنا وقدرتنا، والذي خلق فينا الاختيار والقدرة هو الله.

* * *

● **الأصل الثالث: الوعيد:**

قال المؤلف: «**وَفي بابِ وَعيدِ اللهِ بَيْنَ المُرْجِئَةِ وَبَيْنَ الوَعيدِيَّةِ مِنَ القَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ**».

الشرح:

* المرجئة: اسم فاعل من أرجَأ؛ بمعنى: أخر، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: ١١١]، وفي قراءة: (أرجئه)؛ أي: أخره وأخر أمره، وسمُّوا مرجئة: إما من الرجاء؛ لتغليبهم أدلة الرجاء على أدلة الوعيد، وإما من الإرجاء؛ بمعنى: التأخير؛ لتأخيرهم الأعمال عن مسمَّى الإيمان.

فهم يقولون: الأعمال ليست من الإيمان، والإيمان هو الاعتراف بالقلب فقط.

ولهٰذا يقولون: الأعمال ليست من الإيمان، والإيمان هو الاعتراف بالقلب فقط.

ولهٰذا يقولون: إن فاعل الكبيرة كالزاني والسارق وشارب الخمر وقاطع الطريق لا يستحق دخول النار لا دخولاً مؤبَّداً ولا مؤقتاً؛ فلا يضر مع الإيمان معصية؛ مهما كانت صغيرة أم كبيرة؛ إذا لم تصل إلى حد الكفر.

* وأما الوعيديَّة؛ فقابلوهم، وغلَّبوا جانب الوعيد، وقالوا: أي كبيرة يفعلها الإنسان ولم يتب منها؛ فإنه مخلَّد في النار بها: إن سرق؛ فهو من أهل النار خالداً مخلداً، وإن شرب الخمر؛ فهو في النار خالداً مخلداً. . . وهٰكذا.

والوعيدية يشمل طائفتين: المعتزلة، والخوارج. ولهٰذا قال المؤلف: «من القدرية وغيرهم»؛ فيشمل المعتزلة ـ والمعتزلة قدرية؛ يرون أن الإنسان مستقل بعمله، وهم وعيدية ـ ويشمل الخوارج.

فاتفقت الطائفتان على أن فاعل الكبيرة مخلد في النار، لا يخرج منها أبداً، وأن من شرب الخمر مرة؛ كمن عبد الصنم ألف سنة؛ كلهم مخلَّدون في النار؛ لٰكن يختلفون في الاسم؛ كما سيأتي إن شاء الله في الباب التالي.

* وأما أهل السنة والجماعة؛ فيقولون: لا نغلب جانب الوعيد كما فعل المعتزلة والخوارج، ولا جانب الوعد كما فعل المرجئة، ونقول: فاعل الكبيرة مستحق للعذاب، وإن عذِّب؛ لا يخلد في النار.

* وسبب الخلاف بين الوعيدية وبين المرجئة: أن كل واحد منهما نظر إلى النصوص بعين عوراء؛ ينظر من جانب واحد.

ـ هٰؤلاء نظروا نصوص الوعد، فأدخلوا الإنسان في الرجاء، وقالوا: نأخذ بها، وندع ما سواها، وحملوا نصوص الوعيد على الكفار.

ـ والوعيدية بالعكس؛ نظروا إلى نصوص الوعيد، فأخذوا بها، وغفلوا عن نصوص الوعد.

فلهٰذا اختل توازنهم لما نظروا من جانب واحد.

* وأهل السنة والجماعة أخذوا بهٰذا وهٰذا، وقالوا: نصوص الوعيد محكمة؛ فنأخذ بها، ونصوص الوعد محكمة؛ فنأخذ بها. فأخذوا من نصوص الوعد ما ردوا به على الوعيدية، ومن نصوص الوعيد ما ردوا به على المرجئة، وقالوا: فاعل الكبيرة مستحق لدخول النار؛ لئلا نهدر نصوص الوعيد؛ غير مخلَّد فيها؛ لئلا نهدر نصوص الوعد.

فأخذوا بالدليلين ونظروا بالعينين.

* * *

● **الأصل الرابع: أسماء الإيمان والدين:**

قال المؤلف: «**وَفي بابِ أسماءِ الإيمانِ والدِّينِ بَيْنَ الحَرُورِيَّةِ وَالمُعْتَزِلَةِ، وَبَيْنَ المُرْجِئَةِ الجَهْمِيَّةِ**».

الشرح:

* هٰذا في باب الأسماء والدين، وهو غير باب الأحكام الذي هو الوعد والوعيد؛ ففاعل الكبيرة ماذا نسميه؟! أمؤمن أم كافر؟!

* وأهل السنة وسط فيه بين طائفتين: الحرورية والمعتزلة من وجه، والمرجئة الجهمية من وجه:

ـ فالحرورية والمعتزلة أخرجوه من الإيمان، لٰكن الحرورية قالوا: إنه كافر يحل دمه وماله، ولهٰذا خرجوا على الأئمة، وكفَّروا الناس.

ـ وأما المرجئة الجهمية؛ فخالفوا هٰؤلاء، وقالوا: هو مؤمن كامل الإيمان!! يسرق ويزني ويشرب الخمر ويقتل النفس ويقطع الطريق؛ ونقول له: أنت مؤمن كامل الإيمان!! كرجل فعل الواجبات والمستحبات وتجنَّب المحرمات!! أنت وهو في الإيمان سواء!!

فهٰؤلاء وأولٰئك على الضد في الاسم وفي الحكم.

وأما المعتزلة؛ فقالوا: فاعل الكبيرة خرج من الإيمان، ولم يدخل في الكفر؛ فهو في منزلة بين منزلتين؛ لا نتجاسر أن نقول: إنه كافر! وليس لنا أن نقول: إنه مؤمن؛ وهو يفعل الكبيرة؛ يزني ويسرق ويشرب الخمر! وقالوا: نحن أسعد الناس بالحق!

حقيقة أنهم إذا قالوا: إن هٰذا لا يتساوى مع مؤمن عابد؛ فقد صدقوا.

لٰكن كونهم يخرجونه من الإيمان، ثم يحدثون منزلة بين منزلتين: بدعة ما جاءت لا في كتاب الله ولا في سنة رسوله!!

كل النصوص تدل على أنه لا يوجد منزلة بين منزلتين:

كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

وقوله: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

وفي الحديث: «القرآن حجة لك أو عليك»[١].

فأين المنزلة بين المنزلتين؟!

وفي باب الوعيد ينفذون عليه الوعيد، فيوافقون الخوارج في أن فاعل الكبيرة مخلَّد في النار، أما في الدنيا؛ فقالوا: تجرى عليه أحكام الإسلام؛ لأنه هو الأصل؛ فهو عندهم في الدنيا بمنزلة الفاسق العاصي.

فيا سبحان الله! كيف نصلي عليه، ونقول: اللهمَّ! اغفر له. وهو مخلَّد في النار؟!

فيجب عليهم أن يقولوا في أحكام الدنيا: إنه يُتَوَقَّف فيه! لا نقول: مسلم، ولا: كافر، ولا نعطيه أحكام الإسلام، ولا أحكام الكفر!! إذا مات؛ لا نصلي عليه، ولا نكفنه، ولا نغسله، ولا يدفن مع المسلمين، ولا ندفنه مع الكفار؛ إذاً؛ نبحث له عن مقبرة بين مقبرتين!!

ـ وأما أهل السنة والجماعة؛ فكانوا وسطاً بين هٰذه الطوائف؛ فقالوا: نسمي المؤمن الذي يفعل الكبيرة مؤمناً ناقص الإيمان، أو نقول: مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، وهٰذا هو العدل؛ فلا يعطى الاسم المطلق، ولا يسلب مطلق الاسم.

---

(١) قطعة من حديث رواه مسلم في «صحيحه» (٢٢٣)، عن ابن مالك الأشعري.

ويترتَّب على هٰذا: أن الفاسق لا يجوز لنا أن نكرهه كرهاً مطلقاً، ولا أن نحبه حبّاً مطلقاً، بل نحبه على ما معه من الإيمان، ونكرهه على ما معه من المعصية.

* * *

● **الأصل الخامس: في الصحابة رضي الله عنهم:**

قال المؤلف: «**وَفي أَصْحابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَيْنَ الرَّافِضَةِ وَالخَوارِجِ**».

الشرح:

* «**أصحاب**»: جمع صاحب، والصحب اسم جمع صاحب، والصاحب: الملازم للشيء.

والصحابي: هو الذي اجتمع بالنبي ﷺ مؤمناً به ومات على ذٰلك.

وهٰذا خاص في الصحابة، وهو من خصائص النبي ﷺ؛ أن الإنسان يكون من أصحابه، وإن لم يجتمع به إلا لحظة واحدة؛ لٰكن بشرط أن يكون مؤمناً به[1].

* وأهل السنة والجماعة وسط فيهم بين الرافضة والخوارج.

ـ فالرافضة: هم الذين يسمَّون اليوم: شيعة، وسموا رافضة؛ لأنهم رفضوا زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي

---

(١) انظر: «فتح الباري» (٧/ ٤) لابن حجر.

طالب رضي الله عنه، الذي ينتسب إليه الآن الزيدية؛ رفضوه لأنهم سألوه: ما تقول في أبي بكر وعمر؟ يريدون منه أن يسبهما ويطعن فيهما! ولٰكنه رضي الله عنه قال لهم: نعم الوزيران وزيرا جدي. يريد بذٰلك رسول الله ﷺ؛ فأثنى عليهما، فرفضوه، وغضبوا عليه، وتركوه! فسموا رافضة[1]!!

هٰؤلاء الروافض ـ والعياذ بالله ـ لهم أصول معروفة عندهم، ومن أقبح أصولهم: الإمامة التي تتضمن عصمة الإمام، وأنه لا يقول خطأ، وأن مقام الإمامة أرفع من مقام النبوة؛ لأن الإمام يتلقى عن الله مباشرة، والنبي بواسطة الرسول، وهو جبريل، ولا يخطىء الإمام عندهم أبداً، بل غلاتهم يدعون أن الإمام يخلق؛ يقول للشيء: كن. فيكون!!

وهم يقولون: إن الصحابة كفار، وكلهم ارتدوا بعد النبي ﷺ؛ حتى أبو بكر وعمر عند بعضهم كانا كافرين وماتا على النفاق والعياذ بالله، ولا يستثنون من الصحابة إلا آل البيت، ونفراً قليلاً ممن قالوا: إنهم من أولياء آل البيت.

وقد قال صاحب كتاب «الفصل»: «إن غلاتهم كفروا علي بن أبي طالب؛ قالوا: لأن علياً أقر الظلم والباطل حين بايع أبا بكر وعمر، وكان الواجب عليه أن ينكر بيعتهما، فلما لم يأخذ بالحق والعدل، ووافق على الظلم؛ صار ظالماً كافراً».

---

(١) انظر سبب تسميتهم بالرافضة كتاب: «منهاج السنة» لشيخ الإسلام (١/ ٣٤).

ـ أما الخوارج؛ فهم على العكس من الرافضة؛ حيث إنهم كفروا علي بن أبي طالب، وكفروا معاوية بن أبي سفيان، وكفروا كل من لم يكن على طريقتهم، واستحلوا دماء المسلمين، فكانوا كما وصفهم النبي عليه الصلاة والسلام: «يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة»[1]، وإيمانهم لا يتجاوز حناجرهم.

فالشيعة غلوا في آل البيت وأشياعهم، وبالغوا في ذٰلك، حتى إن منهم من ادعى ألوهية علي، ومنهم من ادعى أنه أحق بالنبوة من محمد رسول الله ﷺ، والخوارج بالعكس.

ـ أما أهل السنة والجماعة؛ فكانوا وسطاً بين الطائفتين؛ قالوا: نحن ننزل آل البيت منزلتهم، ونرى أن لهم حقين علينا: حق الإسلام والإيمان، وحق القرابة من رسول الله ﷺ. وقالوا: قرابة رسول الله ﷺ لها الحق علينا، لٰكن من حقها علينا أن ننزلها منزلتها، وأن لا نغلو فيها. ويقولون في بقية أصحاب الرسول ﷺ: لهم الحق علينا بالتوقير والإجلال والترضي، وأن نكون كما قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، ولا نعادي أحداً منهم أبداً؛ لا آل البيت، ولا غيرهم؛ فكل منهم نعطيه حقه؛ فصاروا وسطاً بين جفاة وغلاة.

* * *

---

(١) رواه: البخاري (٦٩٣٠)، ومسلم (١٠٦٦)؛ عن علي رضي الله عنه.

فصل
في المعية وبيان الجمع بينها وبيان علو الله واستوائه على عرشه

الشرح:

سبق[1] أن مما يدخل في الإيمان بالله: الإيمان بأسمائه وصفاته، ومن ذٰلك الإيمان بعلو الله واستوائه على عرشه، والإيمان بمعيته، وفي هٰذا الفصل بين المؤلف رحمه الله الجمع بين العلو والمعية؛ فقال:

* **«وَقَدْ دَخَلَ فِيما ذَكَرْناهُ مِنَ الإيمانِ بِاللهِ: الإيمانُ بِما أَخْبَرَ اللّٰهُ بِهِ في كِتابِهِ، وَتَواتَرَ عَنْ رَسولِهِ ﷺ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّةِ، مِنْ أَنَّه سُبحانَهُ فوقَ سماواتِهِ علىٰ عرشِهِ عليّ علىٰ خلقِهِ»**:

هٰذه ثلاثة أدلة على علو الله تعالى: الكتاب، والسنة، والإجماع.

ومر علينا دليل رابع وخامس، وهما: العقل والفطرة.

* **«من أنه سبحانه فوق سماواته على عرشه عليٌ على خلقه»** تقدم لنا أن علو الله عز وجل نوعان: علو صفة، وعلو ذات، وأن علو الذات دل عليه الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة وكذلك علو الصفة.

---

(١) (١/٣٨٦ ـ ٤٠٠).

* فالكتاب مملوء من ذٰلك: تارة بالتصريح بالفوقية، وتارة بالتصريح بالعلو، وتارة بالتصريح بأنه في السماء، وتارة بنزول الأشياء من عنده، وتارة بصعودها إليه، ونحو ذلك.

* والسنة جاءت بالقول والفعل والإقرار، وسبق ذكر ذٰلك.

* أما الإجماع؛ فقد أجمع السلف على ذٰلك، وطريق العلم بإجماعهم عدم نقل ضد ما جاء في الكتاب والسنة؛ فإنهم كانوا يقرؤون القرآن وينقلون الأخبار ويعلمون معانيها، ولما لم ينقل عنهم ما يخالف ظاهرها؛ علم أنهم لا يعتقدون سواه، وأنهم مجمعون على ذٰلك. وهذا طريق حسن لإثبات إجماعهم، فاستمسك به ينفعك في مواطن كثيرة.

* وأما العقل؛ فمن وجهين:

الوجه الأول: أن العلو صفة كمال، والله تعالى قد ثبت له كل صفات الكمال، فوجب إثبات العلو له سبحانه.

الوجه الثاني: إذا لم يكن عالياً؛ فإما أن يكون تحت أو مساوياً، وهٰذا صفة نقص؛ لأنه يستلزم أن تكون الأشياء فوقه أو مثله؛ فلزم ثبوت العلو له.

* أما الفطرة؛ فلا أحد ينكرها؛ إلا من انحرفت فطرته؛ فكل إنسان يقول: يا الله! يتجه قلبه إلى السماء، لا ينصرف عنه يمنة ولا يسرة، لأن الله تعالى في السماء.

* * *

* **قوله: «وَهُوَ سُبْحانَهُ مَعَهُمْ أيْنَما كانُوا؛ يَعْلَمُ ما هُمْ عاملونَ».**

* وهٰذا من الإيمان بالله، وهو الإيمان بمعيته لخلقه.

* وقد سبق[1] أن معية الله تنقسم إلى عامة وخاصة وخاصة الخاصة.

ـ فالعامة: التي تشمل كل أحد من مؤمن وكافر وبر وفاجر، ومثالها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

ـ والخاصة: مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

ـ والتي أخص: مثل قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وقوله عن رسوله محمد ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وسبق أن هٰذه المعية حقيقية، وأن من مقتضى المعية العامة العلم والسمع والبصر والقدرة والسلطان وغير ذٰلك، ومن مقتضى الخاصة النصر والتأييد.

* * *

* قوله: «**كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذٰلِكَ فِي قَوْلِهِ:** ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

(١) (١/ ٤٠٠ ـ ٤١٨).

بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]».

* قوله: «**بين ذٰلك**»؛ أي: بين العلو والمعية.

* ففي قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: إثبات العلو.

* وفي قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾: إثبات المعية، فجمع بينهما في آية واحدة، ولا منافاة بينهما كما سبق ويأتي.

ووجه الجمع من وجوه ثلاثة:

الأول: أنه ذكر استواءه على العرش، ثم قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾، وإذا جمع الله لنفسه بين وصفين؛ فإننا نعلم علم اليقين أنهما لا يتناقضان؛ لأنهما لو تناقضا؛ لاستحال اجتماعهما؛ إذ المتناقضين لا يجتمعان ولا يرتفعان؛ فلا بد من وجود أحدهما وانتفاء الثاني، ولو كان هناك تناقض؛ لزم أن يكون أول الآية مكذباً لآخرها أو بالعكس.

الثاني: أنه قد يجتمع العلو والمعية في المخلوقات؛ كما سيذكره المؤلف في قول الناس: ما زلنا نسير والقمر معنا.

الثالث: لو فرض تعارضهما بالنسبة للمخلوق؛ لم يلزم ذٰلك بالنسبة للخالق؛ لأن الله ليس كمثله شيء.

* * *

* قوله: «**وَلَيْسَ مَعْنى قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾؛ أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالخَلْقِ**»: لأن هٰذا المعنى نقص، وقد سبق أنه لو كان هٰذا هو المعنى؛ لزم أحد أمرين: إما تعدد الخالق، أو تجزؤه؛ مع ما في

ذٰلك أيضاً من كون الأشياء تحيط به، وهو سبحانه محيط بالأشياء.

* قوله: «**فإنَّ هٰذا لا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ**»؛ يعني: وإذا كانت اللغة لا توجبه؛ لم يتعين، وهٰذا أحد الوجوه الدالة على بطلان مذهب الحلولية من الجهمية وغيرهم؛ القائلين بأن الله مع خلقه مختلطاً بهم.

ولم يقل: لا تقتضيه اللغة؛ لأن اللغة قد تقتضيه، وفرق بين كون اللغة تقتضي ذٰلك وبين كونها توجب ذٰلك.

فالمعية في اللغة قد تقتضي الاختلاط؛ مثل الماء واللبن؛ تقول: ماء مع لبن مخلوطاً.

* قوله: «**وَهُوَ خِلافُ ما أَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّةِ، وَخِلافُ ما فَطَرَ اللهُ عَلَيْهِ الخَلْقَ**»: وذٰلك لأن الإنسان مفطور على أن الخالق بائن من المخلوق، ليس أحد إذا قال: يا الله! إلا ويعتقد أن الله تعالى بائن من خلقه، لا يعتقد أنه حالٌّ في خلقه؛ فدعوى أنه مختلط بالخلق مخالف للشرع ومخالف للعقل ومخالف للفطرة.

* قوله: «**بَلِ القَمَرُ آيَةٌ مِنْ آياتِ اللهِ مِنْ أَصْغَرِ مَخْلوقاتِه، وَهُوَ مَوْضوعٌ في السَّماءِ، وَهُوَ مَعَ المُسافِرِ وَغَيْرِ المُسافِرِ أَيْنَما كانَ**».

* «**بل**»: للإضراب الانتقالي.

* وهٰذا مثل ضربه المؤلف رحمه الله تقريباً للمعنى وتحقيقاً لصحة كون الشيء مع الإنسان حقيقة مع تباعد ما بينهما، وذٰلك أن

القمر من أصغر المخلوقات، وهو في السماء، ومع المسافر وغيره أينما كان.

فإذا كان هٰذا المخلوق، وهو من أصغر المخلوقات؛ نقول: إنه معنا، وهو في السماء. ولا يعد ذٰلك تناقضاً، ولا يقتضي اختلاطاً؛ فلماذا لا يصح أن نجري آيات المعية على ظاهرها، ونقول: هو معنا حقيقة، وإن كان هو في السماء فوق كل شيء؟!

وكما قلنا سابقاً: لو فرض أن هٰذا ممتنع في الخلق؛ لكان في الخالق غير ممتنع؛ فالرب عز وجل هو في السماء حقيقة، وهو معنا حقيقة، ولا تناقض في ذٰلك، حتى وإن كان بعيداً عز وجل في علوه؛ فإنه قريب في علوه.

وهٰذا الذي حققه شيخ الإسلام في كتبه، وقال: إنه لا حاجة إلى أن نؤول الآية، بل الآية على ظاهرها، لٰكن مع اعتقادنا بأن الله تعالى في السماء على عرشه؛ فهو معنا حقّاً، وهو على عرشه حقّاً؛ كما نقول: إنه ينزل إلى السماء الدنيا حقّاً، وهو في العلو، ولا أحد من أهل السنة ينكر هٰذا أبداً؛ كل أهل السنة يقولون: هو ينزل حقّاً، متفقون على أنه في العلو؛ لأن صفات الخالق ليست مثل صفات المخلوق.

وقد عثرت على تقرير للشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله يبين هٰذا المعنى تماماً؛ أي أن المعية حق على حقيقتها، ولا تستلزم أن يكون مختلطاً بالخلق، أو أنه في الأرض؛ قال جواباً على قول بعض السلف: «معهم بعلمه»:

«إذا جاءت هٰذه الكلمة؛ فهي تفسير للمعية بالمقتضى، ليس تفسيراً لحقيقة الكلمة، والذي يحمل ويحدو على التفسير بهٰذا أن المنازع في هٰذا المبتدعة الذين يقولون: إنه مختلط بهم، فيأتي البعض من السلف بالمراد بالسياق، وهو أنه بكمال علمه، ولٰكن لا يريدون أن كلمة (مع) مدلولها بكل شيء عليم، بل اجتمعت معها في العلم، وزادت المعية في المعنى، وهو كونه معهم؛ فتفسيرها بالمقتضى لا يدل على أن معناها باطل؛ فالكل حق. . . ».

إلى أن قال: «ولهٰذا؛ شيخ الإسلام في عقيدته الأخرى المباركة المختصرة؛ بين أن قوله معهم حق على حقيقته؛ فمن فسرها من السلف بالمقتضى؛ فلحاجة دعت إلى ذٰلك، وهو الرد على أهل الحلول الجهمية الذين ينكرون العلو كما تقدم، والقرآن يفسر بالمطابقة وبالمفهوم وبالاستلزام والمقتضى وغير ذٰلك من الدلالات، وهٰؤلاء العلماء الذين روي عنهم التفسير بالمقتضى لا ينكرون المعية، بل هي عندهم كالشمس» اهـ من «الفتاوى»؛ تقريراً على الحموية[1].

* سؤال: هل يصح أن نقول: هو معنا بذاته؟

الجواب: هٰذا اللفظ يجب أن يبعد عنه؛ لأنه يوهم معنًى فاسداً يحتج به من يقول بالحلول، ولا حاجة إليه؛ لأن الأصل أن كل شيء أضافه الله إلى نفسه؛ فهو له نفسه؛ ألا ترى إلى قوله

(١) «فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ» (١ / ٢١٢ ـ ٢١٣).

تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾؛ هل يحتاج أن نقول: جاء بذاته؟! وإلى قوله ﷺ: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا»[1]؛ هل يحتاج أن نقول: ينزل بذاته؟! إننا لا نحتاج إلى ذٰلك؛ اللهم إلا في مجادلة من يدعي أنه جاء أمره أو ينزل أمره؛ لرد تحريفه.

* * *

* قوله: «**وهو سبحانه فوق عرشه، رقيب على خلقه، مهيمن عليهم، مطلع عليهم**»:

* يقول رحمه الله: «**وهو سبحانه فوق عرشه**»: مع أنه مع الخلق، لٰكنه فوق عرشه.

* «**رقيب على خلقه**»: يعني: مراقباً حافظاً لأقوالهم وأفعالهم وحركاتهم وسكناتهم.

* «**مهيمن عليهم**»؛ أي: حاكم مسيطر على عباده؛ فله الحكم، وإليه يرجع الأمر كله، وأمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن! فيكون.

* قوله: «**إلى غير ذٰلك من معاني ربوبيته**»؛ يعني بذٰلك ما تضمنه معنى الربوبية من ملك وسلطان وتدبير وغير ذٰلك؛ فإن معاني الربوبية كثيرة؛ لأن الرب هو الخالق المالك المدبر، وهٰذه تحمل معاني كثيرة جدّاً.

---

(١) سبق تخريجه (١/ ٩٤)، وهو في «الصحيحين».

* قوله: «**وَكُلُّ هٰذا الكَلامِ الذي ذَكَرَهُ اللهُ مِنْ أَنَّهُ فَوْقَ العَرْشِ وَأَنَّهُ مَعَنا: حَقٌّ على حَقِيقَتِهِ، لا يَحْتاجُ إلى تَحْرِيفٍ**»:

* هٰذه الجملة تأكيد لما سبق، وإنما كرر معنى ما سبق لأهمية الموضوع؛ فبين رحمه الله أن ما ذكره الله من كونه فوق العرش حق على حقيقته، وكذٰلك ما ذكره من كونه معنا حق على حقيقته، لا يحتاج إلى تحريف.

* يعني: لا يحتاج أن نصرف معنى الفوقية إلى فوقية القدر كما ادعاه أهل التحريف والتعطيل، بل هي فوقية ذات وقدر؛ كما لا يحتاج أن نصرف معنى المعية عن ظاهرها، بل نقول: هي حق على ظاهرها، ومن فسرها بغير حقيقتها؛ فهو محرف؛ لٰكن ما ورد من تفسيرها بلازمها ومقتضاها، وارد عن السلف لحاجة دعت إلى ذٰلك، وهو لا ينافي الحقيقة؛ لأن لازم الحق حق.

* ثم استدرك المؤلف رحمه الله، فقال: ـ **ولكن يصان عن الظنون الكاذبة** ـ «**مِثْلَ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ظاهِرَ قَوْلِهِ: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٧]: أَنَّ السَّماءَ تُقِلُّهُ أَوْ تُظِلُّهُ، وَهٰذا باطِلٌ بِإِجْماعِ أَهْلِ العِلْمِ وَالإِيمانِ**».

* الظنون الكاذبة هي الأوهام التي ليس لها أساس من الصحة؛ فيجب أن يصان عنها كلام الله تعالى ورسوله ﷺ.

* مثال ذلك أن يُظَنَّ أن ظاهر قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أن السماء تُقِلُّه؛ أي: تحمله كما يحمل سقف البيت من كان على ظهره. «أو تُظِلُّهُ»؛ يعني: تكون فوقه؛ كالسقف على الإنسان.

إذا ظن الإنسان هٰذا؛ فهو ظن كاذب، يجب صون الأدلة الدالة على أن الله في السماء عن ذٰلك.

* قال المؤلف: «**وهٰذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان**».

تنبيه:

قد يقول قائل: كان على المؤلف أن يقول: ومثل أن يظن أن ظاهر قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤]؛ أنه مختلط بالخلق؛ لأن هٰذا الظن كاذب أيضاً.

وجوابه أن نقول: إن المؤلف رحمه الله ذكر ذٰلك سابقاً في قوله: «وليس معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾؛ أنه مختلط بالخلق».

* * *

* قوله: «**فإن الله قد ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]**»:

* «**الكرسي**»: كما يروى عن ابن عباس: موضع القدمين[1].

* ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ يعني: أحاط بالسماوات والأرض؛ السماوات السبع والأرضين السبع.

فكيف يظنُّ ظانٌّ أن السماء تظل الله أو تقلُّه؟!

فإذا كان قد وسع كرسيه السماوات والأرض؛ فلا يظن أحد أبداً هٰذا الظن الكاذب، وهو أن السماء تقلُّه أو تظلُّه.

---

(١) سبق تخريجه (١/ ١٧٢).

* قوله: «وهو الذي ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ [فاطر: ٣١]»:

* يمسكهما أن تزولا عن أماكنهما، ولولا إمساك الله لهما؛ لاضطربتا ومادتا وزالتا، ولٰكن الله عز وجل بقدرته وقوته يمسك السماوات والأرض أن تزولا، بل قال تعالى: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ﴾ [فاطر: ٤١]؛ ما أمسكهما أحد بعد الله أبداً.

لو تزول نجمة من النجوم؛ لا يستطيع أحد أن يمسكها؛ فكيف لو زالت السماوات والأرض؟! ما يمسكهما إلا الله الذي خلقها، الذي يقول للشيء: كن! فيكون. سبحانه وتعالى، بيده ملكوت السماوات والأرض.

* قوله: «﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۗ﴾ [الحج: ٦٥]».

السماء فوق الأرض، ووالله؛ لولا إمساك الله لها؛ لوقعت على الأرض؛ لأنها أجرام عظيمة؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًاۖ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]؛ فلولا أن الله يمسكها؛ لوقعت على الأرض، وإذا وقعت على الأرض؛ أتلفتها.

فالذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه؛ هل يتصور متصور أن السماء تقلُّه أو تظلُّه؟!

لا أحد يتصور ذٰلك.

* **قوله**: «﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ **[الروم: ٢٥]**»:

* ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾؛ يعني: من العلامات الدالة على كماله عز وجل من كل وجه:

* ﴿أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾: الكوني والشرعي؛ لأن أمره مبني على الحكمة والرحمة والعدل والإحسان؛ ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]، والأهواء فساد للسماوات والأرض، وهي مخالفة للأمر الشرعي.

إذاً؛ فالسماوات والأرض تقوم بأمر الله الكوني والشرعي، ولو أن الحق اتبع أهواء الخلق؛ لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن، ولهٰذا قال العلماء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]؛ أي: «لا تفسدوا فيها بالمعاصي».

* * *

فصل

في قرب الله تعالى وإجابته وأن ذلك لا ينافي علوه وفوقيته

الشرح:

* قوله: «وقد دخل في ذٰلك»؛ يعني: فيما وصف به نفسه:

* «الإيمان بأنه قريب من خلقه مجيب»: الإيمان بأنه قريب في نفسه، ومجيب؛ يعني: لعباده.

* ودليل ذٰلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

في هٰذه الآية ستة ضمائر تعود على الله، وعلى هٰذا؛ فيكون القرب قربه عز وجل، ولٰكن نقول في ﴿قَرِيبٌ﴾ كما قلنا في المعية؛ أنه لا يستلزم أن يكون في المكان الذي فيه الإنسان.

* وإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «إنه أقرب

إلى أحدكم من عنق راحلته»[1]، ولا يلزم أن يكون الله عز وجل نفسه في الأرض بينه وبين عنق راحلته.

وإذا كان قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «فإن الله قبل وجه المصلي»[2]: لا يستلزم أن يكون الله بينه وبين الجدار، إن كان يصلي إلى الجدار، ولا بينه وبين الأرض إن كان ينظر إلى الأرض.

فكذٰلك لا يلزم من قربه أن يكون في الأرض؛ لأن الله ليس كمثله شيء في جميع صفاته، وهو محيط بكل شيء.

* واعلم أن من العلماء من قسم قرب الله تعالى إلى قسمين؛ كالمعية، وقال: القرب الذي مقتضاه الإحاطة قرب عام، والقرب الذي مقتضاه الإجابة والإثابة قرب خاص.

* ومنهم من يقول: إن القرب خاص فقط؛ مقتضٍ لإجابة الداعي وإثابة العابد، ولا ينقسم.

ــ ويستدل هٰؤلاء بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وبقول النبي ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[3]، وأنه لا يمكن أن يكون الله تعالى قريباً من الفجرة الكفرة.

---

(١) سبق تخريجه (٢/ ٥٤).

(٢) سبق تخريجه (١/ ٢٨٩) وهو في «الصحيحين».

(٣) رواه مسلم (٤٨٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وهٰذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى.

ـ ولٰكن أورد على هٰذا القول قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [قٓ: ١٦]؛ فالمراد بـ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾: كل إنسان، ولهٰذا قال في آخر الآية: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ. . .﴾ إلى أن قال: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [قٓ: ٢٢ ـ ٢٣]؛ فهو شامل.

ـ وأورد عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٨٥]، ثم قسم هٰؤلاء الذين بلغت أرواحهم الحلقوم إلى ثلاثة أقسام، ومنهم الكافر.

ـ وأجيب عن ذٰلك بأن قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [قٓ: ١٦]؛ يعني: بملائكتنا، واستدل لذٰلك بقوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ [قٓ: ١٧]؛ فإن ﴿إِذْ﴾ ظرف متعلق بـ﴿أَقْرَبُ﴾؛ يعني: ونحن أقرب إليه حين يتلقى المتلقيان، وهٰذا يدل على أن المراد بقربه تعالى قرب ملائكته.

وكذٰلك قوله في المحتضر: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾: المراد: قرب الملائكة، ولهٰذا قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥]، وهٰذا يدل على أن هٰذا القريب موجود عندنا، لٰكن لا نبصره، وهٰذا يمتنع غاية الامتناع أن يكون المراد به الله عز وجل؛ لأن الله في السماء.

وما ذهب إليه شيخ الإسلام؛ فهو عندي أقرب، ولٰكنه ليس في القرب بذاك.

* * *

* قوله: «**كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذٰلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾** [البقرة: ١٨٦]، **وَقَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّ الذي تَدْعونَهُ أَقْرَبُ إِلى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ راحِلَتِهِ»**[(١)]».

* قوله: «**كما جمع بين ذٰلك**»: المشار إليه القرب والإجابة.

* * *

* قال المؤلف: «**وَمَا ذُكِرَ في الكِتابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِهِ لا يُنافي ما ذُكِرَ مِنْ عُلُوِّهِ وَفَوْقِيَّتِهِ؛ فإِنَّهُ سُبْحانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ في جَميعِ نُعوتِهِ، وَهُوَ عَلِيٌّ في دُنُوِّهِ، قَريبٌ في عُلُوِّهِ**».

* «**نعوته**»؛ يعني: صفاته. هو علي مع أنه دانٍ، قريب مع أنه عال، ولا تناقض في ذٰلك، وقد سبق بيان ذٰلك قريباً في الكلام على المعية.

* * *

---

(١) سبق تخريجه (٢/ ٥٤).

فصل
في الإيمان بأن القرآن كلام الله حقيقة

الشرح:

* قوله: «فَصْلٌ: وَمِنَ الإيمانِ بِاللهِ وَكُتُبِهِ: الإِيْمانُ بِأَنَّ القُرْآنَ كَلامُ اللهِ، مُنَزَّلٌ، غَيْرُ مَخْلوقٍ؛ مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعودُ»:

* قوله: «الإيمان بأن القرآن كلام الله»: وجه كون الإيمان بالقرآن على هٰذا الوجه من الإيمان بالله: أن القرآن من كلام الله، وكلام الله صفة من صفاته، وأيضاً؛ فإن الله وصف القرآن بأنه كلامه، وأنه منزل؛ فتصديق ذٰلك من الإيمان بالله.

* قوله: «كلام الله»: والدليل على ذٰلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

* قول المؤلف: «منزل»؛ أي: من عند الله تعالى:

لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

* قوله: «**غير مخلوق**»؛ أي: ليس من مخلوقات الله التي خلقها.

والدليل على ذٰلك قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]. والقرآن من الأمر؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، ولأن الكلام صفة المتكلم، والمخلوق مفعول للخالق، بائن منه؛ كالمصنوع؛ بائن من الصانع.

* قوله: «**منه بدأ**»؛ يعني: أن ابتداء تنزيله من الله، لا من جبريل ولا غيره؛ فجبريل نازل به من عند الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٣]، وقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١].

* وقوله: «**وإليه يعود**»: سبق الكلام[1] عن معناها والدليل عليها في شرح الآيات عند البحث عن كلام الله.

* قال المؤلف: «**وأن الله تكلم به حقيقة**»: بناء على الأصل؛ أن جميع الصفات حقيقية، وإذا كان كلام الله حقيقة؛ فلا يمكن أن يكون مخلوقاً؛ لأنه صفته، وصفة الخالق غير مخلوقة؛ كما أن صفة المخلوق مخلوقة.

---

(١) (٤٢٨/١).

وقد قال الإمام أحمد: «من قال: لفظ بالقرآن مخلوق؛ فهو جهمي، ومن قال: غير مخلوق؛ فهو مبتدع»[1].

فنقول: اللفظ يطلق على معنيين: على المصدر الذي هو فعل الفاعل، وعلى الملفوظ به:

ـ أما على المعنى الأول الذي هو المصدر؛ فلا شك أن ألفاظنا بالقرآن وغير القرآن مخلوقة

لأننا إذا قلنا: إن اللفظ هو التلفظ؛ فهٰذا الصوت الخارج من حركة الفم واللسان والشفتين مخلوق.

فإذا أريد باللفظ التلفظ؛ فهو مخلوق، سواء كان الملفوظ به قرآناً أو حديثاً أو كلاماً أحدثته من عندك.

ـ أما إذا قصد باللفظ الملفوظ به؛ فهٰذا منه مخلوق، ومنه غير مخلوق.

وعليه؛ إذا كان الملفوظ به هو القرآن؛ فليس بمخلوق.

هٰذا تفصيل القول في هٰذه المسألة.

لٰكن الإمام أحمد رحمه الله قال: «من قال: لفظي بالقرآن مخلوق؛ فهو جهمي»! قال ذٰلك لأحد احتمالين:

---

(١) رواه عبد الله بن الإمام أحمد في كتاب «السنة» (١/ ١٦٥)، ورواه الخلال أيضاً في كتاب «السنة»، كما في كتاب «درء تعارض العقل والنقل» لابن تيمية (١/ ٢٦١).

ـ أما أن هٰذا القول من شعار الجهمية؛ كأن الإمام أحمد يقول: إذا سمعت الرجل يقول: لفظي بالقرآن مخلوق؛ فاعلم أنه جهمي.

ـ وإما أن يكون ذٰلك حين يريد القائل باللفظ الملفوظ به، وهٰذا أقرب؛ لأن الإمام أحمد نفسه فسره؛ قال: «من قال: لفظي بالقرآن مخلوق؛ ـ يريد القرآن ـ؛ فهو جهمي».

وحينئذ يتضح معنى قوله: «من قال: لفظي بالقرآن مخلوق؛ فهو جهمي»؛ لأنه أراد الملفوظ به.

ولا شك أن الذي يريد باللفظ هنا الملفوظَ به فهو جهمي، أما من قال: غير مخلوق؛ فالإمام أحمد يقول: مبتدع؛ لأن هٰذا ما عهد عن السلف، وما كانوا يقولون مثل هٰذا القول؛ يقولون: القرآن كلام الله؛ فقط.

* * *

* قوله: **«وَأَنَّ هٰذا القُرْآنَ الذي أُنْزِلَ عَلى مُحَمَّدٍ ﷺ هُوَ كَلامُ اللهِ حَقيقَةً، لا كَلامُ غَيْرِهِ»**.

* كرر المؤلف هٰذا؛ لأن المقام مقام عظيم؛ فإن هٰذه المسألة حصل فيها على علماء المسلمين من المحن ما هو معلوم، وهلك فيها أمم كثيرة، ولٰكن حمى الله الحق بالإمام أحمد وأشباهه، الذين أبوا أن يقولوا إلا أن القرآن كلام الله غير مخلوق.

* وقوله: «**لا كلام غيره**»: خلافاً لمن قال: إن القرآن من كلام جبريل؛ ألهمه الله إياه، أو من كلام محمد... أو ما أشبه ذٰلك.

فإن قلت: قول المؤلف هنا: «لا كلام غيره»: معارض بقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠ ـ ٤١]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢٠]، والأول محمد ﷺ، والثاني جبريل؟!

فالجواب عن ذٰلك أن نقول: لا يمكن أن نحمل الآيتين على أن الرسولين تكلما به حقيقة، وأنه صدر منهما؛ لأن كلاماً واحداً لا يمكن أن يصدر من متكلمين!!

* * *

* قوله: «**وَلا يَجوزُ إطْلاقُ القَوْلِ بِأَنَّهُ حِكايَةٌ عَنْ كَلامِ اللهِ أو عِبارَةٌ**»:

* قال: «**لا يجوز إطلاق القول**»: ولم يقل: لا يجوز القول! يعني: لا يجوز أن نقول: هٰذا القرآن عبارة عن كلام الله؛ إطلاقاً، ولا يجوز أن نقول: إنه حكاية عن كلام الله؛ على سبيل الإطلاق.

والذين قالوا: إنه حكاية: هم الكلابية، والذين قالوا: إنه عبارة: هم الأشعرية.

والكل اتفقوا على أن هٰذا القرآن الذي في المصحف ليس كلام الله، بل هو إما حكاية أو عبارة، والفرق بينهما:

أن الحكاية المماثلة؛ يعني: كأن هٰذا المعنى الذي هو الكلام

عندهم حُكي بمرآة؛ كما يحكي الصدى كلام المتكلم.

أما العبارة؛ فيعني بها أن المتكلم عبر عن كلامه النفسي بحروف وأصوات خلقت.

فلا يجوز أن نطلق أنه حكاية أو عبارة، لكن عند التفصيل؛ قد يجوز أن نقول: إن القارىء الآن يعبر عن كلام الله أو يحكي كلام الله؛ لأن لفظه بالقرآن ليس هو كلام الله.

وهٰذا القول على هٰذا التقييد لا بأس به، لٰكن إطلاق أن القرآن عبارة أو حكاية عن كلام الله لا يجوز.

وكان المؤلف رحمه الله دقيقاً في العبارة حيث قال: «لا يجوز إطلاق القول»، بل لا بد من التقييد والتعيين.

* * *

* قوله: **«بَلْ إذا قَرَأَهُ النَّاسُ أَوْ كَتَبوهُ في المَصاحِفِ؛ لَمْ يَخْرُجْ بِذٰلِكَ عَنْ أنْ يَكُونَ كَلامَ اللهِ تَعالى حَقيقَةً؛ فإِنَّ الكَلامَ إنَّما يُضافُ حَقيقَةً إلى مَنْ قالَهُ مُبْتَدِئاً لا إلى مَنْ قالَهُ مُبَلِّغاً مُؤَدِّياً»**.

* يعني: مهما كتبه الناس في المصاحف أو حفظوه في صدورهم أو قرؤوه بألسنتهم؛ فإنه لا يخرج عن كونه كلام الله.

* ثم علل ذٰلك، فقال: **«فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئاً»**.

وهٰذا تعليل واضح؛ فالكلام يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئاً، أما إضافته إلى من قاله مبلغاً مؤدياً؛ فعلى سبيل التوسع؛

فلو قرأنا الآن مثلاً:

حُكْـمُ المَحَبَّـةِ ثـابِـتُ الأَرْكـانِ مَا لِلصُّدودِ بِفَسْخِ ذاكَ يَدانِ

فإن هٰذا البيت ينسب حقيقة إلى ابن القيم[1].

ولو قلت:

كَـلامُنـا لَفْـظٌ مُفِيـدٌ كَـاسْتَقِـمْ وَاسْمٌ وَفِعْلٌ ثُمَّ حَرْفٌ الكَلِمْ

فهٰذا ينسب حقيقة إلى ابن مالك[2].

إذاً؛ الكلام يضاف حقيقة إلى القائل الأول.

فالقرآن كلام من تكلم به أولاً، وهو الله تعالى، لا كلام من بلغه إلى غيره.

* * *

* قوله: «**وَهُوَ كَلامُ اللهِ؛ حُروفُهُ وَمَعانِيهِ**»:

هٰذا مذهب أهل السنة والجماعة؛ قالوا: إن الله تعالى تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه.

* قوله: «**وَلَيْسَ كَلامُ اللهِ الحُروفَ دُونَ المَعاني**»:

وهٰذا مذهب المعتزلة والجهمية؛ لأنهم يقولون: إن الكلام ليس معنىً يقوم بذات الله، بل هو شيء من مخلوقاته؛ كالسماء

(١) «شرح قصيدة الإمام ابن القيم» لابن عيسى (١/ ٣٧).
(٢) «شرح ابن عقيل على الألفية» (١/ ١٣).

والأرض والناقة والبيت وما أشبه ذٰلك! فليس معنىً قائماً في نفسه؛ فكلام الله حروف خلقها الله عز وجل، وسماها كلاماً له؛ كما خلق الناقة وسماها ناقة الله، وكما خلق البيت وسماه بيت الله.

ولهٰذا كان الكلام عند الجهمية والمعتزلة هو الحروف؛ لأن كلام الله عندهم عبارة عن حروف وأصوات خلقها الله عز وجل ونسبها إليه تشريفاً وتعظيماً.

* قوله: «**وَلاَ المَعاني دُونَ الحُروفِ**».

وهٰذا مذهب الكلابية والأشعرية؛ فكلام الله عندهم معنى في نفسه، ثم خلق أصواتاً وحروفاً تدل على هٰذا المعنى؛ إما عبارة أو حكاية.

واعلم أن ابن القيم رحمه الله ذكر أننا إذا أنكرنا أن الله يتكلم؛ فقد أبطلنا الشرع والقدر:

ـ أما الشرع؛ فلأن الرسالات إنما جاءت بالوحي، والوحي كلام مبلغ إلى المرسل إليه؛ فإذا نفينا الكلام؛ انتفى الوحي، وإذا انتفى الوحي؛ انتفى الشرع.

ـ أما القدر؛ فلأن الخلق يقع بأمره؛ بقوله: كن! فيكون؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يٓس: ٨٢].

* * * * *

فصل

في الإيمان برؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة ومواضع الرؤية

* قول المؤلف: «**فَصْلٌ: وَقَدْ دَخَلَ أَيْضاً فيما ذَكَرْناهُ مِنَ الإيمانِ بِهِ وَبِكُتُبِهِ وَبِمَلائِكَتِهِ وَبِرُسُلِهِ: الإيمانُ بِأَنَّ المُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ يَوْمَ القِيامَةِ**».

الشرح:

* قوله: «الإيمان بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة»:

ـ وجه كون الإيمان بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة من الإيمان بالله ظاهر؛ لأن هٰذا مما أخبر الله به؛ فإذا آمنا به؛ فهو من الإيمان بالله.

ـ ووجه كونه من الإيمان بالكتب؛ لأن الكتب أخبرت بأن الله يُرى؛ فالتصديق بذٰلك تصديق بالكتب.

ـ ووجه كونه من الإيمان بالملائكة؛ لأن نقل الوحي بواسطة الملائكة؛ فإن جبريل ينزل بالوحي من الله تعالى؛ فكأن الإيمان بأن الله يُرى من الإيمان بالملائكة.

ـ وكذٰلك نقول: من الإيمان بالرسل؛ لأن الرسل هم الذين بلغوا ذٰلك للخلق؛ فكأن الإيمان بذٰلك من الإيمان بالرسل.

* قوله: «**عياناً بأبصارهم**»: (عياناً)؛ بمعنى: معاينة، والمعاينة هي الرؤية بالعين.

* قوله: «**كما يرون الشمس صحوا ليس دونها سحاب**»: ودليل ذٰلك قوله عليه الصلاة والسلام: «ترونه كما ترون الشمس صحواً ليس دونها سحاب»[1].

والمراد بالرؤية: بالعين؛ كما يدل عليه تشبيه الرؤية برؤية الشمس صحواً ليس دونها سحاب.

* قوله رحمه الله: «**وَكَما يَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ، لا يُضَامُونَ في رُؤْيَتِهِ**»: سبق الكلام في ذٰلك.

* * *

* قوله: «**يَرَوْنَهُ سُبْحانَهُ وَهُمْ في عَرَصاتِ القِيامَةِ**»:

* «**عَرَصات**»: جمع عَرْصة، وهي المكان الواسع الفسيح، الذي ليس فيه بناء؛ لأن الأرض تُمَدُّ مَدَّ الأديم؛ كما قال الرسول

---

(١) رواه: البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣)؛ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

عليه الصلاة والسلام[1]؛ يعني: مَدَّ الجلد.

* فالمؤمنون يرون الله في عرصات يوم القيامة قبل أن يدخلوا الجنة؛ كما قال الله تعالى عن المكذبين بيوم الدين: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]؛ ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾؛ يعني: يوم الدين؛ ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، ويرونه كذلك بعد دخول الجنة.

* أما في عرصات القيامة؛ فالناس في العرصات ثلاثة أجناس:

١ ـ مؤمنون خُلَّص ظاهراً وباطناً.

٢ ـ وكافرون خُلَّص ظاهراً وباطناً.

٣ ـ ومؤمنون ظاهراً كافرون باطناً، وهم المنافقون.

ـ فأما المؤمنون؛ فيرون الله تعالى في عرصات القيامة وبعد دخول الجنة.

ـ وأما الكافرون؛ فلا يرون ربهم مطلقاً، وقيل: يرونه؛ لكن رؤية غضب وعقوبة، ولكن ظاهر الأدلة يدل على أنهم لا يرون

---

(١) لما رواه الحاكم (٤/٥٧٥) عن عبد الله بن عمرو ـ موقوفاً ـ قال: «إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم وحشر الخلائق»، ومن حديث جابر (٤/٤٧٠) رفعه: «تمد الأرض مد الأديم ثم لا يكون لابن آدم منها إلاّ موضع قدميه»، وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١١/٣٧٦): رجاله ثقات.
وصحّح الألباني في «الصحيحة» (٤/٦٠٧) سند الموقوف.

الله؛ كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

ـ وأما المنافقون؛ فإنهم يرون الله عز وجل في عرصات القيامة، ثم يحتجب عنهم، ولا يرونه بعد ذٰلك.

* * *

* قوله: «**ثُمَّ يَرَوْنَهُ بَعْدَ دُخولِ الجَنَّةِ كَما يَشاءُ اللهُ تَعالى**»:

* قوله: «**كما يشاء**»؛ يعني: يرون الله كما يشاء سبحانه وتعالى في كيفية رؤيتهم إياه، وكما يشاء الله في زمن رؤيتهم إياه، وفي جميع الأحوال؛ يعني: على الوجه الذي يشاؤه الله عز وجل في هٰذه الرؤية.

* وحينئذ؛ فإن هٰذه الرؤية لا نعلم كيفيتها؛ بمعنى أن الإنسان لا يعلم كيف يرى ربه، ولٰكن معنى الرؤية معلوم؛ أنهم يرون الله كما يرون القمر؛ لكن على أي كيفية؟ هٰذه لا نعلمها، بل كما يشاء الله.

وقد سبق التفصيل في الرؤية.

* * *

فصل
في الإيمان باليوم الآخر

الشرح:

شرع المؤلف رحمه الله تعالى في الكلام عن اليوم الآخر وعقيدة أهل السنة والجماعة فيه، فقال:

* **«فصل: ومن الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت»**:

* حكم الإيمان باليوم الآخر فريضة واجب، ومرتبته في الدين أنه أحد أركان الإيمان الستة.

وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الإيمان به تعالى والإيمان باليوم الآخر؛ الإيمان بالمبدأ والإيمان بالمعاد؛ لأن من لم يؤمن باليوم الآخر؛ لا يمكن أن يؤمن بالله؛ إذ إن الذي لا يؤمن باليوم الآخر؛ لن يعمل؛ لأنه لا يعمل إلا لما يرجوه من الكرامة في اليوم الآخر، وما يخافه من العذاب والعقوبة؛ فإذا كان لا يؤمن به؛ صار

كمن حكى الله عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

* وسمي اليوم الآخر باليوم الآخر؛ لأنه يوم لا يوم بعده؛ فهو آخر المراحل.

* والإنسان له خمس مراحل: مرحلة العدم، ثم الحمل، ثم الدنيا، ثم البرزخ، ثم الآخرة.

ـ فأما مرحلة العدم؛ فقد دل عليها قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

ـ وأما مرحلة الحمل؛ فقال الله عنها: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: ٦].

ـ وأما مرحلة الدنيا؛ فقال الله عنها: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وهٰذه المراحل هي التي عليها مدار السعادة والشقاء، وهي

دار الامتحان والابتلاء؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [تبارك: ٢].

ـ وأما مرحلة البرزخ؛ فقال الله عنها: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

ـ وأما مرحلة الآخرة؛ فهي غاية المراحل، ونهاية الراحل؛ قال الله تعالى بعد ذكر المراحل: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۞ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٦].

* وقوله رحمه الله: «**الإيمانُ بكلِّ ما أخْبَرَ بِهِ النبيُّ ﷺ مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ المَوْتِ**»: كل هٰذا داخل في الإيمان باليوم الآخر.

وذٰلك لأن الإنسان إذا مات؛ دخل في اليوم الآخر، ولهٰذا يقال: من مات؛ قامت قيامته؛ فكل ما يكون بعد الموت؛ فإنه من اليوم الآخر.

إذاً؛ ما أقرب اليوم الآخر لنا؛ ليس بيننا وبينه إلا أن يموت الإنسان، ثم يدخل في اليوم الآخر الذي ليس فيه إلا الجزاء على العمل.

ولهٰذا يجب علينا أن ننتبه لهٰذه النقطة.

فكر أيها الإنسان؛ تجد أنك على خطر؛ لأن الموت ليس له أجل معلوم عندنا؛ قد يخرج الإنسان من بيته ولا يرجع إليه، وقد يكون الإنسان على كرسي مكتبه ولا يقوم منه، وقد ينام الإنسان على فراشه ولٰكنه يحمل من فراشه إلى سرير غسله، وهٰذا أمر

يستوجب منا أن ننتهز فرصة العمر بالتوبة إلى الله عز وجل، وأن يكون الإنسان دائماً يستشعر بأنه تائب إلى الله وراجع ومنيب حتى يأتيه الأجل وهو على خير ما يرام.

* * *

* قوله: «فيؤمنون بفتنة القبر وبعذاب القبر ونعيمه»:

* الفتنة هنا الاختبار، والمراد بفتنة القبر: سؤال الميت إذا دفن عن ربه ودينه ونبيه.

* والضمير في «يؤمنون»: يعود على أهل السنة؛ أي أن أهل السنة والجماعة يؤمنون بفتنة القبر، وذلك لدلالة الكتاب والسنة عليها.

ـ أما الكتاب؛ ففي قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]؛ فإن هذا في فتنة القبر؛ كما ثبت في «الصحيحين»[(١)] وغيرهما من حديث البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

ـ وأما السنة؛ فقد تظافرت بأن الإنسان يفتن في قبره، وهي فتنة قال فيها النبي ﷺ: «إنه قد أوحي إليَّ أنكم تفتنون في قبوركم مثل (أو: قريباً من) فتنة الدَّجال»[(٢)].

وفتنة الدجال أعظم فتنة منذ خلق الله آدم إلى أن تقوم

---

(١) رواه البخاري (٤٦٩٩)، ومسلم (٢٨٧١).

(٢) رواه البخاري (١٨٤)، ومسلم (٩٠٥)؛ عن أسماء رضي الله عنها.

الساعة؛ كما في «صحيح مسلم» عن عمران بن حصين رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة أمر أكبر من الدجال»[1].

ولٰكن النبي ﷺ قال لأصحابه، بل قال لأمته: «إن يخرج وأنا فيكم؛ فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم؛ فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم»[2].

ومع ذٰلك؛ فإن نبينا محمداً ﷺ أعلمنا كيف نحاجه، وأعلمنا بأوصافه وميزاته، حتى كأنا نشاهده رأي عين، وبهٰذه الأوصاف والميزات نستطيع أن نحاجه.

ولهٰذا نقول: إن فتنة الدجال أعظم فتنة، والرسول عليه الصلاة والسلام قال: «إنكم تفتنون في قبوركم مثل ـ أو قريباً من ـ فتنة الدجال»[3].

وما أعظمها من فتنة! لأن الإنسان يتلقى فيها السؤال الذي لا يمكن الجواب عليه؛ إلا على أساس متين من العقيدة والعمل الصالح.

* * *

*** قوله: «فأما الفتنة فإن الناس يفتنون في قبورهم»:**

---

(١) رواه مسلم (٢٩٤٦) عن عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (٢٩٣٧) عن النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه (٢/١٠٨).

* هٰذا شروع في بيان كيفية فتنة الميت في قبره.

* وكلمة «**الناس**» عامة، وظاهر كلام المؤلف أن كل أحد؛ حتى الأنبياء والصديقون والشهداء والمرابطون وغير المكلفين من الصغار والمجانين يفتنون في قبورهم، وفي هٰذا تفصيل؛ فنقول:

أولاً: أما الأنبياء؛ فلا تشملهم الفتنة، ولا يسألون، وذٰلك لوجهين:

الأول: أن الأنبياء أفضل من الشهداء، وقد أخبر النبي ﷺ أن الشهيد يوقى فتنة القبر، وقال: «كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة»؛ أخرجه النسائي[1].

الثاني: أن الأنبياء يسأل عنهم؛ فيقال للميت: من نبيك؟ فهم مسؤول عنهم، وليسوا مسؤولين، ولهٰذا قال النبي ﷺ: «إنه أوحي إليَّ أنكم تفتنون في قبوركم»[2]، والخطاب للأمة المرسل إليهم؛ فلا يكون الرسول داخلاً فيهم.

ثانياً: وأما الصديقون؛ فلا يسألون؛ لأن مرتبة الصديقين أعلى من مرتبة الشهداء؛ فإذا كان الشهداء لا يسألون؛ فالصديقون من باب أولى، ولأن الصديق على وصفه مصدَّق وصادق؛ فهو قد علم صدقه؛ فلا حاجة إلى اختباره؛ لأن الاختبار لمن يُشَك فيه؛

---

(١) رواه النسائي (٤/٩٩)، وعنه القاسم السرقسطي في «غريب الحديث» (٢/١٦٥/١) كما في «أحكام الجنائز» (٣٦) للألباني، وقال: سنده صحيح.

(٢) سبق تخريجه (٢/١٠٨).

هل هو صادق أو كاذب، أما إذا كان صادقاً؛ فلا حاجة تدعو لسؤاله، وذهب بعض العلماء إلى أنهم يسألون؛ لعموم الأدلة، والله أعلم.

ثالثاً: وأما الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله؛ فإنهم لا يسألون؛ لظهور صدق إيمانهم بجهادهم:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ...﴾ الآية [التوبة: ١١١].

وقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وقال النبي ﷺ: «كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة»[(١)].

وإذا كان المرابط؛ إذا مات؛ أمن الفتان؛ لظهور صدقه؛ فهٰذا الذي قتل في المعركة مثله أو أولى منه؛ لأنه بذل وعرض رقبته لعدو الله؛ إعلاءً لكلمة الله، وانتصاراً لدينه، وهٰذا من أكبر الأدلة على صدق إيمانه.

رابعاً: وأما المرابطون؛ فإنهم لا يفتنون؛ ففي «صحيح مسلم»؛ أن رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات؛ جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجري

---

(١) تقدم قريباً.

عليه رزقه، وأمن الفتان»[1].

خامساً: الصغار والمجانين؛ هل يفتنون أو لا يفتنون؟

قال بعض العلماء: إنهم يفتنون؛ لدخولهم في العموم، ولأنهم إذا سقط التكليف عنهم في حال الحياة؛ فإن حال الممات تخالف حال الحياة.

وقال بعض العلماء: إن المجانين والصغار لا يسألون؛ لأنهم غير مكلفين، وإذا كانوا غير مكلفين؛ فإنه لا حساب عليهم؛ إذ لا حساب إلا على من كان مكلفاً يعاقب على المعاصي، وهٰؤلاء لا يعاقبون، وليس لهم إلا الثواب؛ إن عملوا عملاً صالحاً يثابون عليه.

* إذاً؛ خرج من قول المؤلف: «فإن الناس»: خمسة أصناف: الأنبياء، والصديقون، والشهداء، والمرابطون، ومن لا عقل له؛ كالمجانين والصبيان.

تنبيه:

الناس ثلاثة أقسام: مؤمنون خلص ومنافقون، وهٰذان القسمان يفتنون، والثالث كفار خلص؛ ففي فتنتهم خلاف، وقد رجح ابن القيم في كتاب «الروح» أنهم يفتنون.

* وهل تسأل الأمم السابقة؟

---

(١) رواه مسلم (١٩١٣) عن سلمان رضي الله عنه.

ذهب بعض العلماء ـ وهو الصحيح ـ إلى أنهم يسألون؛ لأنه إذا كانت هٰذه الأمة ـ وهي أشرف الأمم ـ تسأل؛ فمن دونها من باب أولى.

* قوله: «**في قبورهم**»: جمع قبر، وهي مدفن الأموات، والمراد ما هو أعم؛ فيشمل البرزخ، وهو ما بين موت الإنسان وقيام الساعة، سواء دفن الميت أو أكلته السباع في البر أو الحيتان في البحر أو أتلفته الرياح.

والظاهر أن الفتنة لا تكون إلا إذا انتهت الأحوال الدنيوية، وسلم إلى عالم الآخرة؛ فإذا تأخر دفنه يوماً أو أكثر؛ لم يكن السؤال حتى يدفن.

* قوله: «**فيقال للرجل**»: القائل ملكان يأتيان إلى الإنسان في قبره، ويجلسانه، ويسألانه، حتى إنه ليسمع قرع نعال المنصرفين عنه، وهما يسألانه، ولهٰذا كان من هدي النبي ﷺ؛ أنه إذا دفن الميت؛ وقف عليه، وقال: «استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت؛ فإنه الآن يسأل»[1].

* وورد في بعض الآثار أن اسمهما: منكر، ونكير[2].

---

(١) رواه أبو داود (٣٢٢١)، والبيهقي (٤/ ٥٦)، وصححه الحاكم (١/ ٣٧٠)، ووافقه الذهبي، وجوَّد إسناده النووي في «المجموع» (٥/ ٢٩٢)، وانظر «أحكام الجنائز» للألباني (١٥٦).

(٢) لما رواه الترمذي (١٠٨٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٨٦٤)، والآجري في «الشريعة» (٣٦٥)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا =

وأنكر بعض العلماء هٰذين الاسمين؛ قال: كيف يسمى الملائكة وهم الذين وصفهم الله تعالى بأوصاف الثناء بهٰذين الاسمين المنكرين، وضعف الحديث الوارد في ذٰلك.

وذهب آخرون إلى أن الحديث حجة، وأن هٰذه التسمية ليس لأنهما منكران من حيث ذواتهما، ولٰكنهما منكران من حيث إن الميت لا يعرفهما، وليس له بهما علم سابق، وقد قال إبراهيم لأضيافه الملائكة: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]؛ لأنه لا يعرفهم؛ فهٰذان منكر ونكير؛ لأنهما غير معروفين للميت.

* ثم هٰذان الملكان هل هما ملكان جديدان، موكلان بأصحاب القبور أو هما الملكان الكاتبان اللذان عن اليمين وعن الشمال قعيد؟

ـ منهم من قال: إنهما الملكان اللذان يصحبان المرء؛ فإن لكل إنسان ملكين في الدنيا يكتبان أعماله، وفي القبر يسألانه هٰذه الأسئلة الثلاثة.

ـ ومنهم من قال: بل هما ملكان آخران، والله عز وجل يقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، والملائكة خلق كثير؛ قال النبي ﷺ: «أطت السماء، وحق لها أن تئط (والأطيط: صرير الرحل)؛ ما من موضع شبر (أو قال: أربع أصابع)؛ إلا وفيه

= قبر الميت أو قال أحدكم أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما: المنكر، والآخر: النكير...». والحديث صححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٩١).

ملك قائم لله أو راكع أو ساجد»[1]، والسماء واسعة الأرجاء؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].

فالمهم أنه لا غرابة أن ينشىء الله عز وجل لكل مدفون ملكين يرسلهما إليه، والله على كل شيء قدير.

* قوله: «من ربك؟»؛ يعني: من ربك الذي خلقك وتعبده وتخصه بالعبادة؟ لأجل أن تنتظم هذه الكلمة توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية.

* وقوله: «ما دينك؟»: يعني: ما عملك الذي تدين به لله عز وجل، وتتقرب به إليه؟

* والثالث: «من نبيك؟»؛ يعني: من النبي الذي تؤمن به وتتبعه؟

* قوله: «فـ ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]»؛ أي: يجعلهم ثابتين لا يترددون ولا يتلعثمون في الجواب.

* والقول الثابت: هو التوحيد؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

---

(١) رواه أحمد (٥/١٧٣)، والترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، والحاكم في «المستدرك» (٢/٥١٠)؛ عن أبي ذر رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١٧٢٢).

* وقوله: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾: يحتمل أنها متعلقة بـ ﴿يُثَبِّتُ﴾؛ يعني: أن الله يثبت المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة. ويحتمل أنها متعلقة بالثابت؛ فتكون وصفاً للقول؛ يعني: أن هٰذا القول ثابت في الدنيا وفي الآخرة.

ولٰكن المعنى الأول أحسن وأقرب؛ لأن الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾ [الأنفال: ٤٥]، وقال الله عز وجل: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأنفال: ١٢]؛ فهم يثبتون في الحياة الدنيا وفي الآخرة بالقول الثابت.

* قوله: **«فيقول المؤمن: ربي الله، والإسلام ديني، ومحمد ﷺ نبيي»**:

فيقول المؤمن: ربي الله. عندما يقال له: من ربك؟ ويقول إذا قيل له: ما دينك؟ فيقول: الإسلام ديني. ويقول كذٰلك: محمد ﷺ نبيي. إذا قيل له: من نبيك؟

وحينئذ يكون الجواب صواباً، فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي؛ فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة.

* قوله: **«وأما المرتاب؛ فيقول: هاه هاه! لا أدري؛ سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته»**:

* المرتاب: الشاك والمنافق وشبههما.

* **«فيقول: هاه! هاه! لا أدري؛ سمعت الناس يقولون شيئاً**

فقلته»؛ يعني: لم يلج الإيمان قلبه، وإنما كان يقول كما يقول الناس من غير أن يصل الإيمان إلى قلبه.

وتأمل قوله: «هاه! هاه!»؛ كأن شيئاً غاب عنه؛ يريد أن يتذكره، وهٰذا أشد في التحسر؛ أن يتخيل أنه يعرف هٰذا الجواب، ولٰكن يحال بينه وبينه، ويقول: هاه! هاه! ثم يقول: سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته. ولا يقول: ربي الله! ولا: ديني الإسلام! ولا: نبيي محمد! لأنه في الدنيا مرتاب شاك!

هٰذا إذا سئل في قبره وصار أحوج ما يكون إلى الجواب الصواب؛ يعجز ويقول: لا أدري؛ سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته.

إذاً؛ إيمانه قول فقط!!

* قوله: «**فيضرب بمرزبة من حديد، فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان**»:

* «**يضرب**»؛ يعني: الذي لم يجب؛ سواء كان الكافر أو المنافق والضارب له الملكان اللذان يسألانه.

* والمرزبة: هي مطرقة من حديد، وقد ورد في بعض الروايات أنه لو اجتمع عليها أهل منى؛ ما أقلوها.

فإذا ضرب؛ يصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان.

* قوله: «**يضرب فيصيح**»؛ أي: صياحاً مسموعاً؛ يسمعه كل شيء، يكون حوله مما يسمع صوته، وليس كل شيء في أقطار

الدنيا يسمعه، وأحياناً يتأثر به ما يسمعه؛ كما مر النبي ﷺ بأقبر للمشركين على بغلته؛ فحادت به، حتى كادت تلقيه؛ لأنها سمعت أصواتهم يعذَّبون[1].

* قوله: «**إلا الإنسان**»؛ يعني: أنه لا يسمع هٰذا الصياح، وذٰلك لحكم عظيمة؛ منها:

أولاً: ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «لولا أن لا تدافنوا؛ لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر»[2].

ثانياً: أن في إخفاء ذٰلك ستراً للميت.

ثالثاً: أن فيه عدم إزعاج لأهله؛ لأن أهله إذا سمعوا ميتهم يعذب ويصيح؛ لم يستقر لهم قرار.

رابعاً: عدم تخجيل أهله؛ لأن الناس يقولون: هٰذا ولدكم! هٰذا أبوكم! هٰذا أخوكم! وما أشبه ذٰلك.

خامساً: أننا قد نهلك؛ لأنها صيحة ليست هينة، بل صيحة توجب أن تسقط القلوب من معاليقها، فيموت الإنسان أو يغشى عليه.

سادساً: لو سمع الناس صراخ هٰؤلاء المعذبين؛ لكان الإيمان بعذاب القبر من باب الإيمان بالشهادة، لا من باب الإيمان بالغيب، وحينئذ تفوت مصلحة الامتحان؛ لأن الناس سوف يؤمنون

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٧) عن زيد بن ثابت رضي الله عنه.

(٢) جزء من الحديث السابق.

بما شاهدوه قطعاً؛ لٰكن إذا كان غائباً عنهم، ولم يعلموا به إلا عن طريق الخبر؛ صار من باب الإيمان بالغيب.

* تنبيه:

قول المؤلف رحمه الله: «فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعها الإنسان؛ لصعق»؛ إنما ورد قوله: «يسمعها كل شيء إلا الإنسان...» إلخ في قول الجنازة إذا احتملها الرجال على أعناقهم؛ كما قال النبي ﷺ: «فإن كانت صالحة؛ قالت: قدموني! وإن كانت غير صالحة؛ قالت: يا ويلها! أين يذهبون بها؟! يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعه؛ لصعق»[1]. أما الصيحة في القبر؛ فقال النبي ﷺ: «فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين». أخرجه البخاري بهٰذا اللفظ[2]، والمراد بالثقلين: الإنس والجن.

* * *

* قوله: «**ثم بعد هٰذه الفتنة إما نعيم وإما عذاب**»:

* «ثم»: هٰذه لمطلق الترتيب، وليست للتراخي؛ لأن الإنسان يعذب أو ينعم فوراً؛ كما سبق أنه إذا قال: لا أدري! يضرب بمرزبة، وأن ذاك الذي أجاب بالصواب؛ يفتح له باب إلى الجنة، ويوسع له في قبره.

---

(١) رواه البخاري (١٣١٦ و ١٣٨٠) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (١٣٧٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

* وهٰذا النعيم أو العذاب؛ هل هو على البدن أو على الروح أو يكون على البدن والروح جميعاً؟

نقول: المعروف عند أهل السنة والجماعة أنه في الأصل على الروح، والبدن تابع لها؛ كما أن العذاب في الدنيا على البدن، والروح تابعة له، وكما أن الأحكام الشرعية في الدنيا على الظاهر، وفي الآخرة بالعكس؛ ففي القبر يكون العذاب أو النعيم على الروح، لٰكن الجسم يتأثر بهٰذا تبعاً، وليس على سبيل الاستقلال، وربما يكون العذاب على البدن والروح تتبعه، لٰكن هٰذا لا يقع إلا نادراً؛ إنما الأصل أن العذاب على الروح والبدن تبع، والنعيم للروح والبدن تبع.

* وقوله: «**إما نعيم وإما عذاب**»: فيه إثبات النعيم والعذاب في القبر، وقد دل على ذٰلك كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، بل لنا أن نقول: وإجماع المسلمين:

ـ أما من كتاب الله؛ فالثلاثة أصناف التي في آخر الواقعة ظاهرة في ثبوت عذاب القبر ونعيمه.

قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٩٤].

وهٰذا أمر مشاهد؛ يسمع المحتضر يرحب بالقادمين عليه من

الملائكة[1]، ويقول: مرحباً! وأحياناً يقول: مرحباً؛ اجلس هنا! كما ذكره ابن القيم في كتاب «الروح»، وأحياناً يحس بأن هٰذا الرجل أصيب بشيء مخيف، فيتغير وجهه عند الموت إذا نزلت عليه ملائكة العذاب والعياذ بالله.

ومن أدلة القرآن قوله تعالى في آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ﴾، وهٰذا قبل قيام الساعة؛ بدليل قوله: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

ومن أدلة القرآن أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾، وهم شاحون بأنفسهم، لا يريدونها أن تخرج؛ لأنهم قد بشروا بالعذاب والعقوبة؛ فتجد الروح تأبى الخروج، ولهٰذا قال: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣]: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾: (الـ): للعهد الحضوري؛ كقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: ٣]؛ يعني: اليوم الحاضر.

وكذٰلك ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ﴾: (الـ) للعهد الحضوري، والمراد

---

(١) لما رواه البراء بن عازب في قصة خروجه مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار. أخرجه الإمام أحمد (٤/٢٨٧ و ٢٨٨ و ٢٩٥ و ٢٩٦)، وأبو داود (٤٧٥٣)، والآجري في «الشريعة» (٣٦٧)، والحاكم في «المستدرك» (١/٣٧)؛ وقال: صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي، ووافقهما الألباني في «أحكام الجنائز» (١٥٩). وقال الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/٣٦٩): هذا الحديث حديث حسن.

به: يوم حضور الملائكة لقبض أرواحهم، وهٰذا يقتضي أنهم يعذبون من حين أن تخرج أرواحهم، وهٰذا هو عذاب القبر.

ومن أدلة القرآن أيضاً قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ [النحل: ٣٢]، وذٰلك في حال الوفاة.

ولهٰذا جاء في الحديث الصحيح: «يقال لنفس المؤمن: اخرجي أيتها النفس الطيبة إلى مغفرة من الله ورضوان»؛[١] فتفرح بهٰذه البشرى، وتخرج منقادة سهلة، وإن كان البدن قد يتألم، لٰكن الروح منقادة مستبشرة.

ـ وأما السنة في عذاب القبر ونعيمه؛ فمتواترة، ومنها ما ثبت في «الصحيحين» من حديث ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن النبي ﷺ مر بقبرين؛ فقال: «إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير...»[٢] الحديث.

ـ وأما الإجماع؛ فكل المسلمين يقولون في صلاتهم: أعوذ بالله من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر... ولو أن عذاب القبر غير ثابت؛ ما صح أن يتعوذوا بالله منه؛ إذ لا تعوذ من أمر ليس موجوداً، وهٰذا يدل على أنهم يؤمنون به.

* فإن قال قائل: هل العذاب أو النعيم في القبر دائم أو

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٢١) من حديث البراء بن عازب.

(٢) رواه: البخاري (١٣٧٨)، ومسلم (١٩٨٠)؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ينقطع؟

فالجواب أن يقال:

ـ أما العذاب للكفار؛ فإنه دائم، ولا يمكن أن يزول العذاب عنهم؛ لأنهم مستحقون لذٰلك، ولأنه لو زال العذاب عنهم؛ لكان هٰذا راحة لهم، وهم ليسوا أهلاً لذٰلك؛ فهم باستمرار في عذاب إلى يوم القيامة، ولو طالت المدة؛ فقوم نوح الذين أغرقوا ما زالوا يعذبون في هٰذه النار التي أدخلوا فيها، ويستمر عذابهم إلى يوم القيامة، وكذٰلك آل فرعون يعرضون على النار غدوّاً وعشيّاً.

وذكر بعض العلماء أنه يخفف عن الكفار ما بين النفختين، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يٓس: ٥٢]، ولٰكن هٰذا ليس بلازم؛ لأن قبورهم مرقد لهم، وإن عذبوا فيها.

ـ أما عصاة المؤمنين الذين يقضي الله تعالى عليهم بالعذاب؛ فهٰؤلاء قد يدوم عذابهم وقد لا يدوم، وقد يطول وقد لا يطول؛ حسب الذنوب، وحسب عفو الله عز وجل.

والعذاب في القبر أهون من عذاب يوم القيامة؛ لأن العذاب في القبر ليس فيه خزي وعار، لٰكن في الآخرة فيه الخزي والعار؛ لأن الأشهاد موجودون: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

* فإن قال قائل: لو أن هٰذا الرجل تمزق أوصالاً، وأكلته السباع، وذرته الرياح؛ فكيف يكون عذابه، وكيف يكون سؤاله؟!

فالجواب: أن الله عز وجل على كل شيء قدير، وهٰذا أمر غيبي؛ فالله عز وجل قادر على أن يجمع هٰذه الأشياء في عالم الغيب، وإن كنا نشاهدها في الدنيا متمزقة متباعدة، لٰكن في عالم الغيب ربما يجمعها الله:

فانظر إلى الملائكة تنزل لقبض روح الإنسان في المكان نفسه؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨]، ومع ذٰلك؛ لا نبصرهم.

وملك الموت يكلم الروح، ونحن لا نسمع.

وجبريل يتمثل أحياناً للرسول عليه الصلاة والسلام، ويكلمه بالوحي في نفس المكان، والناس لا ينظرون ولا يسمعون.

فعالم الغيب لا يمكن أبداً أن يقاس بعالم الشهادة، وهٰذه من حكمة الله عز وجل؛ فنفسك التي في جوفك ما تدري كيف تتعلق ببدنك؟! كيف هي موزعة على البدن؟! وكيف تخرج منك عند النوم؟! هل تحس بها عند استيقاظك بأنها ترجع؟! ومن أين تدخل لجسمك؟!

فعالم الغيب ليس فيه إلا التسليم، ولا يمكن فيه القياس إطلاقاً؛ فالله عز وجل قادر على أن يجمع هٰذه المتفرقات من البدن المتمزق الذي ذرته الرياح، ثم يحصل عليه المساءلة والعذاب أو النعيم؛ لأن الله سبحانه على كل شيء قدير.

* فإن قال قائل: الميت يدفن في قبر ضيق؛ فكيف يوسع له

مدَّ البصر؟!

فالجواب: أن عالم الغيب لا يقاس بعالم الشهادة، بل إننا لو فرض أن أحداً حفر حفرة مدَّ البصر، ودفن فيها الميت، وأطبق عليه التراب؛ فالذي لا يعلم بهٰذه الحفرة؛ هل يراها أو لا يراها؟! لا شك أنه لا يراها؛ مع أن هٰذا في عالم الحس، ومع ذٰلك لا يرى هٰذه السعة، ولا يعلم بها؛ إلا من شاهدها.

* فإذا قال قائل: نحن نرى الميت الكافر إذا حفرنا قبره بعد يوم أو يومين؛ نرى أن أضلاعه لم تختلف وتتداخل من الضيق؟!

فالجواب كما سبق: أن هٰذا من عالم الغيب، ومن الجائز أن تكون مختلفة؛ فإذا كشف عنها؛ أعادها الله، وردَّ كل شيء إلى مكانه؛ امتحاناً للعباد؛ لأنها لو بقيت مختلفة ونحن قد دفنَّاه وأضلاعه مستقيمة؛ صار الإيمان بذٰلك إيمان شهادة.

* فإن قال قائل كما قال الفلاسفة: نحن نضع الزئبق على الميت، وهو أسرع الأشياء تحركاً ومروقاً، وإذا جئنا من الغد؛ وجدنا الزئبق على ما هو عليه، وأنتم تقولون: إن الملائكة يأتون ويجلسون هٰذا الرجل، والذي يجلس؛ كيف يبقى عليه الزئبق؟!

فنقول أيضاً كما قلنا سابقاً: هٰذا من عالم الغيب، وعلينا الإيمان والتصديق، ومن الجائز أيضاً أن الله عز وجل يرد هٰذا الزئبق إلى مكانه بعد أن تحول بالجلوس.

ونقول أيضاً: انظروا إلى الرجل في المنام؛ يرى أشياء لو

كان على حسب رؤيته إياها؛ ما بقي في فراشه على السرير، وأحياناً تكون رؤيا حق من الله عز وجل، فتقع كما كان يراها في منامه، ومع ذٰلك؛ نحن نؤمن بهٰذا الشيء.

والإنسان إذا رأى في منامه ما يكره؛ أصبح وهو متكدر، وإذا رأى ما يسره؛ أصبح وهو مستبشر؛ كل هٰذا يدل على أن أمور الروح ليست من الأمور المشاهدة، ولا تقاس أمور الغيب بالمشاهد، ولا ترد النصوص الصحيحة؛ لاستبعادنا ما تدل عليه حسب المشاهد.

* * *

فصل
في القيامة الكبرى

* قوله: «إِلى أَنْ تَقومَ القِيامَةُ الكُبْرى»:

الشرح:

* القيامة الكبرى هي التي يقوم فيها الناس من قبورهم لرب العالمين.

* وأفادنا المؤلف رحمه الله بقوله: «القيامة الكبرى»: أن هناك قيامة صغرى، وهي قيامة كل إنسان بعينه؛ فإن كل إنسان له قيامة؛ فمن مات؛ قامت قيامته.

* وسكت المؤلف رحمه الله عن أشراط الساعة؛ فلم يذكرها؛ لأن المؤلف إنما يريد أن يتكلم عن اليوم الآخر، وما أشراط الساعة إلا مجرد علامات وإنذارات لقرب قيام الساعة؛ ليستعد لها من يستعد.

وبعض أهل العلم الذين صنفوا في العقائد ذكروا أشراط

الساعة هنا، والحقيقة أنه لا تعلق لها في الإيمان باليوم الآخر، وإن كانت هي من الأمور الغيبية التي أشار الله إليها في القرآن وفصلها النبي ﷺ في السنة.

* * *

● **الأمر الأول مما يكون في القيامة:**

ما أشار إليه المؤلف بقوله: «**فَتُعادُ الأرْواحُ إلى الأجْسادِ**».

هٰذا أول الأمور:

* ويكون بعد النفخة الثانية في الصور، وذٰلك بعد أن فارقتها بالموت، وهٰذه غير الإعادة التي تكون في البرزخ حين سؤال الميت عن ربه ودينه ونبيه، وذٰلك أن الله يأمر إسرافيل فينفخ في الصور، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض؛ إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه مرة أخرى فتتطاير الأرواح من الصور إلى أجسادها، وتحل فيها.

* وفي قول المؤلف: «**إلى الأجساد**»: إشارة إلى أن الأرواح لا تخرج من الصور؛ إلا بعد أن تتكامل الأجساد مخلوقة؛ فإذا كملت خلقتها؛ نفخ في الصور، فأعيدت الأرواح إلى أجسادها.

* وفي قوله: «**تعاد الأرواح إلى الأجساد**»: دليل على أن البعث إعادة، وليس تجديداً، بل هو إعادة لما زال وتحول؛ فإن الجسد يتحول إلى تراب، والعظام تكون رميماً؛ يجمع الله تعالى هٰذا المتفرق، حتى يتكون الجسد، فتعاد الأرواح إلى أجسادها،

وأما من زعم بأن الأجساد تخلق من جديد؛ فإن هٰذا زعم باطل يرده الكتاب والسنة والعقل:

ـ أما الكتاب؛ فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]؛ أي: يعيد ذٰلك الخلق الذي ابتدأه.

وفي الحديث القدسي: «يقول الله تعالى: ليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته»[1]؛ فالكل على الله هين.

وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥ ـ ١٦].

وقال تعالى: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يسٓ: ٧٨ ـ ٧٩].

ـ وأما السنة؛ فهي كثيرة جدّاً في هٰذا؛ حيث بين النبي ﷺ «أن الناس يحشرون حفاة عراة غُرْلاً»[2]؛ فالناس هم الذين يحشرون، وليس سواهم.

---

(١) رواه البخاري (٤٩٧٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) لما رواه البخاري (٣٣٤٩ و ٣٤٤٧)، ومسلم (٢٨٦٠)؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بموعظة فقال: «يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً...».

فالمهم؛ أن البعث إعادة للأجساد السابقة.

* فإذا قلت: ربما يؤكل الإنسان من قبل السباع، ويتحول جسمه الذي أكله السبع إلى تغذية لهٰذا الآكل تختلط بدمه ولحمه وعظمه وتخرج في روثه وبوله؛ فما الجواب على ذٰلك؟

فالجواب: أن الأمر هين على الله؛ يقول: كن! فيكون، ويتخلص هٰذا الجسم الذي سيبعث من كل هٰذه الأشياء التي اختلط بها، وقدرة الله عز وجل فوق ما نتصوره؛ فالله على كل شيء قدير.

* * *

* قوله: «**وَتَقومُ القِيامَةُ التي أَخْبَرَ اللهُ بِها في كِتابِهِ وَعَلى لِسانِ رَسولِهِ وَأَجْمَعَ عَلَيْها المُسْلِمونَ**».

هذه ثلاثة أنواع من الأدلة: كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، وإجماع المسلمين.

ـ فأما كتاب الله تعالى؛ فقد أكد الله تعالى في كتابه هذه القيامة، وذكرها الله عز وجل بأوصاف عظيمة، توجب الخوف والاستعداد لها:

فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١ ـ ٢].

وقال تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۞ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ ـ ٣].

وقال تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۞ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۞ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۞ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ١ ـ ٥].

والأوصاف لها في القرآن كثيرة؛ كلها مروعة مخوفة؛ لأنها عظيمة، وإذا لم نؤمن بها؛ فلن نعمل لها؛ إذ لا يمكن للإنسان أن يعمل لهٰذا اليوم حتى يؤمن به وحتى يذكر له أوصافه التي توجب العمل لهٰذا اليوم.

ـ وأما السنة؛ فالأحاديث في ذكر القيامة كثيرة، بين الرسول عليه الصلاة والسلام بها ما يكون فيها؛ كما سيأتي إن شاء الله في ذكر الحوض والصراط والكتاب وغير ذٰلك مما بينه الرسول ﷺ.

ـ وأما الإجماع ـ وهو النوع الثالث ـ؛ فقد أجمع المسلمون إجماعاً قطعيّاً على الإيمان بيوم القيامة، ولهٰذا كان من أنكره؛ فهو كافر؛ إلا إذا كان غريباً عن الإسلام وجاهلاً؛ فإنه يعرَّف؛ فإن أصر على الإنكار بعد ذٰلك؛ فهو كافر.

ـ وهناك نوع رابع من الأدلة، وهو الكتب السماوية؛ حيث اتفقت على إثبات اليوم الآخر، ولهٰذا كان اليهود والنصارى يؤمنون بذٰلك، وحتى الآن يؤمنون به، ولهٰذا تسمعونهم يقولون: فلان المرحوم، أو: رحمه الله، أو: ما أشبه ذٰلك؛ مما يدل على أنهم يؤمنون باليوم الآخر إلى يومنا هٰذا.

ـ وثَمَّ نوع خامس، وهو العقل، ووجه ذٰلك أنه لو لم يكن هٰذا اليوم؛ لكان إيجاد الخلائق عبثاً، والله عز وجل منزه عن العبث؛ فما الحكمة من قوم يُخلقون ويُؤمرون ويُنهون ويُلزَمون بما يُلزَمون به ويُندَبون إلى ما يُندَبون إليه، ثم يموتون، ولا حساب، ولا عقاب؟!

ولهٰذا قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۞ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥ ـ ١١٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥].

كيف يُفرض القرآن ويُفرض العمل به؛ ثم لا يكون هناك معاد؛ نحاسب على ما نفذنا من هٰذا القرآن الذي فرض علينا؟!

فصارت أنواع الأدلة على ثبوت اليوم الآخر خمسة.

* * *

● **الأمر الثاني مما يكون في القيامة:**

ما أشار إليه بقوله: «**فَيَقومُ النَّاسُ مِنْ قُبورِهِمْ لِرَبِّ العالَمينَ حُفاةً عُراةً غُرْلاً**».

* قوله: «**من قبورهم**»: هٰذا بناء على الأغلب، وإلا؛ فقد يكون الإنسان غير مدفون.

* قوله: «**لرب العالمين**»؛ يعني: لأن الله عز وجل يناديهم.

قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤١ ـ ٤٢]؛ فيقومون لهٰذا النداء العظيم من قبورهم لربهم عز وجل.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ ـ ٦].

* قوله: «**حُفاةً عُراةً غُرْلاً**»: «**حفاة**»: ليس عليهم نعال ولا خفاف؛ يعني: أنه ليس عليهم لباس للرجل.

* «**عراة**»: ليس عليهم لباس للجسد.

* «**غرلاً**»: لم ينقص من خلقهم شيء، والغرل: جمع أغرل، وهو الذي لم يختن؛ أي أن القلفة التي قطعت منه في الدنيا تعود يوم القيامة؛ لأن الله يقول: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]؛ فيعاد كاملاً، لم ينقص منه شيء؛ يعودون على هٰذا الوصف مختلطين رجالاً ونساء.

ولما حدث النبي عليه الصلاة والسلام بذٰلك؛ قالت عائشة: يا رسول الله! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟! فقال: «الأمر أشد من أن يُهِمَّهُم ذٰلك» (وفي رواية: من أن ينظر بعضهم إلى بعض)[1].

فكل إنسان له شأن يغنيه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ

---

(١) رواه البخاري (٦٥٢٧)، والرواية الأخرى عند مسلم (٢٨٥٩)، عن عائشة رضي الله عنها.

﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۞ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧]. لا رجل ينظر إلى امرأة، ولا امرأة تنظر إلى رجل، حتى إن ابنه أو أباه يفر منه؛ خوفاً من أن يطالبه بحقوق له، وإذا كان هذا هو الواقع؛ فإنه لا يمكن أن تنظر المرأة إلى الرجل، ولا الرجل إلى المرأة؛ الأمر أشد وأعظم.

ولكن؛ مع ذٰلك؛ يكسون بعد هٰذا، وأول من يكسى إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ كما ثبت ذٰلك عن النبي ﷺ[(١)].

* * *

● **الأمر الثالث مما يكون يوم القيامة:**

ما أشار إليه بقوله: «**وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ**».

* «**تدنو**»: أي: تقرب منهم الشمس، وتقرب منهم مقدار ميل.

وهٰذا الميل سواء كان المسافة أو ميل المكحلة؛ فإنها قريبة، وإذا كانت هٰذه حرارتها في الدنيا، وبيننا وبينها من البعد شيء عظيم؛ فكيف إذا كانت عن الرؤوس بمقدار ميل[(٢)]؟!

---

(١) رواه: البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠)؛ عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) كما جاء في صحيح مسلم (٢٨٦٤)، من حديث المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق =

* قد يقول قائل: المعروف الآن أن الشمس لو تدنو بمقدار شعرة عن مستوى خطها؛ لأحرقت الأرض؛ فكيف يمكن أن تكون في ذلك اليوم بهذا المقدار من البعد، ثم لا تحرق الخلق؟

فالجواب على ذلك: أن الناس يحشرون يوم القيامة؛ ليسوا على القوة التي هم عليها الآن، بل هم أقوى وأعظم وأشد تحملاً.

لو أن الناس الآن وقفوا خمسين يوماً في شمس لا ظل ولا أكل ولا شرب؛ فلا يمكنهم ذلك، بل يموتون! لكن يوم القيامة يبقون خمسين ألف سنة؛ لا أكل ولا شرب ولا ظل؛ إلا من أظله الله عز وجل، ومع ذلك؛ يشاهدون أهوالاً عظيمة؛ فيتحملون.

واعتبر بأهل النار؛ كيف يتحملون هذا التحمل العظيم؛ ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦].

وبأهل الجنة؛ ينظر الإنسان إلى ملكه مسيرة ألف عام إلى أقصاه؛ كما ينظر إلى أدناه؛ كما روي ذلك عن النبي ﷺ[1].

* فإن قيل: هل أحد يسلم من الشمس؟

فالجواب: نعم! هناك أناس يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله؛ كما أخبر بذلك النبي ﷺ: «إمام عادل، وشاب نشأ في طاعة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله

= إلجاماً»، قال: وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه».

(١) رواه أحمد (٢/ ٦٤)، والترمذي (٢٥٥٣)، والحاكم (٢/ ٥٠٩)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (١٩٨٥).

اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً؛ ففاضت عيناه»[1].

وهناك أيضاً أصناف أخرى يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

* وقوله: «لا ظل إلا ظله»؛ يعني: إلا الظل الذي يخلقه، وليس كما توهم بعض الناس أنه ظل ذات الرب عز وجل؛ فإن هٰذا باطل؛ لأنه يستلزم أن تكون الشمس حينئذ فوق الله عز وجل.

ففي الدنيا؛ نحن نبني الظل لنا، لٰكن يوم القيامة؛ لا ظل إلا الظل الذي يخلقه سبحانه وتعالى ليستظل به من شاء من عباده.

● **الأمر الرابع مما يكون يوم القيامة:**

ما ذكره المؤلف رحمه الله بقوله: «**وَيُلْجِمْهُمُ العَرَقُ**».

* «**يلجمهم**»؛ أي: يصل منهم إلى موضع اللجام من الفرس، وهو الفم.

* ولٰكن هٰذا غاية ما يصل إليه العرق، وإلا؛ فبعضهم يصل العرق إلى كعبيه، وإلى ركبتيه، وإلى حقويه، ومنهم من يلجمه؛ فهم يختلفون في هٰذا العرق، ويعرقون من شدة الحر؛ لأن المقام

---

(١) رواه: البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

مقام زحام وشدة ودنو شمس؛ فيعرق الإنسان مما يحصل في ذٰلك اليوم؛ لٰكنهم على حسب أعمالهم[1].

* فإن قلت: كيف يكون ذٰلك وهم في مكان واحد؟

فالجواب: أننا أصلنا قاعدة يجب الرجوع إليها، وهي: أن الأمور الغيبية يجب علينا أن نؤمن بها ونصدق دون أن نقول: كيف؟! ولِمَ؟! لأنها شيء وراء عقولنا، ولا يمكن أن ندركها أو نحيط بها.

أرأيت لو أن رجلين دُفِنا في قبر واحد: أحدهما مؤمن، والثاني: كافر؛ فإنه ينال المؤمن من النعيم ما يستحق، وينال الكافر من العذاب ما يستحق، وهما في قبر واحد، وهٰكذا نقول في العرق يوم القيامة.

* فإن قلت: هل تقول: إن الله سبحانه وتعالى يجمع من يلجمهم العرق في مكان، ومن يصل إلى كعبيه في مكان، وإلى ركبتيه في مكان، وإلى حقويه في مكان؟

فالجواب: لا نجزم بهٰذا، والله أعلم، بل نقول: من الجائز أن يكون الذي يصل العرق إلى كعبه إلى جانب الذي يلجمه العرق، والله على كل شيء قدير، وهٰذا نظير النور الذي يكون للمؤمنين؛ يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، والكفار في ظلمة؛ فيوم القيامة يجب علينا أن نؤمن به وبما يكون فيه، أما كيف؟! ولِمَ؟!

---

(١) انظر: (٢/ ١٣٤).

فهٰذا ليس إلينا.

* * *

● **الأمر الخامس مما يكون يوم القيامة:**

ما ذكره بقوله: «**فتُنْصَبُ المَوازينُ فَتُوزَنُ بِها أعْمالُ العِبادِ**».

* الذي ينصب الموازين هو الله عز وجل؛ لتوزن بها أعمال العباد.

* والمؤلف يقول: «الموازين»: بالجمع، وقد وردت النصوص بالجمع والإفراد:

ـ فمثال الجمع: قول الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ [الأعراف: ٨ ـ ٩].

ـ وأما الإفراد؛ فقال النبي ﷺ: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمٰن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[١].

فقال: «في الميزان»؛ فأفرد؛

فكيف نجمع بين الآيات القرآنية وبين هٰذا الحديث؟!

فالجواب أن نقول:

---

(١) رواه: البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

إنها جمعت باعتبار الموزون؛ حيث إنه متعدد، وأفردت باعتبار أن الميزان واحد، أو ميزان كل أمة.

أو أن المراد بالميزان في قوله عليه الصلاة والسلام: «ثقيلتان في الميزان»؛ أي: في الوزن.

ولٰكن الذي يظهر ـ والله أعلم ـ أن الميزان واحد، وأنه جمع باعتبار الموزون؛ بدليل قوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨].

لكن يتوقف الإنسان: هل يكون ميزاناً واحداً لجميع الأمم أو لكل أمة ميزان؛ لأن الأمم كما دلت عليه النصوص تختلف باعتبار أجرها؟!

* وقوله: «**تنصب الموازين**»: ظاهره أنها موازين حسية، وأن الوزن يكون على حسب المعهود بالراجح والمرجوح، وذٰلك لأن الأصل في الكلمات الواردة في الكتاب والسنة حملها على المعهود المعروف؛ إلا إذا قام دليل على أنها خلاف ذلك، والمعهود المعروف عند المخاطبين منذ نزول القرآن الكريم إلى اليوم أن الميزان حسي، وأن هناك راجحاً ومرجوحاً.

وخالف في ذٰلك جماعة:

ـ فالمعتزلة قالوا: إنه ليس هناك ميزان حسي، ولا حاجة له؛ لأن الله تعالى قد علم أعمال العباد وأحصاها، ولٰكن المراد بالميزان: الميزان المعنوي الذي هو العدل.

ولا شك أن قول المعتزلة باطل؛ لأنه مخالف لظاهر اللفظ وإجماع السلف، ولأننا إذا قلنا: إن المراد بالميزان: العدل؛ فلا حاجة إلى أن نعبر بالميزان، بل نعبر بالعدل؛ لأنه أحب إلى النفس من كلمة (ميزان)، ولهٰذا قال الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠].

ـ وقال بعض العلماء: إن الرجحان للعالي؛ لأنه يحصل فيه العلو، لٰكن الصواب أن نجري الوزن على ظاهره، ونقول: إن الراجح هو الذي ينزل، ويدل لذٰلك حديث صاحب البطاقة؛ فإن فيه أن السجلات تطيش وتثقل البطاقة، وهٰذا واضح؛ بأن الرجحان يكون بالنزول.

* وقوله: «**فتوزن بها أعمال العباد**»: كلام المؤلف رحمه الله صريح بأن الذي يوزن: العمل.

* وهنا مبحثان:

المبحث الأول: كيف يوزن العمل؛ والعمل وصف قائم بالعامل، وليس جسماً فيوزن؟!

والجواب على ذٰلك: أن يقال: إن الله سبحانه وتعالى يجعل هٰذه الأعمال أجساماً، وليس هٰذا بغريب على قدرة الله عز وجل، وله نظير، وهو الموت؛ فإنه يجعل على صورة كبش، ويذبح بين الجنة والنار[1]، مع أن الموت معنى، وليس بجسم، وليس الذي

---

(١) كما جاء في «صحيح البخاري» (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩)؛ عن أبي سعيد =

يذبح ملك الموت، ولٰكنه نفس الموت؛ حيث يجعله الله تعالى جسماً يشاهد ويرى، كذٰلك الأعمال يجعلها الله عز وجل أجساماً توزن بهٰذا الميزان الحسي.

المبحث الثاني: صريح كلام المؤلف أن الذي يوزن العمل؛ سواء كان خيراً أم شرّاً:

وهٰذا هو ظاهر القرآن؛ كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٦ ـ ٨]؛ فهٰذا واضح أن الذي يوزن العمل؛ سواء كان خيراً أم شرّاً.

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان»[1]، وهٰذا ظاهر أيضاً، بل صريح، في أن الذي يوزن العمل، والنصوص في هٰذا كثيرة.

ولٰكن هناك نصوص قد يخالف ظاهرها هٰذا الحديث:

ـ منها حديث صاحب البطاقة؛ رجل يؤتى به على رؤوس الخلائق، وتعرض عليه أعماله في سجلات تبلغ تسعة وتسعين سجلاً؛ كل سجل منها يبلغ مد البصر، فيقر بها، فيقال له: ألك عذر أو حسنة؟ فيقول: لا؛ يا رب! فيقول الله: بلى؛ إن لك

= الخدري رضي الله عنه.

(١) تقدم تخريجه (٢/١٣٨)، وهو في «الصحيحين».

عندنا حسنة. فيؤتى ببطاقة صغيرة، فيها: أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فيقول: يا رب! ما هٰذه البطاقة مع هٰذه السجلات؟! فيقال: إنك لا تظلم. قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة... الحديث[1].

وظاهر هٰذا أن الذي يوزن صحائف الأعمال.

ـ وهناك نصوص أخرى تدل على أن الذي يوزن العامل؛ مثل:

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾ [الكهف: ١٠٥]؛ مع أنه قد ينازع في الاستدلال بهٰذه الآية؛ فيقال: إن معنى قوله: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾؛ يعني: قدراً.

ومثل ما ثبت من حديث ابن مسعود رضي الله عنه؛ أنه كان يجتني سواكاً من الأراك، وكان رضي الله عنه دقيق الساقين، جعلت الريح تحركه، فضحك الصحابة رضي الله عنهم، فقال النبي ﷺ: «مم تضحكون؟». قالوا: من دقة ساقيه. قال: «والذي

---

(١) رواه: أحمد (٢/٢١٣)، والترمذي (٢٦٣٩) وحسنه، وابن ماجه (٤٣٠٠)، والحاكم في «المستدرك» (١/٥٢٩) وقال: صحيح الإسناد على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٥)، وللحافظ حمزة الكناني «جُزء البطاقة».

نفسي بيده؛ لهما في الميزان أثقل من أحد»[1].

فصار ها هنا ثلاثة أشياء: العمل، والعامل، والصحائف.

ـ فقال بعض العلماء: إن الجمع بينها أن يقال: إن من الناس من يوزن عمله، ومن الناس من يوزن صحائف عمله، ومن الناس من يوزن هو بنفسه.

ـ وقال بعض العلماء: الجمع بينها أن يقال: إن المراد بوزن العمل أن العمل يوزن وهو في الصحائف، ويبقى وزن صاحب العمل، فيكون لبعض الناس.

ـ ولٰكن عند التأمل نجد أن أكثر النصوص تدل على أن الذي يوزن هو العمل، ويخص بعض الناس، فتوزن صحائف أعماله، أو يوزن هو نفسه.

وأما ما ورد في حديث ابن مسعود وحديث صاحب البطاقة؛ فقد يكون هٰذا أمراً يخص الله به من يشاء من عباده.

* * *

* قوله: «﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ **[المؤمنون: ١٠٢]**»:

---

(١) رواه أحمد (١/ ٤٢١)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٨٩): «رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني من طرق وأمثل طرقها فيه عاصم بن أبي النجود، وهو حسن الحديث على ضعفه، وبقية رجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح».

* ﴿فَمَنْ﴾: شرطية.

* وجواب الشرط جملة: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

وأتت الجملة الجزائية جملة اسمية بصفة الحصر ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، والجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار.

وجاءت باسم الإشارة الدال على البعد ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾، ولم يقل: فهم المفلحون. إشارة إلى علو مرتبتهم.

وجاءت بصفة الحصر في قوله: ﴿هُمُ﴾، وهو ضمير فصل يفيد الحصر والتوكيد، والفصل بين الخبر والصفة.

* والمفلح: هو الذي فاز بمطلوبه ونجا من مرهوبه؛ فحصل له السلامة مما يكره، وحصل له ما يحب.

* والمراد بثقل الموازين رجحان الحسنات على السيئات.

* وقوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: فيه إشكال من جهة العربية؛ فإن ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾ الضمير فيه مفرد، و ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الضمير فيه جمع!!

وجوابه أن (من) الشرطية صالحة للإفراد والجمع؛ فباعتبار اللفظ يعود الضمير إليها مفرداً، وباعتبار المعنى يعود الضمير إليها جمعاً.

وكلما جاءت (من)؛ فإنه يجوز أن تعيد الضمير إليها بالإفراد أو بالجمع، وهٰذا كثير في القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ

رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١]؛ فتجد الآية الكريمة فيها مراعاة اللفظ ثم المعنى ثم اللفظ.

* قوله: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣].

* والإشارة هنا للبعد؛ لانحطاط مرتبتهم، لا لعلو مرتبتهم.

* وقوله: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾: الكافر قد خسر نفسه وأهله وماله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ١٥]، بينما المؤمن العامل للصالحات قد ربح نفسه وأهله وماله وانتفع به.

فهٰؤلاء الكفار خسروا أنفسهم؛ لأنهم لم يستفيدوا من وجودهم في الدنيا شيئاً، بل ما استفادوا إلا الضرر، وخسروا أموالهم؛ لأنهم لم ينتفعوا بها، حتى ما أعطوه للخلق لينتفع به؛ فإنه لا ينفعهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤]، وخسروا أهليهم؛ لأنهم في النار؛ فصاحب النار لا يأنس بأهله، بل إنه مغلق عليه في تابوت، ولا يرى أن أحداً أشد منه عذاباً.

* والمراد بخفة الموازين: رجحان السيئات على الحسنات، أو فقدان الحسنات بالكلية، إن قلنا بأن الكفار توزن أعمالهم؛ كما هو ظاهر هٰذه الآية الكريمة وأمثالها، وهو أحد القولين لأهل العلم.

والقول الثاني: أن الكفار لا توزن أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٥].

والله أعلم.

* * *

● **الأمر السادس مما يكون يوم القيامة:**

وهو ما ذكره المؤلف بقوله: «**وَتُنْشَرُ الدَّوَاوِينُ**».

* «**تنشر**»؛ أي: تفرق وتفتح لقارئها.

* «**والدواوين**»: جمع ديوان، وهو السجل الذي تكتب فيه الأعمال، ومنه دواوين بيت المال، وما أشبه ذٰلك.

* قال: «**وهي صحائف الأعمال**»؛ يعني: التي كتبتها الملائكة الموكلون بأعمال بني آدم؛ قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ٩ ـ ١٢].

فيكتب هٰذا العمل، ويكون لازماً للإنسان في عنقه؛ فإذا كان يوم القيامة؛ أخرج الله هذا الكتاب.

قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا * ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣ ـ ١٤].

قال بعض السلف: لقد أنصفك من جعلك حسيباً على نفسك.

* والكتابة في صحائف الأعمال: إما للحسنات، وإما للسيئات، والذي يكتب من الحسنات ما عمله الإنسان، وما نواه، وما هم به؛ فهٰذه ثلاثة أشياء:

ـ فأما ما عمله؛ فظاهر أنه يكتب.

ـ وأما ما نواه؛ فإنه يكتب له، لٰكن يكتب له أجر النية فقط كاملاً؛ كما في الحديث الصحيح في قصة الرجل الذي كان له مال ينفقه في سبل الخير، فقال الرجل الفقير: لو أن عندي مالاً؛ لعملت فيه بعمل فلان؛ قال النبي ﷺ: «فهو بنيته؛ فأجرهما سواء»[1].

ويدل على أنهما ليسا سواء في الأجر من حيث العمل: أن فقراء المهاجرين لما أتوا إلى النبي ﷺ وقالوا: يا رسول الله! إن أهل الدثور سبقونا. فقال لهم ﷺ: تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين... فلما سمع الأغنياء بذٰلك؛ فعلوا مثله، فرجع الفقراء يشكون إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فقال لهم: «ذٰلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[2]، ولم يقل: إنكم بنيتكم

---

(١) قطعة من الحديث الذي رواه أحمد (٤/ ٢٣٠)، والترمذي (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٢٢٨) عن أبي كبشة الأنماري. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠٢٤).

(٢) رواه البخاري (٨٤٣)، ومسلم (٥٩٥)؛ عن حديث أبي هريرة.

أدركتم عملهم.

ولأن هٰذا هو العدل؛ فرجل لم يعمل لا يكون كالذي عمل، لٰكن يكون مثله في أجر النية فقط.

ـ وأما الهم؛ فينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يهم بالشيء ويفعل ما يقدر عليه منه، ثم يحال بينه وبين إكماله.

فهٰذا يكتب له الأجر كاملاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

وهٰذه بشرى لطلبة العلم: إذا نوى الإنسان أنه يطلب العلم وهو يريد أن ينفع الناس بعلمه ويذب عن سنة الرسول ﷺ وينشر دين الله في الأرض، ثم لم يقدر له ذٰلك؛ بأن مات مثلاً وهو في طلبه؛ فإنه يكتب له أجر ما نواه وسعى إليه.

بل إن الإنسان إذا كان من عادته العمل، وحيل بينه وبينه لسبب؛ فإنه يكتب له أجره.

قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا مرض العبد أو سافر؛ كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً»[1].

القسم الثاني: أن يهم بالشيء ويتركه مع القدرة عليه؛ فيكتب له به حسنة كاملة؛ لنيته.

---

(١) رواه البخاري (٢٩٩٦)، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

وأما السيئات؛ فإنه يكتب على الإنسان ما عمله، ويكتب عليه ما أراده وسعى فيه ولٰكن عجز عنه، ويكتب عليه ما نواه وتمناه.

فالأول: واضح.

والثاني: يكتب عليه كاملاً؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما؛ فالقاتل والمقتول في النار». قالوا: يا رسول الله! هٰذا القاتل؛ فما بال المقتول؟! قال: «لأنه كان حريصاً على قتل صاحبه»[1]، ومثله من هم أن يشرب الخمر، ولٰكن حصل له مانع؛ فهٰذا يكتب عليه الوزر كاملاً؛ لأنه سعى فيه.

والثالث: الذي نواه وتمناه يكتب عليه، لٰكن بالنية، ومنه الحديث الذي أخبر النبي عليه الصلاة والسلام عن رجل أعطاه الله مالاً؛ فكان يتخبط فيه، فقال رجل فقير: لو أن لي مالاً؛ لعملت فيه بعمل فلان. قال النبي عليه الصلاة والسلام: «فهو بنيته؛ فوزرهما سواء»[2].

ولو هم بالسيئة، ولٰكن تركها؛ فهٰذا على ثلاثة أقسام:

١ ـ إن تركها عجزاً؛ فهو كالعامل إذا سعى فيها.

٢ ـ وإن تركها لله؛ كان مأجوراً.

---

(١) رواه: البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨)؛ عن أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه (٢/١٤٧).

٣ ـ وإن تركها لأن نفسه عزفت عنها، أو لم تطرأ على باله؛ فهٰذا لا إثم عليه ولا أجر.

والله عز وجل يجزي بالحسنات أكثر من العمل، ولا يجزي بالسيئات إلا مثل العمل؛ قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وهٰذا من كرمه عز وجل ومن كون رحمته سبقت غضبه.

* قوله: «**فَآخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ**»: «**آخذ**»: مبتدأ، وخبره محذوف، والتقدير: فمنهم آخذ.

وجاز الابتداء به وهو نكرة؛ لأنه في مقام التفصيل؛ أي أن الناس ينقسمون؛ فمنهم من يأخذ كتابه بيمينه، وهم المؤمنون، وهٰذا إشارة إلى أن لليمنى الإكرام، ولذٰلك يأخذ المؤمن كتابه بها، والكافر يأخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره؛ كما قال المؤلف: «**وآخذ كتابه بشماله**».

* وقوله: «**أو من وراء ظهره**»: «**أو**» للتنويع، وليست للشك.

فظاهر كلام المؤلف أن الناس يأخذون كتبهم على ثلاثة أوجه: باليمين، وبالشمال، ومن وراء الظهر.

ولٰكن الظاهر أن هٰذا الاختلاف اختلاف صفات؛ فالذي يأخذ كتابه من وراء ظهره هو الذي يأخذ كتابه بشماله؛ فيأخذ بالشمال، وتجعل يده من الخلف؛ فكونه يأخذه بالشمال؛ لأنه من أهل

الشمال، وكونه من وراء ظهره؛ لأنه لما استدبر كتاب الله، وولّى ظهره إياه في الدنيا؛ صار من العدل أن يجعل كتاب أعماله يوم القيامة خلف ظهره؛ فعلى هٰذا؛ تخلع اليد الشمال حتى تكون من الخلف. والله أعلم.

* قوله: «**كما قال سبحانه وتعالى**: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۞ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ **[الإسراء: ١٣ ـ ١٤]**»:

* ﴿طَٰٓئِرَهُۥ﴾؛ أي: عمله؛ لأن الإنسان يتشاءم به أو يتفاءل به، ولأن الإنسان يطير به فيعلو أو يطير به فينزل.

* ﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾؛ أي: رقبته، وهٰذا أقوى ما يكون تعلقاً بالإنسان؛ حيث يربط في العنق؛ لأنه لا يمكن أن ينفصل إلا إذا هلك الإنسان؛ فهٰذا يلزم عمله.

* وإذا كان يوم القيامة؛ كان الأمر كما قال الله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾؛ أي: مفتوحاً؛ لا يحتاج إلى تعب ولا إلى مشقة في فتحه.

* ويقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ وانظر ما كتب عليك فيه.

* ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾: وهٰذا من تمام العدل والإنصاف: أن يوكل الحساب إلى الإنسان نفسه.

والإنسان العاقل لا بد أن ينظر ماذا كتب في هٰذا الكتاب الذي سوف يجده يوم القيامة مكتوباً.

ولٰكن؛ نحن أمامنا باب يمكن أن يقضي على كل السيئات، وهو التوبة، وإذا تاب العبد إلى الله؛ مهما عظم ذنبه؛ فإن الله يتوب عليه، وحتى لو تكرر الذنب منه، وهو يتوب؛ فإن الله يتوب عليه؛ فما دام الأمر بأيدينا الآن؛ فعلينا أن نحرص على أن لا يكتب في هٰذا الكتاب إلا العمل الصالح.

* * *

● **الأمر السابع مما يكون يوم القيامة:**

وهو ما ذكره المؤلف بقوله: «**وَيُحاسِبُ اللهُ الخَلائِقَ**»:

* المحاسبة: إطلاع العباد على أعمالهم يوم القيامة.

وقد دل عليه الكتاب والسنة والإجماع والعقل:

ـ أما الكتاب؛ فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧ ـ ٨]، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ١٠ ـ ١٢].

ـ وأما السنة؛ فقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام بعدة أحاديث أن الله تعالى يحاسب الخلائق.

ـ وأما الإجماع؛ فإنه متفق عليه بين الأمة: أن الله تعالى يحاسب الخلائق.

ـ وأما العقل؛ فواضح؛ لأننا كلفنا بعمل فعلاً وتركاً وتصديقاً، والعقل والحكمة تقتضيان أن من كلف بعمل؛ فإنه يحاسب عليه ويناقش فيه.

* وقول المؤلف: «**الخلائق**»: جمع خليقة؛ يشمل كل مخلوق.

إلا أنه يستثنى من ذٰلك من يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب؛ كما ثبت ذٰلك في «الصحيحين»: أن النبي ﷺ رأى أمته ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، وهم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون[1].

وقد روى الإمام أحمد بسند جيد: أن مع كل واحد سبعين ألفاً[2].

فتضرب سبعين ألفاً بسبعين ألفاً، ويزاد سبعون ألفاً. هٰؤلاء كلهم يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب.

* وقوله: «**الخلائق**»: يشمل أيضاً الجن؛ لأنهم مكلفون، ولهٰذا يدخل كافرهم النار بالنص والإجماع؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ

---

(١) رواه البخاري (٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠)؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه الإمام أحمد (١/ ٥ و ١٩٦) عن أبي بكر وابنه عبد الرحمن، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٤١٠ ـ ٤١١): رواه أحمد والبزار بنحوه، والطبراني بنحوه، وفي أسانيدهم القاسم بن مهران عن موسى بن عبيد، وموسى بن عبيد هذا هو مولى خالد بن عبد الله بن أسيد، ذكره ابن حبان في «الثقات»، والقاسم بن مهران ذكره الذهبي في «الميزان»، وأنه لم يرو عنه إلاّ سليم بن عمرو النخعي، وليس كذلك، فقد روى عنه هذا الحديث هشام بن حسان، وباقي إسناده محتج بهم في «الصحيح».

﴿ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ﴾ [الأعراف: ٣٨]، ويدخل مؤمنهم الجنة على قول جمهور أهل العلم، وهو الصحيح؛ كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ...﴾ إلى قوله: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ [الرحمن: ٤٦ ـ ٥٦].

* وهل تشمل المحاسبة البهائم؟!

أما القصاص؛ فيشمل البهائم؛ لأنه ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام «أنه يقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»[(١)]، وهٰذا قصاص، لٰكنها لا تحاسب حساب تكليف وإلزام؛ لأن البهائم ليس لها ثواب ولا عقاب.

* * *

* قوله: «**وَيَخْلو بِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنوبِهِ**»:

* هٰذا صفة حساب المؤمن:

يخلو به الله عز وجل دون أن يطلع عليه أحد، ويقرره بذنوبه؛ أي: يقول له: عملت كذا، وعملت كذا... حتى يقر ويعترف، ثم يقول: «سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»[(٢)].

ومع ذٰلك؛ فإنه سبحانه وتعالى يضع عليه ستره؛ بحيث لا يراه أحد، ولا يسمعه أحد، وهٰذا من فضل الله عز وجل على

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٢٥٣).

المؤمن؛ فإن الإنسان إذا قررك بجناياتك أمام الناس وإن سمح عنك؛ ففيه شيء من الفضيحة، لٰكن إذا كان ذٰلك وحدك؛ فإن ذٰلك ستر منه عليك.

* قوله: **«كما وصف ذلك في الكتاب والسنة»**:

* **«ذٰلك»**: المشار إليه الحساب؛ يعني: كما وصف الحساب في الكتاب والسنة، لأن هذا من الأمور الغيبية المتوقفة على الخبر المحض، فوجب الرجوع فيه إلى ما وصف في الكتاب والسنة.

* * *

* قوله: **«وأما الكفار؛ فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته؛ فإنهم لا حسنات لهم، ولٰكن تعد أعمالهم فتحصى فيوقفون عليها ويقررون بها ويخزون بها»**.

* هٰكذا جاء معناه في حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حينما ذكر حساب الله تعالى لعبده المؤمن، وأنه يخلو به، ويقرره بذنوبه. قال: «وأما الكفار والمنافقون؛ فينادى بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين». متفق عليه[١].

وفي «صحيح مسلم»[٢]، عن أبي هريرة رضي الله عنه، في

---

(١) تقدم تخريجه في الجزء الأول.

(٢) «صحيح مسلم» (٢٩٦٨).

حديث طويل عن النبي ﷺ قال: فيلقى العبد، أي: يلقى الله العبد، يعني: المنافق، فيقول: يا فل، أي: يا فلان، ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟! فيقول: بلى، قال: فيقول: أظننت أنك ملاقيّ؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثاني فيسأله فيجيب كما أجاب الأول، فيقول الله: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك، فيقول: يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع، فيقول: ههنا إذن، قال: ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك، ويفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليّ؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي، فتنطق بعمله، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه.

(تنبيه):

في قول المؤلف رحمه الله محاسبة من توزن حسناته وسيئاته ... الخ، إشارة إلى أن المراد بالمحاسبة المنفية عنهم هي محاسبة الموازنة بين الحسنات والسيئات، وأما محاسبة التقرير والتقريع فثابتة كما يدل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فائدة:

أول ما يحاسب عليه العبد من الأعمال الصلاة، وأول ما يقضى فيه بين الناس الدماء؛ لأن الصلاة أفضل العبادات البدنية، والدماء أعظم ما يعتدى به في حقوق الآدميين.

● **الأمر الثامن مما يكون يوم القيامة:**

وهو ما ذكره المؤلف بقوله: «**وَفي عَرَصاتِ القِيامَةِ الحَوْضُ المَوْرودُ لِلنَّبِيِّ ﷺ**».

* **العرَصات**: جمع عرْصة، وهي المكان المتسع بين البنيان، والمراد به هنا مواقف القيامة.

* والحوض في الأصل: مجمع الماء، والمراد به هنا: حوض النبي ﷺ.

* والكلام على الحوض من عدة وجوه:

أولاً: هٰذا الحوض موجود الآن؛ لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه خطب ذات يوم في أصحابه، وقال: «وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن»[١].

وأيضاً؛ ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام؛ أنه قال: «ومنبري على حوضي»[٢].

وهٰذا يحتمل أنه في هٰذا المكان، لٰكن لا نشاهده؛ لأنه غيبي، ويحتمل أن المنبر يوضع يوم القيامة على الحوض.

ثانياً: هٰذا الحوض يصب فيه ميزابان من الكوثر، وهو النهر العظيم، الذي أعطيه النبي ﷺ في الجنة؛ ينزلان إلى هٰذا

---

(١) رواه البخاري (٦٥٩٠)، ومسلم (٢٢٩٦)؛ عن عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٢) البخاري (٦٥٨٩)، ومسلم (١٣٩١)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الحوض[1].

ثالثاً: زمن الحوض قبل العبور على الصراط؛ لأن المقام يقتضي ذٰلك؛ حيث إن الناس في حاجة إلى الشرب في عرصات القيامة قبل عبور الصراط[2].

رابعاً: يرد هٰذا الحوض المؤمنون بالله ورسوله ﷺ، المتبعون لشريعته، وأما من استنكف واستكبر عن اتباع الشريعة؛ فإنه يطرد منه[3].

خامساً: في كيفية مائه: فيقول المؤلف رحمه الله: «ماؤه أشد بياضاً من اللبن»: هٰذا في اللون، أما في الطعم؛ فقال: «وأحلى من العسل»، وفي الرائحة أطيب من ريح المسك؛ كما ثبت به الحديث عن النبي ﷺ[4].

سادساً: في آنيته: يقول المؤلف: «آنيته عدد نجوم السماء».

هٰذا كما ورد في بعض ألفاظ الحديث، وفي بعضها: «آنيته

---

(١) لما رواه مسلم (٢٣٠٠ و ٢٣٠١)؛ من حديث أبي ذر وثوبان رضي الله عنهما.

(٢) لما رواه عبدالله بن الإمام أحمد في زياداته على المسند (١٣/٤) في الحديث الطويل عن أبي رزين. وقال الحافظ في الفتح (٤٦٧/١١) بعد أن عزاه لابن أبي عاصم في السنة والطبراني والحاكم قال: «وهو صريح في أن الحوض قبل الصراط».

(٣) ثبت ذلك في «صحيح البخاري» (٦٥٧٦)، ومسلم (٢٢٩٧)، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «أنا فرطكم على الحوض، وليرفعن رجالٌ منكم ثم ليختلجن دوني، فأقول: يا رب أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك».

(٤) رواه: البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢)؛ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

كنجوم السماء»، وهٰذا اللفظ أشمل؛ لأنه يكون كالنجوم في العدد وفي الوصف بالنور واللمعان؛ فآنيته كنجوم السماء كثرة وإضاءة.

سابعاً: آثار هٰذا الحوض: قال المؤلف: «من يشرب منه شربة؛ لا يظمأ بعدها أبداً»: حتى على الصراط وبعده.

وهٰذه من حكمة الله عز وجل؛ لأن الذي يشرب من الشريعة في الدنيا لا يخسر أبداً كذٰلك.

ثامناً: مساحة هٰذا الحوض: يقول المؤلف: «طوله شهر وعرضه شهر»: هٰذا إذاً يقتضي أن يكون مدوراً؛ لأنه لا يكون بهٰذه المساحة من كل جانب؛ إلا إذا كان مدوراً، وهٰذه المسافة باعتبار ما هو معلوم في عهد النبي ﷺ من سير الإبل المعتاد.

تاسعاً: هل للأنبياء الآخرين أحواضٌ؟

فالجواب: نعم؛ فإنه جاء في حديث رواه الترمذي ـ وإن كان فيه مقال ـ:

«إن لكل نبي حوضاً»[1].

لٰكن هٰذا يؤيده المعنى، وهو أن الله عز وجل بحكمته وعدله

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٤٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٧٣٤)، والحديث أورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/٣٦٣) بلفظ آخر، وقال: وفيه مروان بن جعفر السميري وثقه ابن أبي حاتم، وقال الأزدي: يتكلمون فيه، وبقية رجاله ثقات. وقال الألباني في «الصحيحة» (١٥٨٩): وجملة القول: إن الحديث بمجموع طرقه حسن أو صحيح، والله أعلم. وانظر: «فتح الباري» (١١/٤٦٧).

كما جعل للنبي محمد ﷺ حوضاً يرده المؤمنون من أمته؛ كذٰلك يجعل لكل نبي حوضاً، حتى ينتفع المؤمنون بالأنبياء السابقين، لٰكن الحوض الأعظم هو حوض النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

* * *

● **الأمر التاسع مما يكون يوم القيامة: الصراط:**

وقد ذكره المؤلف بقوله: «**وَالصِّراطُ مَنْصوبٌ عَلى مَتْنِ جَهَنَّمَ، وَهُوَ الجِسْرُ الذي بين الجنة والنار**».

* وقد اختلف العلماء في كيفيته:

ـ فمنهم من قال: طريق واسع يمر الناس عليه على قدر أعمالهم؛ لأن كلمة الصراط مدلولها اللغوي هو هٰذا؛ ولأن رسول الله ﷺ أخبر بأنه دَحْض ومَزِلة[1]، والدحض والمزلة لا يكونان إلا في طريق واسع، أما الضيق؛ فلا يكون دحضاً ومزلة.

ـ ومن العلماء من قال: بل هو صراط دقيق جدّاً؛ كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري الذي رواه مسلم بلاغاً[2]؛ أنه أدق من الشعر، وأحد من السيف.

* على هٰذا يرد سؤال: وهو: كيف يمكن العبور على طريق كهٰذا؟

---

(١) زواه: البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣)؛ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (١٨٣).

والجواب: أن أمور الآخرة لا تقاس بأمور الدنيا؛ فالله تعالى على كل شيء قدير، ولا ندري؛ كيف يعبرون؟! هل يجتمعون جميعاً في هٰذا الطريق أو واحداً بعد واحد؟

وهٰذه المسألة لا يكاد الإنسان يجزم بأحد القولين؛ لأن كليهما له وجهة قوية.

* وقوله: **«منصوب على متن جهنم»**؛ يعني: على نفس النار.

* * *

* قوله: **«يمر عليه الناس على قدر أعمالهم: فمنهم من يمر كلمح البصر، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالفرس الجواد، ومنهم من يمر كركاب الإبل، ومنهم من يعدوا عدواً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من يخطف خطفاً ويلقى في جهنم؛ فإن الجسر عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم»**[1].

* قوله: **«يمر الناس»**: المراد بـ **«الناس»** هنا: المؤمنون؛ لأن الكفار قد ذهب بهم إلى النار.

فيمر الناس عليه على قدر أعمالهم؛ منهم من يمر كلمح البصر، ومنهم من يمر كالبرق، ولمح البصر أسرع من البرق،

---

(١) لما رواه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣)؛ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

ومنهم من يمر كالريح؛ أي: الهواء، ولا شك أن الهواء سريع، لا سيما قبل أن يعرف الناس الطائرات، والهواء المعروف يصل أحياناً إلى مئة وأربعين ميلاً في الساعة، ومنهم من يمر كالفرس الجواد، ومنهم من يمر كركاب الإبل، وهي دون الفرس الجواد بكثير، ومنهم من يعدو عدواً؛ أي: يسرع، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً؛ أي: يمشي على مقعدته، وكل منهم يريد العبور.

وهٰذا بغير اختيار الإنسان، ولو كان باختياره؛ لكان يحب أن يكون بسرعة، ولٰكن السير على حسب سرعته في قبول الشريعة في هٰذه الدنيا؛ فمن كان سريعاً في قبول ما جاءت به الرسل؛ كان سريعاً في عبور الصراط، ومن كان بطيئاً في ذٰلك؛ كان بطيئاً في عبور الصراط؛ جزاء وفاقاً، والجزاء من جنس العمل.

* وقوله: «**ومنهم من يخطف**»؛ أي: يؤخذ بسرعة، وذٰلك بالكلاليب التي على الجسر؛ تخطف الناس بأعمالهم.

* «**ويلقى في جهنم**»: يفهم منه أن النار التي يلقى فيها العصاة هي النار التي يلقى فيها الكفار، ولٰكنها لا تكون بالعذاب كعذاب الكفار، بل قال بعض العلماء: إنها تكون برداً وسلاماً عليهم كما كانت النار برداً وسلاماً على إبراهيم، ولٰكن الظاهر خلاف ذٰلك، وأنها تكون حارة مؤلمة، لٰكنها ليست كحرارتها بالنسبة للكافرين.

ثم إن أعضاء السجود لا تمسها النار؛ كما ثبت ذٰلك عن

النبي عليه الصلاة والسلام في «الصحيحين»[1]، وهي الجبهة والأنف والكفان والركبتان وأطراف القدمين.

* قوله: **«فمن مر على الصراط؛ دخل الجنة»**؛ أي: لأنه نجا.

* * *

* قوله: **«فإذا عبروا عليه؛ وُقِفوا على قنطرة بين الجنة والنار»**:

«القنطرة»: هي الجسر، لٰكنها جسر صغير، والجسر في الأصل ممر على الماء من نهر ونحوه.

واختلف العلماء في هٰذه القنطرة؛ هل هي طرف الجسر الذي على متن جهنم أو هي جسر مستقل؟!

والصواب في هٰذا أن نقول: الله أعلم، وليس يعنينا شأنها، لٰكن الذي يعنينا أن الناس يوقفون عليها.

* قوله: **«فيقتص لبعضهم من بعض»**: وهٰذا القصاص غير القصاص الأول الذي في عرصات القيامة؛ لأن هٰذا قصاص أخص؛ لأجل أن يذهب الغل والحقد والبغضاء التي في قلوب الناس، فيكون هٰذا بمنزلة التنقية والتطهير، وذٰلك لأن ما في القلوب لا يزول بمجرد القصاص.

---

(١) رواه: البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فهٰذه القنطرة التي بين الجنة والنار؛ لأجل تنقية ما في القلوب، حتى يدخلوا الجنة وليس في قلوبهم غل؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

* قوله: **«فإذا هُذِّبوا ونُقُّوا؛ أُذِن لهم في دخول الجنة»**.

هٰكذا رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه[(١)].

إذا هذبوا مما في قلوبهم من العداوة والبغضاء ونقوا منها؛ فإنه يؤذن لهم في دخول الجنة؛ فإذا أُذِن لهم في الدخول؛ فلا يجدون الباب مفتوحاً، ولٰكن النبي ﷺ يشفع إلى الله في أن يفتح لهم باب الجنة؛ كما سيأتي في أقسام الشفاعة إن شاء الله.

* * *

● **الأمر العاشر مما يكون يوم القيامة: دخول الجنة:**

وأشار إليه المؤلف بقوله: **«وأول من يستفتح باب الجنة محمد ﷺ»**.

ودليله ما ثبت في «صحيح مسلم» أن النبي ﷺ قال: «أنا أول شفيع في الجنة»، وفي لفظ: «أنا أول من يقرع باب الجنة»[(٢)]، وفي لفظ: «آتي باب الجنة يوم القيامة، فأستفتح، فيقول الخازن:

---

(١) رواه البخاري (٧٤٣٩).

(٢) رواه مسلم (١٩٦) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

من أنت؟ فأقول: محمد. فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد من قبلك»[1].

وقوله ﷺ: «فأستفتح»؛ أي: أطلب فتح الباب.

* وهٰذا من نعمة الله على محمد ﷺ؛ فإن الشفاعة الأولى التي يشفعها في عرصات القيامة لإزالة الكروب والهموم والغموم، والشفاعة الثانية لنيل الأفراح والسرور؛ فيكون شافعاً للخلق عليه الصلاة والسلام في دفع ما يضرهم وجلب ما ينفعهم.

* ولا دخول إلى الجنة إلا بعد شفاعة الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأن ذٰلك ثبت في السنة كما سبق، وأشار إليه الله عز وجل بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]؛ فإنه لم يقل: حتى إذا جاؤوها؛ فتحت! وفيه إشارة إلى أن هناك شيئاً قبل الفتح، وهو الشفاعة. أما أهل النار؛ فقال فيهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١]؛ لأنهم يأتونها مهيأة فتبغتهم؛ نعوذ بالله منها.

* * *

* قوله: **«وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته»**:

هٰذا حق ثابت؛ دليله ما ثبت في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون

---

(١) رواه مسلم (١٩٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة»[1]، وقال ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة»[2].

وهٰذا يشمل كل مواقف القيامة، وانظر: «حادي الأرواح» لابن القيم.

*** تتمة:**

أبواب الجنة لم يذكرها المؤلف، لٰكنها معروفة أنها ثمانية؛ قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]؛ وقال النبي ﷺ فيمن توضأ وأسبغ الوضوء وتشهد: «إلَّا فتحت له أبواب الجنة الثمانية؛ يدخل من أيها شاء»[3].

وهٰذه الأبواب كانت ثمانية بحسب الأعمال؛ لأن كل باب له عمال؛ فأهل الصلاة ينادون من باب الصلاة، وأهل الصدقة من باب الصدقة، وأهل الجهاد من باب الجهاد، وأهل الصيام من باب الريان.

وقد يوفق الله عز وجل بعض الناس لأعمال صالحة شاملة؛ فيدعى من جميع الأبواب؛ كما في «الصحيحين»[4] عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: «من أنفق زوجين في سبيل الله؛

---

(١) رواه مسلم (٨٥٥).

(٢) رواه: البخاري (٦٦٢٤)، ومسلم (٨٥٥)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم (٢٣٤) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٤) رواه: البخاري (٣٦٦٦)، ومسلم (١٠٢٧).

نودي من أبواب الجنة: يا عبد الله! هٰذا خير...» وذكر الحديث، وفيه: فقال أبو بكر رضي الله عنه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! ما على من دعي من تلك الأبواب من ضرورة؛ فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم».

* فإن قلت: إذا كانت الأبواب بحسب الأعمال؛ لزم أن يدعى كل أحد من كل تلك الأبواب إذا عمل بأعمالها؛ فما هو الجواب؟

فالجواب: أن يقال: يُدْعى من الباب المعين مَن كان يكثر من العمل المخصص له؛ مثلاً: إذا كان هٰذا الرجل كثير الصلاة؛ فيدعى من باب الصلاة، كثير الصيام من باب الريان، وليس كل إنسان تحصل له الكثرة في كل عمل صالح؛ لأنك تجد في نفسك بعض الأعمال أكثر وأنشط من بعض، لٰكن قد يمن الله على بعض الناس، فيكون نشيطاً قوياً في جميع الأعمال؛ كما سبق في قصة أبي بكر رضي الله عنه.

* * *

● **الأمر الحادي عشر مما يكون يوم القيامة: الشفاعة:**

وقد ذكرها المؤلف بقوله: «**وله ﷺ في القيامة ثلاث شفاعات**».

* «**له**»: الضمير يعود للنبي ﷺ.

* والشفاعات: جمع شفاعة، والشفاعة في اللغة: جعل الشيء شفعاً. وفي الاصطلاح: التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة، ومناسبتها للاشتقاق ظاهرة؛ لأنك إذا توسطت له؛ صرت معه شفعاً تشفعه.

* والشفاعة تنقسم إلى قسمين: شفاعة باطلة، وشفاعة صحيحة.

ـ فالشفاعة الباطلة: ما يتعلق به المشركون في أصنامهم؛ حيث يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاء لهم عند الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

لٰكن هٰذه الشفاعة باطلة لا تنفع؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

ـ والشفاعة الصحيحة ما جمعت شروطاً ثلاثة:

الأول: رضى الله عن الشافع.

الثاني: رضاه عن المشفوع له، لٰكن الشفاعة العظمى في الموقف عامة لجميع الناس من رضي الله عنهم ومن لم يرض عنهم.

الثالث: إذنه في الشفاعة.

والإذن لا يكون إلا بعد الرضى عن الشافع والمشفوع له.

ودليل ذٰلك قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]، ولم يقل: عن الشافع، ولا: المشفوع له؛ ليكون أشمل.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فالآية الأولى تضمنت الشروط الثلاثة، والثانية تضمنت شرطين، والثالثة تضمنت شرطاً واحداً.

* * *

* فللنبي ﷺ ثلاث شفاعات:

١ ـ الشفاعة العظمى.

٢ ـ والشفاعة لأهل الجنة ليدخلوا الجنة.

٣ ـ والشفاعة فيمن استحق النار ألا يدخلها، وفيمن دخلها أن يخرج منها.

* * *

* قال المؤلف مبيناً هٰذه الثلاث: «**أما الشفاعة الأولى؛ فيشفع في أهل الموقف، حتى يقضى بينهم بعد أن يتراجع الأنبياء: آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم عن الشفاعة حتى تنتهي إليه**».

* قوله: «**حتى يقضى بينهم**»: (حتى) هٰذه تعليلية، وليست غائية؛ لأن شفاعة الرسول ﷺ تنتهي إليه قبل أن يقضى بين الناس؛ فإنه إذا شفع؛ نزل الله عز وجل للقضاء بين عباده وقضى بينهم.

ونظيرها قوله تعالى: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ﴾ [المنافقون: ٧]؛ فإن قوله: ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾: للتعليل؛ أي: من أجل أن ينفضوا، وليست للغاية؛ لأن المعنى يفسد بذٰلك.

* قوله: «**بعد أن يتراجع الأنبياء؛آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم عن الشفاعة**»: أي: يردها كل واحد منهم إلى الآخر.

* شرح هٰذه الجملة ما رواه البخاري ومسلم[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون فيم ذٰلك؟ يجمع الله الناس الأولين والآخرين في صعيد واحد؛ يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، وتدنو منهم الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعضهم لبعض: عليكم بآدم! فيأتونه، فيقولون له: أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك؛ ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم

---

(١) رواه: البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة، فعصيته؛ نفسي نفسي نفسي! اذهبوا إلى نوح! فيأتون نوحاً، فيقولون: يا نوح! إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً؛ اشفع لنا إلى ربك؛ ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول كما قال آدم في غضب الله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي؛ اذهبوا إلى إبراهيم! فيأتون إبراهيم، فيقولون: يا إبراهيم! أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض؛ اشفع لنا إلى ربك؛ ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول كما قال آدم في غضب الله، وإني قد كذبت ثلاث كذبات؛ اذهبوا إلى موسى! فيأتون موسى، فيقولون: يا موسى! أنت رسول الله، فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس؛ اشفع لنا إلى ربك؛ ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول كما قال آدم في غضب الله، وإني قد قتلت نفساً لم أومر بقتلها؛ اذهبوا إلى عيسى! فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى! أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلمت الناس في المهد صبياً؛ اشفع لنا إلى ربك؛ ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول كما قال آدم في غضب الله، ولم يذكر ذنباً، اذهبوا إلى محمد! وكلهم يقول كما قال آدم: نفسي نفسي! فيأتون محمداً ﷺ، فيقولون: يا محمد! أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؛ اشفع لنا إلى ربك؛ ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنطلق، فآتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي عز وجل، ثم يفتح الله عليَّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد! ارفع رأسك؛ سل

تعطه، واشفع تشفع...» وذكر تمام الحديث.

* والكذبات الثلاث التي ذكرها إبراهيم عليه السلام فُسِّرت بما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات؛ اثنتين منهن في ذات الله: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وذكر قوله عن امرأته سارة: إنها أختي.

وفي «صحيح مسلم» في حديث الشفاعة السابق أن الثالثة قوله في الكوكب ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، ولم يذكر قصة سارة.

لٰكن قال ابن حجر في «الفتح»[1]: «الذي يظهر أنها وهم من بعض الرواة»، وعلل لذٰلك.

وإنما سمى إبراهيم عليه السلام هٰذه كذبات؛ تواضعاً منه؛ لأنها بحسب مراده صدق مطابق للواقع؛ فهي من باب التورية، والله أعلم.

* قوله: «حتى تنتهي إليه»؛ أي: إلى الرسول ﷺ، وسبق في الحديث ما يكون بعد ذٰلك.

وهٰذه الشفاعة العظمى لا تكون لأحد أبداً إلا للرسول عليه الصلاة والسلام، وهي أعظم الشفاعات؛ لأن فيها إراحة الناس من هٰذا الموقف العظيم والكرب والغم.

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ٣٩١).

وهٰؤلاء الرسل الذين ذكروا في حديث الشفاعة كلهم من أولي العزم، وقد ذكرهم الله تعالى في موضعين من القرآن: في سورة الأحزاب، وفي سورة الشورى.

أما في سورة الأحزاب؛ ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧].

وأما في سورة الشورى؛ فقوله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورى: ١٣].

تنبيه:

قوله: «الأنبياء؛ آدم ونوح...» إلى آخره: جزم المؤلف رحمه الله بأن آدم نبي، وهو كذٰلك؛ لأن الله تعالى أوحى إليه بشرع أمره ونهاه.

وروى ابن حبان في «صحيحه»[1]: أن أبا ذر سأل النبي صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم: هل كان آدم نبياً؟ قال: «نعم».

فيكون آدم أول الأنبياء الموحى إليهم، وأما أول الرسل؛ فنوح؛ كما هو صريح في حديث الشفاعة وظاهر القرآن في قوله

---

(١) «صحيح ابن حبان» (٢/٧٧).
والحديث رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/٩٧٨)، وقال الهيثمي في «المجمع»: رواه أحمد والبزار والطبراني في «الأوسط» بنحوه.

تعالى: ﴿۞إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النساء: ١٦٣]، وقوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ﴾ [الحديد: ٢٦].

* * *

* قوله: «**وأما الشفاعة الثانية؛ فيشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة**».

* وذٰلك أن أهل الجنة إذا عبروا الصراط؛ وقفوا على قنطرة، فيقتص لبعضهم من بعض، وهٰذا القصاص غير القصاص الذي كان في عَرَصات القيامة، بل هو قصاص أخص، يطهر الله فيه القلوب، ويزيل ما فيها من أحقاد وضغائن؛ فإذا هُذِّبوا ونُقُّوا؛ أُذن لهم في دخول الجنة.

ولٰكنهم إذا أتوا إلى الجنة؛ لا يجدونها مفتوحة كما يجد ذٰلك أهل النار؛ فلا تفتح الأبواب، حتى يشفع النبي ﷺ لأهل الجنة أن يدخلوها، فيدخل كل إنسان من باب العمل الذي يكون أكثر اجتهاداً فيه من غيره، وإلا؛ فإن المسلم قد يدعى من كل الأبواب.

* وهٰذه الشفاعة يشير إليها القرآن؛ لأن الله قال في أهل الجنة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]، وهٰذا يدل أن هناك شيئاً بين وصولهم إليها وبين فتح الأبواب.

وهو صريح فيما رواه مسلم[1] عن حذيفة وأبي هريرة رضي الله عنهما؛ قالا: قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله تبارك وتعالى الناس، فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة، فيأتون آدم، فيقولون: يا أبانا! استفتح لنا الجنة...» وذكر الحديث، وفيه: «فيأتون محمداً، فيقوم، فيؤذن له...» الحديث.

* * *

* قوله: **«وهاتان الشفاعتان خاصتان له»**؛ يعني: الشفاعة في أهل الموقف أن يقضى بينهم، والشفاعة في دخول الجنة.

* **«خاصتان له»**؛ أي: للنبي محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولذٰلك يعتذر عنهما آدم وأولو العزم من الرسل.

* * *

* وهناك أيضاً شفاعة ثالثة خاصة بالنبي ﷺ، لا تكون لغيره، وهي الشفاعة في عمه أبي طالب.

* وأبو طالب ـ كما في «الصحيحين»[2] وغيرهما ـ مات على الكفر.

* فأعمام الرسول عليه الصلاة والسلام عشرة، أدرك الإسلام

---

(١) رواه مسلم (١٩٥).

(٢) لما رواه البخاري (٤٧٧٢)، ومسلم (٢٤)؛ من قصة ابن المسيب عن أبيه، لما حضرت أبا طالب الوفاة... فذكر الحديث... حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: «هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله».

منهم أربعة؛ فبقي اثنان على الكفر وأسلم اثنان:

ـ فالكافران هما:

أبو لهب: وقد أساء إلى النبي ﷺ إساءة عظيمة، وأنزل الله تعالى فيه وفي امرأته حمالة الحطب سورة كاملة في ذمهما ووعيدهما.

والثاني: **أبو طالب**، وقد أحسن إلى الرسول عليه الصلاة والسلام إحساناً كبيراً مشهوراً، وكان من حكمة الله عز وجل أن بقي على كفره؛ لأنه لولا كفره؛ ما حصل هٰذا الدفاع عن الرسول عليه الصلاة والسلام، بل كان يؤذى كما يؤذى الرسول عليه الصلاة والسلام، لٰكن بجاهه العظيم عند قريش وبقائه على دينهم صاروا يعظمونه وصار للنبي عليه الصلاة والسلام جانب من الحماية بذٰلك.

ـ واللذان أسلما هما العباس وحمزة، وهو أفضل من العباس، حتى لقبه الرسول عليه الصلاة والسلام أسد الله، وقتل شهيداً في أحد رضي الله عنه وأرضاه، وسماه النبي ﷺ سيد الشهداء[1].

فأبو طالب أذن الله لرسوله ﷺ أن يشفع فيه، مع أنه كافر،

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ١٩٥) عن جابر، وعزاه الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٣٦٨) للطبراني في «الأوسط»، والحديث أورده الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٧٤).

فيكون هٰذا مخصوصاً من قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، ولٰكنها شفاعة لم تخرجه من النار، بل كان في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه؛ قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «ولولا أنا؛ لكان في الدرك الأسفل من النار»[١]، وليس هٰذا من أجل شخصية أبي طالب، لٰكن من أجل ما حصل من دفاعه عن النبي ﷺ وعن أصحابه.

* * *

* قوله: **«وأما الشفاعة الثالثة؛ فيشفع فيمن استحق النار، وهٰذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم، فيشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها، ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها».**

* قوله: **«وأما الشفاعة الثالثة؛ فيشفع فيمن استحق النار»**؛ أي: من عصاة المؤمنين.

وهٰذه لها صورتان: يشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها، وفيمن دخلها أن يخرج منها.

ــ أما فيمن دخلها أن يخرج منها؛ فالأحاديث في هٰذا كثيرة جدّاً، بل متواترة.

ــ وأما فيمن استحقها أن لا يدخلها؛ فهٰذه قد تستفاد من دعاء الرسول ﷺ للمؤمنين بالمغفرة والرحمة على جنائزهم؛ فإنه

---

(١) لما رواه البخاري (٣٨٨٣)، ومسلم (٢٠٩)؛ عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

من لازم ذٰلك أن لا يدخل النار؛ كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «اللهم! اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين. . .» الحديث[1].

* لٰكن هٰذه شفاعة في الدنيا؛ كما في قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ما من رجل مسلم يموت، فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً؛ إلا شفعهم الله فيه»[2].

* وهٰذه الشفاعة ينكرها من أهل البدع طائفتان؛ المعتزلة والخوارج؛ لأن المعتزلة والخوارج مذهبهما في فاعل الكبيرة أنه مخلد في نار جهنم، فيرون من زنى كمن أشرك بالله؛ لا تنفعه الشفاعة، ولن يأذن الله لأحد بالشفاعة له.

وقولهم مردود بما تواترت به الأحاديث في ذٰلك.

* قوله: **«وهٰذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم»**؛ فيشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها، ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها، يعني: أنها ليست خاصة بالنبي ﷺ، بل تكون للنبيين؛ حيث يشفعون في عصاة قومهم، وللصديقين يشفعون في عصاة أقاربهم وغيرهم من المؤمنين، وكذٰلك تكون لغيرهم من الصالحين، حتى يشفع الرجل في أهله وفي جيرانه وفيما أشبه ذٰلك.

---

(١) رواه مسلم (٩٢٠)؛ عن أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) رواه مسلم (٩٤٨)؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

* قوله: «**ويخرج الله من النار أقواماً بغير شفاعة، بل بفضله ورحمته**»:

يعني: أن الله تعالى يخرج من عصاة المؤمنين من شاء بغير شفاعة، وهٰذا من نعمته؛ فإن رحمته سبقت غضبه، فيشفع الأنبياء والصالحون والملائكة وغيرهم، حتى لا يبقى إلا رحمة أرحم الراحمين، فيخرج من النار من يخرج بدون شفاعة، حتى لا يبقى في النار إلا أهلها الذين هم أصحاب النار.

فقد روى الشيخان البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ: «أن الله تعالى يقول: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط؛ قد عادوا حمماً. . .» الحديث[1].

* * *

● **الأمر الثاني عشر مما يكون يوم القيامة:**

وهو ما ذكره المؤلف بقوله: «**وَيَبْقى في الجَنَّةِ فَضْلٌ عَمَّنْ دَخَلَها مِنْ أَهْلِ الدُّنْيا**».

* الجنة عرضها السماوات والأرض، وهٰذه الجنة التي عرضها السماوات والأرض يدخلها أهلها، ولٰكن لا تمتلىء.

---

(١) رواه: البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣)؛ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وقد تكفل الله عز وجل للجنة وللنار لكل واحدة ملؤها:

ـ «فالنار لا تزال يلقى فيها وهي تقول: هل من مزيد؟ فلا تمتلىء، فيضع الله عز وجل عليها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط»[1].

ـ وأما الجنة؛ فينشىء لها أقواماً، فيدخلون الجنة بفضل الله ورحمته:

ـ ثبت ذٰلك في «الصحيحين»[2] من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهٰذا مقتضى قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقول النبي عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه سبحانه وتعالى: «إن رحمتي سبقت غضبي»[3].

ولهٰذا قال المؤلف: «فينشىء الله لها أقواماً، فيدخلهم الجنة».

* * *

* قوله: **«وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة من الحساب والثواب والعقاب»**:

* الأصناف: الأنواع.

---

(١) سبق تخريجه (٢/ ٣٠).

(٢) رواه: البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٨).

(٣) البخاري (٧٥٥٤)، ومسلم (٢٧٥١)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

* وسبق معنى الحساب.

* «**والثواب**»: جزاء الحسنات؛ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

* «**والعقاب**»: جزاء السيئات، ومن جاء بالسيئة؛ فلا يجزى إلا مثلها، وهم لا يظلمون.

* قوله: «**والجنة والنار**»: «**الجنة**»: هي الدار التي أعدها الله تعالى لأوليائه، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وفيها ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]؛ أي: لا تعلم حقيقته وكنهه.

والجنة موجودة الآن؛ لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، والأحاديث في هٰذا المعنى متواترة.

ولا تزال باقية أبد الآبدين؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ﴾؛ في آيات متعددة.

وأما «**النار**»؛ فهي الدار التي أعدها الله تعالى لأعدائه، وفيها من أنواع العذاب والعقاب ما لا يطاق.

وهي موجودة الآن؛ لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، والأحاديث في هٰذا المعنى مستفيضة مشهورة.

وأهلها خالدون فيها أبداً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٦٤ ـ ٦٥].

وقد ذكر الله خلودهم أبدا في ثلاث آيات من القرآن؛ هٰذه أحدها، والثانية في آخر سورة النساء، والثالثة في سورة الجن، وهي ظاهرة في أن النار لا تزال باقية أبد الآبدين.

* * *

* قوله: «**وتفاصيل ذٰلك مذكورة في الكتب المنزلة من السماء**»؛ يعني: مثل التوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وموسى وغيرها من الكتب المنزلة؛ فقد ذكر فيها ذٰلك مبيناً مفصلاً لحاجة الناس، بل ضرورتهم إلى بيانه وتفصيله؛ إذ لا يمكنهم الاستقامة إلا بالإيمان باليوم الآخر الذي يجازى فيه كل عامل بما عمل من خير وشر.

* قوله: «**والآثار من العلم المأثور عن الأنبياء**»:

* اعلم أن العلم المأثور عن الأنبياء قسمان:

١ ـ قسم ثبت بالوحي، وهو ما ذكر في القرآن والسنة الصحيحة، وهٰذا لا شك في قبوله واعتقاد مدلوله.

٢ ـ وقسم آخر أتى عن طريق النقل غير الوحي، وهٰذا هو الذي دخل فيه الكذب والتحريف والتبديل والتغيير.

ولهٰذا لا بد من أن يكون الإنسان حذراً مما ينقل بهٰذه الطريق عن الأنبياء السابقين، حتى قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «إذا

حدثكم أهل الكتاب؛ فلا تصدِّقوهم ولا تكذِّبوهم، وقولوا: آمنا بما أنزل إلينا وما أنزل إليكم»[1]؛ لأنك إن صدقت؛ قد تصدق بباطل، وإن كذبته؛ قد تكذب بحق؛ فلا تصدق ولا تكذب؛ قل: إن كان هٰذا من عند الله؛ فقد آمنت به.

* وقد قسم العلماء ما أثر عمن سبق ثلاثة أقسام:

الأول: ما شهد شرعنا بصدقه.

والثاني: ما شهد شرعنا بكذبه.

والحكم في هٰذين واضح.

الثالث: ما لم يحكم بصدقه ولا كذبه.

فهٰذا مما يجب فيه التوقف؛ لا يصدَّق ولا يكذَّب.

* قوله: **«وفي العلم الموروث عن محمد ﷺ من ذٰلك ما يشفي ويكفي»**:

* العلم الموروث عن محمد صلوات الله وسلامه عليه سواء في كتاب الله أو في سنة رسول الله ﷺ فيه من ذٰلك ما يشفي ويكفي.

فلا حاجة إلى أن نبحث عن مواعظ ترقق القلوب من غير الكتاب والسنة، بل نحن في غنى عن هٰذا كله؛ ففي العلم

---

(١) رواه الإمام أحمد (٤/ ١٣٥) عن أبي نملة الأنصاري رضي الله عنه، والبخاري (٤٤٨٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الموروث عن محمد رسول الله ﷺ ما يشفي ويكفي في كل أبواب العلم والإيمان.

* ثم المنسوب إلى رسول الله ﷺ في باب الوعظ والفضائل ترغيباً أو ترهيباً ينقسم إلى ثلاثة أقسام: صحيح مقبول، وضعيف، وموضوع؛ فليس كله صحيحاً مقبولاً، ونحن في غنى عن الضعيف والموضوع.

ـ فالموضوع اتفق العلماء رحمهم الله على أنه لا يجوز ذكره ونشره بين الناس؛ لا في باب الفضائل والترغيب والترهيب، ولا في غيره؛ إلا من ذكره ليبين حاله.

ـ والضعيف اختلف فيه العلماء، والذين قالوا بجواز نشره ونقله اشترطوا فيه ثلاثة شروط[(١)]:

الشرط الأول: أن لا يكون الضعف شديداً.

الشرط الثاني: أن يكون أصل العمل الذي رتب عليه الثواب أو العقاب ثابتاً بدليل صحيح.

الشرط الثالث: أن لا يعتقد أن النبي ﷺ قاله، بل يكون

---

(١) ذكر ذلك الحافظ ابن حجر فيما نقله عنه السخاوي في «القول البديع» (ص٣٦٤)، وجاء عن الإمام أحمد أنه قال: «إذا جاء الحلال والحرام شدّدنا في الأسانيد، وإذا جاء الترغيب والترهيب تساهلنا في الأسانيد» «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (١٨/ ٦٥)، وانظر مقدمة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني لكتاب «الترغيب والترهيب»، فقد ذكر أقوال العلماء في حكم العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال.

متردداً غير جازم، لكنه راجٍ في باب الترغيب، خائفٌ في باب الترهيب.

أما صيغة عرضه؛ فلا يقول: قال رسول الله ﷺ، بل يقول: روي عن رسول الله، أو: ذكر عنه... وما أشبه ذٰلك.

فإن كنت في عوام لا يفرقون بين ذكر وقيل وقال؛ فلا تأت به أبداً؛ لأن العامي يعتقد أن الرسول عليه الصلاة والسلام قاله؛ فما قيل في المحراب؛ فهو عنده الصواب!

تنبيه:

هٰذا الباب ـ أي: باب اليوم الآخر وأشراط الساعة ـ ذكرت فيه أحاديث كثيرة فيها ضعف وفيها وضع، وأكثر ما تكون هٰذه في كتب الرقائق والمواعظ؛ فلذٰلك يجب التحرز منها، وأن نحذر العامة الذين يقع في أيديهم مثل هٰذه الكتب.

* قوله: «**فمن ابتغاه**»؛ أي: طلبه: «**وجده**».

وهٰذا صحيح؛ فالقرآن بين أيدينا، وكتب الأحاديث بين أيدينا، لٰكنها تحتاج إلى تنقيح وبيان الصحيح منها والضعيف، حتى يبني الناس ما يعتقدونه في هٰذا الباب على أساس سليم.

* * *



فصل
في الإيمان بالقدر

* قوله: «وَتُؤْمِنُ الفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ أَهْلُ السُّنَّةِ والجَماعَةِ بِالقَدَرِ؛ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»:

الشرح:

* قوله: «الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة»: سبق تعريفها والكلام عنها في أول الكتاب.

* وقوله: «بالقدر خيره وشره»:

ـ القدر في اللغة؛ بمعنى: التقدير؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴾ [المرسلات: ٢٣].

ـ وأما القضاء؛ فهو في اللغة: الحكم.

ولهٰذا نقول: إن القضاء والقدر متباينان إن اجتمعا، ومترادفان إن تفرقا؛ على حد قول العلماء: هما كلمتان: إن

اجتمعتا افترقتا، وإن افترقتا اجتمعتا.

فإذا قيل: هٰذا قدر الله؛ فهو شامل للقضاء، أما إذا ذكرا جميعاً؛ فلكل واحد منهما معنى.

ـ فالتقدير: هو ما قدره الله تعالى في الأزل أن يكون في خلقه.

ـ وأما القضاء؛ فهو ما قضى به الله سبحانه وتعالى في خلقه من إيجاد أو إعدام أو تغيير، وعلى هٰذا يكون التقدير سابقاً.

* فإن قال قائل: متى قلنا: إن القضاء هو ما يقضيه الله سبحانه وتعالى في خلقه من إيجاد أو إعدام أو تغيير، وإن القدر سابق عليه إذا اجتمعا؛ فإن هٰذا يعارض قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]؛ فإن هٰذه الآية ظاهرها أن التقدير بعد الخلق؟

فالجواب على ذٰلك من أحد وجهين:

ـ إما أن نقول: إن هٰذا من باب الترتيب الذكري لا المعنوي، وإنما قدم الخلق على التقدير لتتناسب رؤوس الآيات.

ألم تر إلى أن موسى أفضل من هارون، لٰكن قدم هارون عليه في سورة طه في قوله تعالى عن السحرة: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠]؛ لتتناسب رؤوس الآيات.

وهٰذا لا يدل على أن المتأخر في اللفظ متأخر في الرتبة.

ـ أو نقول: إن التقدير هنا بمعنى التسوية؛ أي: خلقه على

قدر معين؛ كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلى: ٢]؛ فيكون التقدير بمعنى التسوية.

وهٰذا المعنى أقرب من الأول؛ لأنه يطابق تماماً لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾؛ فلا إشكال.

* والإيمان بالقدر واجب، ومرتبته في الدين أنه أحد أركان الإيمان الستة؛ كما قال النبي عليه الصلاة والسلام لجبريل حين قال: ما الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»[1].

* وللإيمان بالقدر فوائد؛ منها:

أولاً: أنه من تمام الإيمان، ولا يتم الإيمان إلا بذٰلك.

ثانياً: أنه من تمام الإيمان بالربوبية؛ لأن قدر الله من أفعاله.

ثالثاً: رد الإنسان أموره إلى ربه؛ لأنه إذا علم أن كل شيء بقضائه وقدره؛ فإنه سيرجع إلى الله في دفع الضراء ورفعها، ويضيف السراء إلى الله، ويعرف أنها من فضل الله عليه.

رابعاً: أن الإنسان يعرف قدر نفسه، ولا يفخر إذا فعل الخير.

خامساً: هون المصائب على العبد؛ لأن الإنسان إذا علم أنها من عند الله؛ هانت عليه المصيبة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ

---

(١) رواه مسلم (٨) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]؛ قال علقمة رحمه الله: «هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم»[١].

سادساً: إضافة النعم إلى مُسديها؛ لأنك إذا لم تؤمن بالقدر؛ أضفت النعم إلى من باشر الإنعام، وهٰذا يوجد كثيراً في الذين يتزلفون إلى الملوك والأمراء والوزراء؛ فإذا أصابوا منهم ما يريدون؛ جعلوا الفضل إليهم، ونسوا فضل الخالق سبحانه.

صحيح أنه يجب على الإنسان أن يشكر الناس؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «من صنع إليكم معروفاً؛ فكافئوه»[٢]، ولٰكن يعلم أن الأصل كل الأصل هو فضل الله عز وجل جعله على يد هٰذا الرجل.

سابعاً: أن الإنسان يعرف به حكمة الله عز وجل؛ لأنه إذا نظر في هٰذا الكون وما يحدث فيه من تغييرات باهرة؛ عرف بهٰذا حكمة الله عز وجل؛ بخلاف من نسي القضاء والقدر؛ فإنه لا يستفيد هٰذه الفائدة.

---

(١) أخرجه الطبري (٢٨/ ٨٠)، وعزاه السيوطي لعبد بن حميد وابن المنذر، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ٢٢٧)، كما عزاه ابن كثير لابن أبي حاتم (٨/ ١٦٣)، انظر «نسخة وكيع عن الأعمش» (٥).

(٢) رواه: أحمد (٢/ ٦٨)، وأبو داود (١٦٧٢)، واللفظ له، وابن حبان (٨/ ١٩٩)، والنسائي (٥/ ٨٢)، والحاكم (١/ ٤١٢)، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٥٤)، و«الإرواء» (١٦١٧).

* وقوله: «خيره وشره»:

ـ الشر في القدر: ما لا يلائم طبيعة الإنسان؛ بحيث يحصل له به أذية أو ضرر.

ـ والخير: ما يلائم طبيعته؛ بحيث يحصل له به خير أو ارتياح وسرور، وكل ذٰلك من الله عز وجل.

* ولٰكن؛ إن قيل: كيف يقال: إن في قدر الله شَرًّا؛ وقد قال النبي ﷺ: «الشر ليس إليه»؟[1]

فالجواب على ذٰلك أن يقال: الشر في القدر ليس باعتبار تقدير الله له، لٰكنه باعتبار المقدور له؛ لأن لدينا قدراً هو التقدير ومقدوراً؛ كما أن هناك خلقاً ومخلوقاً وإرادة ومراداً؛ فباعتبار تقدير الله له ليس بشر، بل هو خير، حتى وإن كان لا يلائم الإنسان ويؤذيه ويضره، لٰكن باعتبار المقدور؛ فنقول: المقدور إما خير وإما شر؛ فالقدر خيره وشره يراد به المقدور خيره وشره.

ونضرب لهٰذا مثلاً في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ [الروم: ٤١].

ففي هٰذه الآية بين الله عز وجل ما حدث من الفساد وسببه والغاية منه؛ فالفساد شر، وسببه عمل الإنسان السيىء، والغاية منه: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

(١) سبق تخريجه (١/ ٧٠).

فكون الفساد يظهر في البر والبحر فيه حكمة؛ فهو نفسه شر، لٰكن لحكمة عظيمة، بها يكون تقديره خيراً.

كذٰلك المعاصي والكفر شر، وهو من تقدير الله، لٰكن لحكمة عظيمة، لولا ذٰلك لبطلت الشرائع، ولولا ذٰلك لكان خلق الناس عبثاً.

* والإيمان بالقدر خيره وشره لا يتضمن الإيمان بكل مقدور، بل المقدور ينقسم إلى كوني وإلى شرعي:

ـ فالمقدور الكوني: إذا قدر الله عليك مكروهاً؛ فلا بد أن يقع؛ رضيت أم أبيت.

ـ والمقدور الشرعي قد يفعله الإنسان وقد لا يفعله، ولكن باعتبار الرضى به فيه تفصيل: إن كان طاعة لله؛ وجب الرضى به، وإن كان معصية؛ وجب سخطه وكراهته والقضاء عليه؛ كما قال الله عز وجل: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وعلى هٰذا؛ يجب علينا الإيمان بالمقضي كله؛ من حيث كونه قضاء لله عز وجل، أما من حيث كونه مقضياً؛ فقد نرضى به وقد لا نرضى؛ فلو وقع الكفر من شخص؛ فلا نرضى بالكفر منه، لٰكن نرضى بكون الله أوقعه.

* * *

فصل
في درجات الإيمان بالقدر

* قوله: «وَالإيمانُ بِالقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَيْنِ، كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ»:

الشرح:

* إنما قسم المؤلف هٰذا التقسيم من أجل الخلاف؛ لأن الخلاف في القدر ليس شاملاً لكل مراتبه، وباب القدر من أشكل أبواب العلم والدين على الإنسان، وقد كان النزاع فيه من عهد الصحابة رضي الله عنهم، لٰكنه ليس مشكلاً لمن أراد الحق.

* * *

● **الدرجة الأولى من درجات الإيمان بالقدر:**

قوله: **«فالدرجة الأولى: الإيمان بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلاً»:**

الشرح:

* قوله: «**فالدرجة الأولى: الإيمان بأن الله علم ما الخلق عاملون**»: ولم يذكر المؤلف أن الله علم ما يفعله هو؛ لأن هٰذه المسألة ليس فيها خلاف، إنما ذكر ما فيه الخلاف، وهو: هل الله يعلم ما الخلق عاملون أو لا يعلمه إلا بعد وقوعه منهم؟

ومذهب السلف والأئمة أن الله تعالى عالم بذٰلك.

* قوله: «**بعلمه القديم**»: القديم في اصطلاحهم: هو الذي لا أول لابتدائه؛ أي أنه لم يزل فيما مضى من الأزمنة التي لا نهاية لها عالماً بما يعمله الخلق؛ بخلاف القديم في اللغة؛ فقد يراد به ما كان قديماً نسبيّاً؛ كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يٓس: ٣٩]، ومعلوم أن عرجون النخلة ليس بقديم أزلي، بل قديم بالنسبة لما بعده.

* فالله تعالى موصوف بأنه عالم بما الخلق عاملون بعلمه القديم الأزلي، الذي لا نهاية لأوله، عالم جل وعلا بأن هٰذا الإنسان سيعمل كذا في يوم كذا في مكان كذا بعلمه القديم الأولي؛ فيجب أن نؤمن بذٰلك:

* ودليل ذٰلك من الكتاب والسنة والعقل:

ـ أما الكتاب؛ فما أكثر الآيات التي فيها العموم في علم الله؛ مثل: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢]، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ

رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]... إلى غير ذٰلك من الآيات التي لا تحصى كثرة.

ـ أما في السنة؛ فإن الرسول عليه الصلاة والسلام أخبر بأن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وبأن ما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن الأقلام قد جفت وطويت الصحف... والأحاديث في هٰذا كثيرة.

ـ وأما العقل؛ فإن من المعلوم بالعقل أن الله تعالى هو الخالق، وأن ما سواه مخلوق، ولا بد عقلاً أن يكون الخالق عالماً بمخلوقه، وقد أشار الله تعالى إلى ذٰلك بقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

فالكتاب والسنة والعقل كلها تدل على أن الله تعالى عالم بما الخلق عاملون بعلمه الأزلي.

* قوله: «**الذي هو موصوف به أزلاً وأبداً**»: ففي كونه موصوفاً به أزلاً نفي للجهل، وفي كونه موصوفاً به أبداً نفي النسيان.

ولهٰذا كان علم الله عز وجل غير مسبوق بجهل ولا ملحوق بنسيان؛ كما قال موسى عليه الصلاة والسلام لفرعون: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]؛ بخلاف علم المخلوق المسبوق بالجهل والملحوق بالنسيان.

إذاً؛ يجب علينا أن نؤمن بأن الله عالم بما الخلق عاملون بعلم سابق موصوف به أزلاً وأبداً.

* * *

* قوله: «**عَلِمَ جَمِيعَ أَحْوالِهِم مِنَ الطَّاعاتِ وَالمَعاصي وَالأَرْزاقِ وَالآجالِ**»:

* ودليل ذٰلك ما ثبت في «الصحيحين» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه...» وذكر أطوار الجنين، وفيه: «ثم يبعث الله ملكاً، فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد...» وذكر تمام الحديث[1].

فالله عالم بذٰلك قبل أن يخلق الإنسان.

فطاعاتنا معلومة لله، ومعاصينا معلومة لله، وأرزاقنا معلومة له، وآجالنا معلومة له، إذا مات الإنسان بسبب معلوم أو بغير سبب معلوم؛ فإنه لله معلوم، ولا يخفى عليه؛ بخلاف علم الإنسان بأجله؛ فإنه لا يعرف أجله؛ فلا يعرف أين يموت، ولا متى يموت، ولا يعرف بأي سبب يموت، ولا يعرف على أي حال يموت؛ نسأل الله تعالى حسن الخاتمة.

وهٰذا هو الشيء الأول من الدرجة الأولى.

---

(١) رواه البخاري (٣٢٨)، ومسلم (٢٦٤٣)؛ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

* قوله: «**ثُمَّ كَتَبَ اللهُ في اللَّوْحِ المَحْفوظِ مَقاديرَ الخَلْقِ**».

هٰذا الشيء الثاني من الدرجة الأولى، وهو أن الله كتب في اللوح المحفوظ مقادير الخلق.

* اللوح المحفوظ: لا نعرف ماهيته؛ من أي شيء؛ أمن خشب، أم من حديد، أم من ذهب، أم من فضة، أم من زمرد؟ فالله أعلم بذٰلك؛ إنما نؤمن بأن هناك لوحاً كتب الله فيه مقادير كل شيء، وليس لنا الحق في أن نبحث وراء ذٰلك، لٰكن لو جاء في الكتاب والسنة ما يدلنا على شيء؛ فالواجب أن نعتقده.

ووصف بكونه محفوظاً؛ لأنه محفوظ من أيدي الخلق؛ فلا يمكن أن يلحق أحد به شيئاً، أو يغير به شيئاً أبداً. ثانياً: محفوظ من التغيير؛ فالله عز وجل لا يغير فيه شيئاً؛ لأنه كتبه عن علم منه؛ كما سيذكره المؤلف، ولهٰذا قال شيخ الإسلام رحمه الله: «إن المكتوب في اللوح المحفوظ لا يتغير أبداً»، وإنما يحصل التغيير في الكتب التي بأيدي الملائكة.

* قوله: «**مقادير الخلق**»؛ أي: مقادير المخلوقات كلها، وظاهر النصوص أنه شمل ما يفعله الإنسان، وما يفعله البهائم، وأنه عام وشامل.

* ولٰكن؛ هل هٰذه الكتابة إجمالية أو تفصيلية؟

قد نقول: إننا لا نجزم بأنها تفصيلية أو إجمالية.

فمثلاً: القرآن الكريم: هل هو مكتوب في اللوح المحفوظ

بهٰذه الآيات والحروف أو أن المكتوب في اللوح ذكره وأنه سينزل على محمد ﷺ وأنه سيكون نوراً وهدىً للناس وما أشبه ذٰلك؟

ففيه احتمال: إن نظرنا إلى ظاهر النصوص؛ قلنا: إن ظاهرها أن القرآن كله مكتوب جملة وتفصيلاً، وإن نظرنا إلى أن الله سبحانه وتعالى يتكلم بالقرآن حين نزوله؛ قلنا: إن الذي كتب في اللوح المحفوظ ذكر القرآن، ولا يلزم من كون ذكره في اللوح المحفوظ أن يكون قد كتب فيه؛ كما قال الله تعالى عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦]؛ يعني: كتب الأولين، ومعلوم أن القرآن لم يوجد نصه في الكتب السابقة، وإنما وجد ذكره، ويمكن أن نقول مثلها في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢١ ـ ٢٢]؛ أي: ذكره في هٰذا اللوح.

فالمهم أن نؤمن بأن مقادير الخلق مكتوبة في اللوح المحفوظ، وأن هٰذا اللوح لا يتغير ما كتب فيه؛ لأن الله أمره أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة.

* * *

* قوله: «**فأول ما خلق الله القلم؛ قال له: اكتب! قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة**»[1].

* قوله: «**فأول ما خلق الله القلم؛ قال له: اكتب**»: فأمره أن يكتب؛ مع أن القلم جماد!!

---

(١) سبق تخريجه (١/١٩٨).

* فكيف يوجه الخطاب إلى الجماد؟!

والجواب عن ذٰلك: أن الجماد بالنسبة إلى الله عاقل يصح أن يوجه إليه الخطاب:

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]؛ فوجه الخطاب إليهما، وذكر جوابهما، وكان الجواب بجمع العقلاء طائعين دون طائعات.

وقال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]؛ فكانت كذٰلك.

وقال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]؛ فكانت الجبال تؤوب معه.

* والحاصل أن الله أمر القلم أن يكتب، وقد امتثل القلم، لٰكنه أشكل عليه ماذا يكتب؛ لأن الأمر مجمل، فقال: «**ما أكتب؟**»؛ أي: أي شيء أكتب؟

* «**قال**»؛ أي: الله.

* «**اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة**»: فكتب القلم بأمر الله ما هو كائن إلى يوم القيامة.

فانظر كيف علم القلم ماذا يكون إلى يوم القيامة، فكتبه؛ لأن أمر الله عز وجل لا يرد.

* وقوله: «**ما هو كائن إلى يوم القيامة**»: يشمل ما كان من

فعل الله تعالى وما كان من أفعال الخلق.

* * *

* قوله: «**فَما أصابَ الإنْسانَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَما أخْطَأهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصيبَهُ**».

* إذا آمنت بهٰذه الجملة؛ اطمأننت: ما أصاب الإنسان؛ لم يكن ليخطئه أبداً.

* ومعنى «**ما أصاب**»: يحتمل أن المعنى: ما قدر أن يصيبه؛ فإنه لن يخطئه، ويحتمل أن ما أصابه بالفعل لا يمكن أن يخطئه، حتى لو تمنى الإنسان، وهما معنيان صحيحان لا يتنافيان.

وما أخطأه لم يكن ليصيبه أي: ما قُدِّر أن يخطئه فإنه لم يكن ليصيبه، أو المعنى: ما أخطأه بالفعل، لأنه معروف أنه غير صائب، ولو تمنى الإنسان، وهما معنيان صحيحان لا يتنافيان.

* * *

* قال المؤلف: «**جَفَّتِ الأقْلامُ وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ**».

* «**الأقلام**»: هي أقلام القدر التي كتب الله بها المقادير؛ جفت وانتهت.

* و«**الصحف**»: طويت، وهٰذا كناية عن أن الأمر انتهى.

وفي «صحيح مسلم»[١] عن جابر رضي الله عنه؛ قال: جاء

---

(١) رواه مسلم (٢٦٤٨).

سراقة بن مالك بن جعشم؛ فقال: يا رسول الله! بيِّن لنا ديننا كأنا خلقنا الآن: فيم العمل اليوم؛ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير؟ أم فيما نستقبل؟ قال: «لا؛ بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير». قال: ففيم العمل؟ قال: «اعملوا؛ فكل ميسر».

* قوله: «**كما قال الله تعالى**»: الكاف في مثل هٰذا التعبير للتعليل.

* ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾: أيها المخاطب.

* ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾: وهٰذا عام؛ علم لما فيهما من أعيان وأوصاف وأعمال وأحوال.

* ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾: وهو اللوح المحفوظ.

* ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾؛ أي: الكتابة على الله أمر يسير.

* قوله: «**وقال**: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [**الحديد: ٢٢**]».

* ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: كالجدب والزلازل والفيضانات وغيرها.

* ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾: كالمرض والأوبئة المهلكة وغير ذٰلك.

* ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾: هو اللوح المحفوظ.

* ﴿نَّبْرَأَهَآ﴾؛ أي: من قبل أن نخلقها، والضمير في

﴿نَّبۡرَأَهَآۚ﴾: يحتمل أن يعود على المصيبة، ويحتمل أن يعود على الأنفس، ويحتمل أن يعود على الأرض، والكل صحيح؛ فالمصيبة قد كتبت قبل أن يخلقها الله عز وجل، وقبل أن يخلق النفس المصابة، وقبل أن يخلق الأرض.

وفي «صحيح مسلم»[1] عن عبد الله بن عمرو؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. قال: وكان عرشه على الماء».

* * *

* قوله: **«وَهٰذا التَّقْديرُ التَّابِعُ لِعِلْمِهِ سُبْحانَهُ يَكونُ في مَواضِعَ جُمْلَةً وَتَفْصيلاً»**.

* قوله: «**في مواضع**»؛ يعني: مواضع غير اللوح المحفوظ.

* * *

* ثم بين هٰذه المواضع بقوله:

«فَقَدْ كَتَبَ في اللَّوْحِ المَحْفوظِ ما شاءَ».

«وإذا خَلَقَ جَسَدَ الجَنينِ قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فيهِ؛ بَعَثَ إليهِ مَلَكاً، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِماتٍ، فَيُقالُ لَهُ: اكْتُبْ رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيٌّ أم سَعيدٌ وَنَحْوَ ذٰلكَ».

* فهٰذان موضعان:

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٣).

الأول: اللوح المحفوظ، وسبق دليل ذٰلك وتفصيل القول فيه.

والثاني: الكتابة العمرية التي تكون للجنين في بطن أمه، وسبق دليلها في حديث ابن مسعود رضي الله عنه[1].

والموضع الثالث: ما أشار إليه بقوله: «**ونحو ذٰلك**»، وهو التقدير الحولي الذي يكون في ليلة القدر؛ فإن ليلة القدر يكتب فيها ما يكون في تلك السنة؛ كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان: ٤ ـ ٥].

* * *

* قال المؤلف: «**فهٰذا التقدير قد كان ينكره غلاة القدرية قديماً، ومنكروه اليوم قليل**».

* «**هٰذا التقدير**»؛ يعني: العلم والكتابة، ينكره غلاة القدرية قديماً، ويقولون: إن الله لا يعلم أفعال العبد إلا بعد وجودها، وأنها لم تكتب، ويقولون: إن الأمر أنف؛ أي: مستأنف، لٰكن متأخروهم أقروا بالعلم والكتابة، وأنكروا المشيئة والخلق، وهٰذا بالنسبة لأفعال المخلوقين.

أما بالنسبة لأفعال الله؛ فلا أحد ينكر أن الله عالم بها قبل وقوعها.

---

(١) سبق تخريجه (٢/١٩٦) وهو في «الصحيحين».

وهٰؤلاء الذين ينكرون علم الله بأفعال العبد حكمهم في الشرع أنهم كفار؛ لأنهم كذبوا قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وغيرها من الآيات، وخالفوا المعلوم بالضرورة من الدين.

* * *

● **الدرجة الثانية من درجات الإيمان بالقدر:**

* قوله: «**وَأَمّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ**»؛ يعني: من درجات الإيمان بالقدر.

* **قوله: «فَهِيَ مَشيئَةُ اللهِ النَّافِذَةُ، وَقُدْرَتُهُ الشَّامِلَةُ، وَهُوَ الإيمانُ بِأَنَّ ما شاءَ اللهُ كانَ، وَما لَمْ يَشَأ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ ما في السَّماواتِ وما في الأرض مِن حَرَكَةٍ وَلا سُكونٍ إلاَّ بِمَشيئَةِ اللهِ سُبْحانَهُ».**

* يعني: أن تؤمن بأن مشيئة الله نافذة في كل شيء، سواء كان مما يتعلق بفعله أو يتعلق بأفعال المخلوقين، وأن قدرته شاملة، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

وهذه الدرجة تتضمن شيئين؛ المشيئة والخلق:

ـ أما المشيئة؛ فيجب أن نؤمن بأن مشيئة الله تعالى نافذة في كل شيء، وأن قدرته شاملة لكل شيء من أفعاله وأفعال المخلوقين.

ـ فأما كونها شاملة لأفعاله؛ فالأمر فيها ظاهر.

ـ وأما كونها شاملة لأفعال المخلوقين؛ فلأن الخلق كلهم ملك لله تعالى، ولا يكون في ملكه إلا ما شاء.

* والدليل على هٰذا:

قوله تعالى: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود: ١١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٣].

فهٰذه الآيات تدل على أن أفعال العباد متعلقة بمشيئة الله.

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

وهٰذه تدل على أن مشيئة العبد داخلة تحت مشيئة الله وتابعة لها.

* * *

* قوله: «**لا يَكونُ في مُلْكِهِ ما لا يُريدُ**».

* هٰذه العبارة تحتاج إلى تفصيل: لا يكون في ملكه ما لا يريد بالإرادة الكونية، أما بالإرادة الشرعية؛ فيكون في ملكه ما لا يريد.

وحينئذ؛ نحتاج إلى أن نقسم الإرادة إلى قسمين: إرادة كونية، وإرادة شرعية:

ـ فالإرادة الكونية بمعنى المشيئة، ومثالها قول نوح عليه السلام لقومه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤].

ـ والإرادة الشرعية بمعنى المحبة، ومثالها قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧].

وتختلف الإرادتان في موجبهما وفي متعلقهما:

ـ ففي المتعلق: الإرادة الكونية تتعلق فيما وقع، سواء أحبه أم كرهه، والإرادة الشرعية تتعلق فيما أحبه، سواء وقع أم لم يقع.

ـ وفي موجبهما: الإرادة الكونية يتعين فيها وقوع المراد، والإرادة الشرعية لا يتعين فيها وقوع المراد.

* وعلى هٰذا يكون قول المؤلف: «**ولا يكون في ملكه ما لا يريد**»؛ يعني به: الإرادة الكونية.

* فإن قال قائل: هل المعاصي مرادة لله؟

فالجواب: أما بالإرادة الشرعية؛ فليست مرادة له؛ لأنه لا يحبها، وأما بالإرادة الكونية؛ فهي مرادة له سبحانه؛ لأنها واقعة بمشيئته.

* * *

* قوله: «وَأَنَّهُ سُبْحانَهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ مِنَ المَوْجوداتِ وَالمَعْدوماتِ».

* كل شيء؛ فالله قادر عليه من الموجودات؛ فيعدمها أو يغيرها، ومن المعدومات؛ فيوجدها.

فالقدرة تتعلق في الموجود بإيجاده أو إعدامه أو تغييره، وفي المعدوم بإعدامه أو إيجاده.

فمثلاً؛ كل موجود؛ فالله قادر أن يعدمه، وقادر أن يغيره؛ أي: ينقله من حال إلى حال، وكل معدوم؛ فالله قادر على أن يوجده؛ مهما كان؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠].

* ذكر بعض العلماء استثناء من ذٰلك، وقال: إلا ذاته؛ فليس عليها بقادر! وزعم أن العقل يدل على ذٰلك!!

فنقول: ماذا تريد بأنه غير قادر على ذاته؟

ـ إن أردت أنه غير قادر على أن يعدم نفسه أو يلحقها نقصاً؛ فنحن نوافقك على أن الله لا يلحقه النقص أو العدم، لٰكننا لا نوافقك على أن هٰذا مما تتعلق به القدرة؛ لأن القدرة إنما تتعلق بالشيء الممكن، أما الشيء الواجب أو المستحيل؛ فهٰذا لا تتعلق به القدرة أصلاً؛ لأن الواجب مستحيل العدم، والمستحيل مستحيل الوجود.

ـ وإن أردت بقولك: إنه غير قادر على ذاته: أنه غير قادر

على أنه يفعل ما يشاء؛ فلا يقدر أن يجيء أو نحوه! فهٰذا خطأ، بل هو قادر على ذٰلك، وفاعل له، ولو قلنا: إنه ليس بقادر على مثل هٰذه الأفعال؛ لكان ذٰلك من أكبر النقص الممتنع على الله سبحانه.

وبهٰذا علم أن هٰذا الاستدراك من عموم القدرة في غير محله على كل تقدير.

* وإنما نص المؤلف على هٰذا رداً على القدرية الذين قالوا: إن الله ليس بقادر على فعل العبد!! وإن العبد مستقل بعمله!

ولٰكن ما في الكتاب والسنة من شمول قدرة الله يرد عليهم.

* * *

* قوله: **«فَما مِنْ مَخْلوقٍ في الأرْضِ وَلا في السَّماءِ إلاَّ اللهُ خالِقُهُ سُبْحانَهُ لا خالِقَ غَيْرُهُ وَلا رَبَّ سِواهُ»**.

* وهٰذا صحيح بلا شك.

* ولهٰذا دليل أثري ودليل نظري:

ـ أما الدليل الأثري:

فقد قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ [الزمر: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ * أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٣٦].

فلا يمكن أن يوجد شيء في السماء والأرض إلا الله خالقه وحده.

ولقد تحدى الله العابدين للأصنام تحدياً أمرنا أن نستمع له، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾، ومعلوم أن الذين يدعون من دون الله في القمة عندهم؛ لأنهم اتخذوهم أرباباً؛ فإذا عجز هٰؤلاء القمة عن أن يخلقوا ذباباً، وهو أخس الأشياء وأهونها؛ فما فوقه من باب أولى، بل قال: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ٧٣]؛ فيعجزون حتى عن مدافعة الذباب وأخذ حقهم منه.

فإن قيل: كيف يسلب الذباب هٰذه الأصنام شيئاً؟!

فالجواب: قال بعض العلماء: إن هٰذا على سبيل الفرض؛ يعني: على فرض أن يسلبهم الذباب شيئاً؛ لا يستنقذوه منه. وقال بعضهم: بل على سبيل الواقع؛ فيقع الذباب على هٰذه الأصنام، ويمتص ما فيها من أطياب؛ فلا تستطيع الأصنام أن تخرج ما امتصه الذباب.

وإذا كانت عاجزة عن الدفع عن نفسها، واستنقاذ حقها؛ فهي عن الدفع عن غيرها واستنقاذ حقه أعجز.

والمهم أن الله تعالى خالق كل شيء، وأن لا خالق إلا الله؛ فيجب الإيمان بعموم خلق الله عز وجل، وأنه خالق كل شيء، حتى أعمال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، وعمل الإنسان من الشيء، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]. . . والآيات في هٰذا كثيرة.

وفيه آية خاصة في الموضوع، وهو خلق أفعال العباد:

فقال إبراهيم لقومه: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦].

فـ(ما) مصدرية، وتقدير الكلام: خلقكم وعملكم، وهٰذا نص في أن عمل الإنسان مخلوق لله تعالى.

فإن قيل: ألا يحتمل أن تكون (ما) اسماً موصولاً، ويكون المعنى: خلقكم وخلق الذي تعملونه؟

فكيف يمكن أن نقول إن في الآية دليلاً على خلق أفعال العباد على هذا التقدير أن [ما] موصولة؟

فالجواب: أنه إذا كان المعمول مخلوقاً لله؛ لزم أن يكون عمل الإنسان مخلوقاً؛ لأن المعمول كان بعمل الإنسان؛ فالإنسان هو الذي باشر العمل في المعمول؛ فإذا كان المعمول مخلوقاً لله، وهو فعل العبد؛ لزم أن يكون فعل العبد مخلوقاً، فيكون في الآية دليل على خلق أفعال العباد على كلا الاحتمالين.

ـ وأما الدليل النظري على أن أفعال العبد مخلوقة لله؛ فتقريره أن نقول: إن فعل العبد ناشىء عن أمرين: عزيمة صادقة وقدرة تامة.

مثال ذٰلك: أردت أن أعمل عملاً من الأعمال؛ فلا يوجد هٰذا العمل حتى يكون مسبوقاً بأمرين هما:

أحدهما: العزيمة الصادقة على فعله؛ لأنك لو لم تعزم ما

فعلته.

الثاني: القدرة التامة؛ لأنك لو لم تقدر؛ ما فعلته؛ فالذي خلق فيك هٰذه القدرة هو الله عز وجل، وهو الذي أودع فيك العزيمة، وخالق السبب التام خالق للمسبب.

ـ ووجه ثان نظري: أن نقول: الفعل وصف الفاعل، والوصف تابع للموصوف؛ فكما أن الإنسان بذاته مخلوق لله؛ فأفعاله مخلوقة؛ لأن الصفة تابعة للموصوف.

فتبين بالدليل أن عمل الإنسان مخلوق لله، وداخل في عموم الخلق أثريّاً ونظريّاً، والدليل الأثري قسمان عام وخاص، والدليل النظري له وجهان.

* وقوله: «**لا خالق غيره**»:

* إن قلت: هٰذا الحصر يرد عليه أن هناك خالقاً غير الله؛ فالمصور يعد نفسه خالقاً، بل جاء في الحديث أنه خالق: «فإن المصورين يعذبون؛ يقال لهم: أحيوا ما خلقتم»(1)، وقال عز وجل: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]؛ فهناك خالق، لٰكن الله تعالى هو أحسن الخالقين؛ فما الجواب عن قول المؤلف؟

الجواب: أن الخلق الذي ننسبه إلى الله عز وجل هو الإيجاد وتبديل الأعيان من عين لأخرى؛ فلا أحد يوجد إلا الله عز وجل،

---

(١) سبق تخريجه (١/ ٢٢)، وهو في «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها.

ولا أحد يبدل عيناً إلى عين؛ إلا الله عز وجل، وما قيل: إنه خلق؛ بالنسبة للمخلوق؛ فهو عبارة عن تحويل شيء من صفة إلى صفة؛ فالخشبة مثلاً بدلاً من أن كانت في الشجرة، تحولت بالنجارة إلى باب؛ فتحويلها إلى باب يسمى خلقاً، لٰكنه ليس الخلق الذي يختص به الخالق، وهو الإيجاد من العدم، أو تبديل العين من عين إلى أخرى.

* وقوله: «لا رب سواه»؛ أي: أن الله وحده هو الرب المدبر لجميع الأمور، وهٰذا حصر حقيقي.

* ولٰكن ربما يرد عليه أنه جاء في الأحاديث إثبات الربوبية لغير الله:

ففي لقطة الإبل قال النبي ﷺ: «دعها؛ معها سقاؤها وحذاؤها، ترد الماء، وتأكل الشجر، حتى يجدها ربها»[1]، وربها: صاحبها.

وجاء في بعض ألفاظ حديث جبريل؛ يقول: «إذا ولدت الأمة ربها»[2].

فما هو الجمع بين هٰذا وبين قول المؤلف: «لا رب سواه»؟

نقول: إن ربوبية الله عامة كاملة؛ كل شيء؛ فالله ربه، لا يسأل عما يفعل في خلقه؛ لأن فعله كله رحمة وحكمة، ولهٰذا

---

(١) البخاري (٢٤٢٩)، ومسلم (١٧٢٢) (١)؛ من حديث زيد بن خالد رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يقدر الله عز وجل الجدب والمرض والموت والجروح في الإنسان وفي الحيوان، ونقول: هٰذا غاية الكمال والحكمة. أما ربوبية المخلوق للمخلوق؛ فربوبية ناقصة قاصرة، لا تتجاوز محلها، ولا يتصرف فيها الإنسان تصرفاً تامّاً، بل تصرفه مقيد: إما بالشرع، وإما بالعرف.

* * *

* قوله: «**ومع ذلك؛ فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله، ونهاهم عن معصيته**».

* يعني: ومع عموم خلقه وربوبيته لم يترك العباد هملاً، ولم يرفع عنهم الاختيار، بل أمرهم بطاعته وطاعة رسله، ونهاهم عن معصيته.

وأمره بذٰلك أمر ممكن؛ فالمأمور مخلوق لله عز وجل، وفعله مخلوق لله، ومع ذٰلك؛ يؤمر وينهى.

ولو كان الإنسان مجبراً على عمله؛ لكان أمره أمراً بغير ممكن، والله عز وجل يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ويقول تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وهٰذا يدل على أنهم قادرون على فعل الطاعة، وعلى تجنب المعصية، وأنهم غير مكرهين على ذٰلك.

* * *

* قوله: «**وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَالْمُحْسِنِينَ**

وَالمُقْسِطينَ».

* يعني أن الله عز وجل يحب المحسنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، والمتقين؛ لقوله: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧]، والمقسطين؛ لقوله: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

فهو عز وجل يحب هؤلاء، ومع ذٰلك هو الذي قدر لهم هٰذا العمل الذي يحبه، فكان فعلهم محبوباً إلى الله مراداً له كوناً وشرعاً؛ فالمحسن قام بالواجب والمندوب، والمتقي قام بالواجب، والمقسط اتقى الجور في المعاملة.

* قوله: **«وَيَرْضَى عَنِ الذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصّالِحاتِ وَلا يُحِبُّ الكافِرينَ»**.

* **«يرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات»**: والدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ * جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [البينة: ٧ ـ ٨].

* قوله: **«ولا يحب»** الله عز وجل **«الكافرين»**.

والدليل قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل

عمران: ٣٢].

مع أن الكفر واقع بمشيئته، لكن لا يلزم من وقوعه بمشيئته، أن يكون محبوباً له سبحانه وتعالى.

* قوله: «**ولا يرضى عن القوم الفاسقين**»: والدليل قوله تعالى: ﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

* والفاسق ـ وهو الخارج عن طاعة الله ـ قد يراد به الكافر، وقد يراد به العاصي.

ـ ففي قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ١٨ ـ ٢٠]؛ فالمراد بالفاسق الكافر.

ـ وأما قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]؛ فالمراد بالفاسق العاصي.

* فالله عز وجل لا يرضى عن القوم الفاسقين، لا هٰؤلاء ولا هٰؤلاء، لٰكن الفاسقين بمعنى الكافرين لا يرضى عنهم مطلقاً، وأما الفاسقون بمعنى العصاة؛ فلا يرضى عنهم فيما فسقوا فيه، ويرضى عنهم فيما أطاعوا فيه.

* قوله: «**ولا يأمر بالفحشاء**»: والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾؛ لأنهم إذا فعلوا فاحشة: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾؛ فاحتجوا بأمرين، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾، وسكت عن قولهم: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾؛ لأنه حق لا ينكر، لكن ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ كذب، ولهذا كذبهم وأمر نبيه أن يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، ولم يقل: ولم يجدوا عليها آباءهم؛ لأنهم قد وجدوا عليها آباءهم.

* قوله: «**ولا يرضى لعباده الكفر**»: لقوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، لكن يقدر أن يكفروا، ولا يلزم من تقديره الكفر أن يكون راضياً به سبحانه وتعالى، بل يقدره وهو يكرهه ويسخطه.

* قوله: «**ولا يحب الفساد**»: دليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

* كرر المؤلف مثل هذه العبارات ليبين أنه لا يلزم من إرادته الشيء أن يكون محبوباً له، ولا يلزم من كراهته للشيء أن لا يكون مراداً له بالإرادة الكونية، بل هو عز وجل يكره الشيء ويريده بالإرادة الكونية، ويوقع الشيء ولا يرضى عنه، ولا يريده بالإرادة الشرعية.

* فإن قلت: كيف يوقع ما لا يرضاه وما لا يحبه؟! وهل أحد يكرهه على أن يوقع ما لا يحبه ولا يرضاه؟!

فالجواب: لا أحد يكرهه على أن يوقع ما لا يحبه ولا

يرضاه، وهٰذا الذي يقع من فعله عز وجل وهو مكروه له، هو مكروه له من وجه محبوب له من وجه آخر؛ لِما يترتب عليه من المصالح العظيمة.

فمثلاً؛ الإيمان محبوب لله، والكفر مكروه له، فأوقع الكفر وهو مكروه له؛ لمصالح عظيمة؛ لأنه لولا وجود الكفر؛ ما عرف الإيمان، ولولا وجود الكفر؛ ما عرف الإنسان قدر نعمة الله عليه بالإيمان، ولولا وجود الكفر؛ ما قام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الناس كلهم يكونون على المعروف، ولولا وجود الكفر؛ ما قام الجهاد، ولولا وجود الكفر؛ لكان خلق النار عبثاً؛ لأن النار مثوى الكافرين، ولولا وجود الكفر؛ لكان الناس أمة واحدة، ولم يعرفوا معروفاً ولم ينكروا منكراً، وهٰذا لا شك أنه مخل بالمجتمع الإنساني، ولولا وجود الكفر؛ ما عرفت ولاية الله؛ لأن من ولاية الله أن تبغض أعداء الله وأن تحب أولياء الله.

وكذٰلك يقال في الصحة والمرض؛ فالصحة محبوبة للإنسان وملائمة له، ورحمة الله تعالى فيها ظاهرة، لٰكن المرض مكروه للإنسان، وقد يكون عقوبة من الله له، ومع ذٰلك يوقعه؛ لما في ذٰلك من المصالح العظيمة.

كم من إنسان إذا أسبغ الله عليه النعمة بالبدن والمال والولد والبيت والمركوب؛ ترفَّع ورأى أنه مستغن بما أنعم الله به عليه عن طاعة الله عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ ـ ٧]، وهٰذه مفسدة عظيمة؛ فإذا أراد الله أن

يرد هٰذا الإنسان إلى مكانه؛ ابتلاه، حتى يرجع إلى الله، وشاهد هٰذا قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وأنت أيها الإنسان إذا فكرت هٰذا التفكير الصحيح في تقديرات الله عز وجل؛ عرفت ما له سبحانه وتعالى من الحكمة فيما يقدره من خير أو شر، وأن الله سبحانه وتعالى يخلق ما يكرهه ويقدر ما يكرهه لمصالح عظيمة؛ قد تحيط بها، وقد لا تحيط بها ويحيط بها غيرك، وقد لا يحيط بها لا أنت ولا غيرك.

* فإن قيل: كيف يكون الشيء مكروهاً لله ومراداً له؟

فالجواب: أنه لا غرابة في ذٰلك؛ فها هو الدواء المر طعماً الخبيث رائحة يتناوله المريض وهو مرتاح؛ لما يترتب عليه من مصلحة الشفاء، وها هو الأب يمسك بابنه المريض ليكويه الطبيب، وربما كواه هو بنفسه، مع أنه يكره أشد الكره أن يحرق ابنه بالنار.

* * *

* قوله: «**وَالعِبادُ فاعِلونَ حَقيقَةً، وَاللهُ خالِقُ أفعالِهِم**».

* هٰذا صحيح؛ فالعبد هو المباشر لفعله حقيقة، والله خالق فعله حقيقة، وهٰذه عقيدة أهل السنة، وقد سبق تقريرها بالأدلة.

* وخالفهم في هٰذا الأصل طائفتان:

الطائفة الأولى: القدرية من المعتزلة وغيرهم؛ قالوا: إن العباد فاعلون حقيقة، والله لم يخلق أفعالهم.

الطائفة الثانية: الجبرية من الجهمية وغيرهم؛ قالوا: إن الله خالق أفعالهم، وليسوا فاعلين حقيقة، لٰكن أضيف الفعل إليهم من باب التجوز، وإلا؛ فالفاعل حقيقة هو الله.

وهٰذا القول يؤدي إلى القول بوحدة الوجود، وأن الخلق هو الله، ثم يؤدي إلى قول من أبطل الباطل؛ لأن العباد منهم الزاني ومنهم السارق ومنهم شارب الخمر ومنهم المعتدي بالظلم؛ فحاشا أن تكون هٰذه الأفعال منسوبة إلى الله!! وله لوازم باطلة أخرى.

* وبهٰذا تبين أن في قول المؤلف: «**والعباد فاعلون حقيقة، والله خالق أفعالهم**»: رداً على الجبرية والقدرية.

* * *

* قوله: «**وَالعَبْدُ هُوَ المُؤْمِنُ وَالكافِرُ، وَالبَرُّ وَالفاجِرُ، وَالمُصَلِّي وَالصّائِمُ**».

* يعني: أن الوصف بالإيمان والكفر والبر والفجور والصلاة والصيام وصف للعبد، لا لغيره؛ فهو المؤمن، وهو الكافر، وهو البار، وهو الفاجر، وهو المصلي، وهو الصائم... وكذٰلك هو المزكي، وهو الحاج، وهو المعتمر... وهٰكذا، ولا يمكن أن يوصف بما ليس من فعله حقيقة.

* وهٰذه الجملة تتضمن الرد على الجبرية.

* والمراد بالعبودية هنا العبودية العامة؛ لأن العبودية نوعان: عامة وخاصة:

ـ فالعامة: هي الخضوع لأمر الله الكوني؛ كقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٣].

ـ والعبودية الخاصة: هي الخضوع لأمر الله الشرعي، وهي خاصة بالمؤمنين؛ كقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، وهٰذه أخص من الأولى.

* * *

* قوله: «**وَلِلعِبادِ قُدْرَةٌ عَلى أعْمالِهِم، وَلَهُم إرادَةٌ، وَاللهُ خالِقُهُمْ وَخالِقُ قُدْرَتِهِم وَإرادَتِهِم**».

* «**للعباد قدرة على أعمالهم وإرادة**»؛ خلافاً للجبرية القائلين بأنهم لا قدرة لهم ولا إرادة، بل هم مجبرون عليها.

* «**والله خالقهم وخالق إرادتهم وقدرتهم**»؛ خلافاً للقدرية القائلين بأن الله ليس خالقاً لفعل العبد ولا لإرادته وقدرته.

* وكأن المؤلف يشير بهٰذه العبارة إلى وجه كون فعل العبد مخلوقاً لله تعالى؛ بأن فعله صادر عن قدرة وإرادة، وخالق القدرة والإرادة هو الله، وما صدر عن مخلوق؛ فهو مخلوق.

ويشير بها أيضاً إلى كون فعل العبد اختيارياً لا إجبارياً؛ لأنه صادر عن قدرة وإرادة؛ فلولا القدرة والإرادة؛ لم يصدر منه

الفعل، ولولا الإرادة؛ لم يصدر منه الفعل، ولو كان الفعل إجبارياً؛ ما كان من شرطه القدرة والإرادة.

* * *

ثم استدل المؤلف لذلك، فقال: «**كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨ - ٢٩]**».

* فقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾: فيها رد على الجبرية.

* وفي قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾: رد على القدرية.

* * *

* قوله: «**وَهٰذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ القَدَرِ**»؛ أي: درجة المشيئة والخلق.

* «**يُكَذِّبُ بِها عامَّةُ القَدَرِيَّةِ، الذينَ سَمَّاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ مَجوسَ هٰذِهِ الأمَّةِ**».

* «**عامة القدرية**»؛ أي: أكثرهم يكذبون بهٰذه الدرجة، ويقولون: إن الإنسان مستقل بعمله، وليس لله فيه مشيئة ولا خلق.

* و«**سماهم النبي ﷺ مجوس هٰذه الأمة**»[1]؛ لأن المجوس

---

(١) لما رواه الإمام أحمد (٢/٨٦) عن ابن عمر، وأبو داود (٤٦٩١)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٢/٦٤١)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٤٥) =

يقولون: إن للحوادث خالقين: خالقاً للخير، وخالقاً للشر! فخالق الخير هو النور، وخالق الشر هو الظلمة؛ فالقدرية يشبهون هٰؤلاء المجوس من وجه؛ لأنهم يقولون: إن الحوادث نوعان: حوادث من فعل الله؛ فهٰذه خلق الله، وحوادث من فعل العباد؛ فهٰذه للعباد استقلالاً، وليس لله تعالى فيها خلق.

* * *

* قوله: «**وَيَغْلو فيها قَوْمٌ مِنْ أهْلِ الإثْباتِ، حتَّى سَلَبوا العَبْدَ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيارَهُ، وَيُخْرِجونَ عَن أفْعالِ اللهِ وَأحْكامِهِ حِكَمَها وَمَصالِحَها**».

* «**يغلو فيها**»؛ أي: في هٰذه الدرجة.

* «**قوم من أهل الإثبات**»؛ أي: إثبات القدر.

* وهٰؤلاء القوم هم الجبرية؛ حيث إنهم سلبوا العبد قدرته واختياره، وقالوا: إنه مجبر على عمله؛ لأنه مكتوب عليه.

* قوله: «**ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها**»: «**يخرجون**»: معطوفة على قوله: «يغلو».

* ووجه كونهم يخرجون الحكم والمصالح عن أفعال الله

= عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل أمة مجوس، ومجوس أمتي الذين يقولون لا قدر»، وخرجه الآجري في «الشريعة» (١٩٠)، والطبراني في «الأوسط» كما في «مجمع الزوائد» (٧/٢٠٧). والحديث حسنه الألباني بمجموع طرقه في «السنة» (١٤٥) لابن أبي عاصم.

وأحكامه: أنهم لا يثبتون لله حكمة أو مصلحة؛ فهو يفعل ويحكم لمجرد مشيئة، ولهٰذا يثيب المطيع، وإن كان مجبراً على الفعل، ويعاقب العاصي، وإن كان مجبراً على الفعل.

ومن المعلوم أن المجبر لا يستحق الحمد على محمود، ولا الذم على مذموم؛ لأنه بغير اختياره.

* وهنا مسألة يحتج بها كثير من العصاة: إذا أنكرت عليه المنكر؛ قال: هٰذا هو ما قدره الله عليه؛ أتعترض على الله؟! فيحتج بالقدر على معاصي الله، ويقول: أنا عبد مسير! ثم يحتج أيضاً بحديث: «تحاج آدم وموسى، فقال له موسى: أنت أبونا، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة؟! فقال له آدم: أنت موسى! اصطفاك الله بكلامه، وكتب لك التوراة بيده! أتلومني على أمر قدره الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟!». قال النبي عليه الصلاة والسلام: «فحج آدم موسى»؛ قالها ثلاثاً[1]. وعند أحمد: «فحجه آدم»[2]. وهي صريحة في أن آدم غلب موسى بالحجة.

قال: فهٰذا آدم لما اعترض عليه موسى؛ احتج عليه بالقدر، وآدم نبي، وموسى رسول، فسكت موسى؛ فلماذا تحتج عليَّ؟

والجواب على حديث آدم:

ـ أما على رأي القدرية؛ فإن طريقتهم أن أخبار الآحاد لا

---

(١) رواه: البخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٢٦٨).

توجب اليقين؛ قالوا: وإذا عارضت العقل؛ وجب أن ترد. وبناء على ذٰلك قالوا: هٰذا لا يصح ولا نقبله ولا نسلم به.

ـ أما الجبرية؛ فقالوا: إن هٰذا هو الدليل، ودلالته حق، ولا يلام العبد على ما قدر عليه.

ـ أما أهل السنة والجماعة؛ فقالوا: إن آدم عليه الصلاة والسلام فعل الذنب، وصار ذنبه سبباً لخروجه من الجنة، لٰكنه تاب من الذنب، وبعد توبته اجتباه الله وتاب عليه وهداه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، ومن المحال أن موسى عليه الصلاة والسلام ـ وهو أحد أولي العزم من الرسل ـ يلوم أباه على شيء تاب منه ثم اجتباه الله بعده وتاب عليه وهداه، وإنما اللوم على المصيبة التي حصلت بفعله، وهي إخراج الناس ونفسه من الجنة؛ فإن سبب هٰذا الإخراج هو معصية آدم؛ على أن آدم عليه الصلاة والسلام لا شك أنه لم يفعل هٰذا ليخرج من الجنة حتى يلام؛ فكيف يلومه موسى؟!

وهٰذا وجه ظاهر في أن موسى عليه السلام لم يرد لوم آدم على فعل المعصية، إنما علىٰ المصيبة التي هي من قدر الله، وحينئذ يتبين أنه لا حجة بهٰذا الحديث للجبرية.

فنحن نقبله ولا ننكره كما فعل القدري، ولٰكننا لا نحتج به على المعصية؛ كما فعل الجبري.

وهناك جواب آخر أشار إليه ابن القيم رحمه الله، وقال: الإنسان إذا فعل المعصية واحتج الإنسان بالقدر عليها بعد التوبة

منها؛ فلا بأس به.

ومعناه: أنه لو لامك أحد على فعل المعصية بعد أن تبت منها، وقلت: هٰذا بقضاء الله وقدره، وأستغفر الله وأتوب إليه... وما أشبه ذٰلك؛ فإنه لا حرج عليك في هٰذا.

فآدم احتج بالقدر بعد أن تاب من المعصية، وهٰذا لا شك أنه وجه حسن، لٰكن يبعده أن موسى لا يمكن أن يلوم آدم على معصية تاب منها.

ورجح ابن القيم قوله هٰذا بما جرى للنبي عليه الصلاة والسلام حين طرق علياً وفاطمة رضي الله عنهما ليلة، فقال: «ألا تصليان؟». فقال علي رضي الله عنه: يا رسول الله! أنفسنا بيد الله؛ فإذا شاء أن يبعثنا؛ بعثنا. فانصرف النبي ﷺ يضرب فخذه وهو يقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤][1].

وعندي أن في الاستدلال بهٰذا الحديث نظراً؛ لأن علياً رضي الله عنه احتج بالقدر بنومه، والإنسان النائم له أن يحتج بالقدر؛ لأن فعله لا ينسب إليه، ولهٰذا قال الله تعالى في أصحاب الكهف: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٨]؛ فنسب التقليب إليه، مع أنهم هم الذين يتقلبون، لٰكن لما كان بغير إرادة منهم؛ لم يضفه إليهم.

والوجه الأول في الجواب عن حديث آدم وموسى ـ وهو ما

---

(١) رواه: البخاري (١١٢٧)، ومسلم (٧٧٥)؛ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية ـ هو الصواب.

* فإذاً؛ لا حجة للجبري بهٰذا الحديث، ولا للعصاة الذين يحتجون بهٰذا الحديث لاحتجاجهم بالقدر.

فنقول له: إن احتجاجك بالقدر على المعاصي يبطله السمع والعقل والواقع:

ـ فأما السمع؛ فقد قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ قالوا ذٰلك احتجاجاً بالقدر على المعصية، فقال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ يعني: كذبوا الرسل واحتجوا بالقدر ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ﴾، وهٰذا يدل على أن حجتهم باطلة؛ إذ لو كانت حجة مقبولة؛ ما ذاقوا بأس الله.

ـ ودليل سمعي آخر: قال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ...﴾ [النساء: ١٦٣] إلى قوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ﴾ [النساء: ١٦٥]، ووجه الدلالة من هٰذه الآية أنه لو كان القدر حجة؛ ما بطلت بإرسال الرسل، وذٰلك لأن القدر لا يبطل بإرسال الرسل، بل هو باق.

فإذا قال قائل: يرد عليك في الدليل الأول قول الله تبارك وتعالى في سورة الأنعام: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ * وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ

أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٦ ـ ١٠٧]؛ فهنا قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾؛ فنقول: إن قول الإنسان عن الكفار: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾: قول صحيح وجائز، لٰكن قول المشرك: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ يريد أن يحتج بالقدر على المعصية قول باطل، والله عز وجل إنما قال لرسوله هٰكذا تسلية له وبياناً أن ما وقع فهو بمشيئة الله.

ـ وأما الدليل العقلي على بطلان احتجاج العاصي بالقدر على معصية الله أن نقول له: ما الذي أعلمك بأن الله قدر لك أن تعصيه قبل أن تعصيه؟ فنحن جميعاً لا نعلم ما قدر الله إلا بعد أن يقع، أما قبل أن يقع؛ فلا ندري ماذا يراد بنا؛ فنقول للعاصي: هل عندك علم قبل أن تمارس المعصية أن الله قدر لك المعصية؟ سيقول: لا. فنقول: إذاً؛ لماذا لم تقدر أن الله قدر لك الطاعة وتطع الله؛ فالباب أمامك مفتوح؛ فلماذا لم تدخل من الباب الذي تراه مصلحة لك؛ لأنك لا تعلم ما قدر لك.واحتجاج الإنسان بحجة على أمر فعله قبل أن تتقدم حجته على فعله احتجاج باطل؛ لأن الحجة لا بد أن تكون طريقاً يمشي به الإنسان؛ إذ إن الدليل يتقدم المدلول.

ونقول له أيضاً: ألست لو ذكر لك أن لمكة طريقين أحدهما طريق معبد آمن، والثاني طريق صعب مخوف؛ ألست تسلك الآمن؟ سيقول: بلى. فنقول: إذاً؛ لماذا تسلك في عبادتك الطريق المخوف المحفوف بالأخطار، وتدع الطريق الآمن الذي تكفل الله

تعالى بالأمن لمن سلكه؛ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ [الأنعام: ٨٢]، وهٰذه حجة واضحة.

ونقول له: لو أعلنت الحكومة عن وظيفتين: إحداهما بالمرتبة العالية، والثانية بالمرتبة السفلى؛ فأيهما تريد؟ بلا شك ستريد المرتبة العالية، وهٰذا يدل على أنك تأخذ بالأكمل في أمور دنياك؛ فلماذا لم تأخذ بالأكمل في أمور دينك؟! وهل هٰذا إلا تناقض منك؟!

وبهٰذا يتبين أنه لا وجه أبداً لاحتجاج العاصي بالقدر على معصية الله عز وجل.

* * *

فصل
في الإيمان

* قوله: «**فَصْلٌ: وَمِنْ أصولِ أهْلِ السُّنَّةِ وَالجَماعَةِ أنَّ الدِّينَ وَالإيمانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ**».

* «**الدين**»: هو ما يدان به الإنسان، أو يدين به؛ فيطلق على العمل ويطلق على الجزاء:

ففي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٨ ـ ١٩]؛ فالمراد بالدين في هٰذه الآية: الجزاء.

وفي قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣]؛ أي: عملاً تتقربون به إلى الله.

ويقال: كما تَدينُ تُدان؛ أي: كما تعمل تجازى.

والمراد بالدين في كلام المؤلف: العمل.

* وأما «**الإيمان**»؛ فأكثر أهل العلم يقولون: إن الإيمان في

اللغة التصديق.

ولٰكن في هٰذا نظر؛ لأن الكلمة إذا كانت بمعنى الكلمة؛ فإنها تتعدى بتعديتها، ومعلوم أن التصديق يتعدى بنفسه، والإيمان لا يتعدى بنفسه؛ فتقول مثلاً: صدقته، ولا تقول: آمنته! بل تقول: آمنت به. أو: آمنت له. فلا يمكن أن نفسر فعلاً لازماً لا يتعدى إلا بحرف الجر بفعل متعد ينصب المفعول به بنفسه، ثم إن كلمة (صدقت) لا تعطي معنى كلمة (آمنت)؛ فإن (آمنت) تدل على طمأنينة بخبره أكثر من (صدقت).

ولهٰذا؛ لو فسر الإيمان بالإقرار؛ لكان أجود؛ فنقول: الإيمان: الإقرار، ولا إقرار إلا بتصديق؛ فتقول: أقرَّ به؛ كما تقول: آمن به، وأقرَّ له؛ كما تقول: آمن له.

هٰذا في اللغة.

* وأما في الشرع؛ فقال المؤلف: «**قول وعمل**».

* وهٰذا تعريف مجمل فصله المؤلف بقوله: «**قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح**».

* فجعل المؤلف للقلب قولاً وعملاً، وجعل للسان قولاً وعملاً.

ـ أما قول اللسان؛ فالأمر فيه واضح، وهو النطق، وأما عمله؛ فحركاته، وليست هي النطق، بل النطق ناشىء عنها إن سلمت من الخرس.

ـ وأما قول القلب؛ فهو اعترافه وتصديقه. وأما عمله؛ فهو عبارة عن تحركه وإرادته؛ مثل الإخلاص في العمل؛ فهٰذا عمل قلب، وكذٰلك التوكل والرجاء والخوف؛ فالعمل ليس مجرد الطمأنينة في القلب، بل هناك حركة في القلب.

ـ وأما عمل الجوارح؛ فواضح؛ ركوع، وسجود، وقيام، وقعود، فيكون عمل الجوارح إيماناً شرعاً؛ لأن الحامل لهٰذا العمل هو الإيمان.

* فإذا قال قائل: أين الدليل على أن الإيمان يشمل هٰذه الأشياء؟

قلنا: قال النبي ﷺ: «الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره»[1]؛ فهٰذا قول القلب. أما عمل القلب واللسان والجوارح؛ فدليله قول النبي ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة: أعلاها: قول: لا إلٰه إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[2]؛ فهٰذا قول اللسان وعمله وعمل الجوارح، والحياء عمل قلبي، وهو انكسار يصيب الإنسان ويعتريه عند وجود ما يستلزم الحياء.

فتبين بهٰذا أن الإيمان يشمل هٰذه الأشياء كلها شرعاً.

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٥٤)، وهو عند مسلم (٨).

(٢) رواه مسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة بهذا اللفظ، وقد أخرجه البخاري (٩) بلفظ: «الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان».

ويدل لذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ قال المفسرون[1]: أي: صلاتكم إلى بيت المقدس؛ فسمى الله تعالى الصلاة إيماناً؛ مع أنها عمل جوارح وعمل قلب وقول لسان.

هٰذا هو مذهب أهل السنة والجماعة.

* وشموله لهٰذه الأشياء الأربعة لا يعني أنه لا يتم إلا بها، بل قد يكون الإنسان مؤمناً مع تخلف بعض الأعمال، لٰكنه ينقص إيمانه بقدر ما نقص من عمله.

* وخالف أهل السنة في هٰذا طائفتان بدعيتان متطرفتان:

الطائفة الأولى: المرجئة: يقولون: إن الإيمان هو الإقرار بالقلب، وما عدا ذٰلك؛ فليس من الإيمان!!

ولهٰذا كان الإيمان لا يزيد ولا ينقص عندهم؛ لأنه إقرار القلب، والناس فيه سواء؛ فالإنسان الذي يعبد الله آناء الليل والنهار كالذي يعصي الله آناء الليل والنهار عندهم، ما دامت معصيته لا تخرجه من الدين!!

فلو وجدنا رجلاً يزني ويسرق ويشرب الخمر ويعتدي على الناس، ورجلاً آخر متقياً لله بعيداً عن هٰذه الأشياء كلها؛ لكانا عند المرجئة في الإيمان والرجاء سواء؛ كل منهما لا يعذب؛ لأن الأعمال غير داخلة في مسمى الإيمان.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ١٦٧)، و«الدر المنثور» (١/ ٢٦٨).

الطائفة الثانية: الخوارج والمعتزلة؛ قالوا: إن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، وأنها شرط في بقائه، فمن فعل معصية من كبائر خرج من الإيمان. لٰكن الخوارج يقولون: إنه كافر، والمعتزلة يقولون: هو في منزلة بين منزلتين؛ فلا نقول: مؤمن، ولا نقول: كافر، بل نقول: خرج من الإيمان، ولم يدخل في الكفر، وصار في منزلة بين منزلتين.

هٰذه أقوال الناس في الإيمان.

* * *

* قوله: «**وَأَنَّ الإيمانَ يَزيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالمَعْصِيَةِ**».

* هٰذا معطوف على قوله: «أن الدين...» إلخ؛ أي: أن من أصول أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص.

* ويستدلون لذٰلك بأدلة من الكتاب والسنة:

ـ فمن الكتاب: قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقوله تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، وهٰذا صريح في ثبوت الزيادة.

ـ وأما النقص؛ فقد ثبت في «الصحيحين»[(١)] أن النبي ﷺ وعظ النساء وقال لهن: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب

---

(١) رواه: البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٧٩)؛ عن ابن عمر رضي الله عنهما.

للب الرجل الحازم من إحداكن»؛ فأثبت نقص الدين.

ثم لو فرض أنه لم يوجد نص في ثبوت النقص؛ فإن إثبات الزيادة مستلزم للنقص؛ فنقول: كل نص يدل على زيادة الإيمان؛ فإنه متضمن للدلالة على نقصه.

* **وأسباب زيادة الإيمان أربعة:**

الأول: معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته؛ فإنه كلما ازداد الإنسان معرفة بالله وأسمائه وصفاته؛ ازداد إيمانه.

الثاني: النظر في آيات الله الكونية والشرعية:

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وكلما ازداد الإنسان علماً بما أودع الله تعالى في الكون من عجائب المخلوقات ومن الحكم البالغات؛ ازداد إيماناً بالله عز وجل، وكذٰلك النظر في آيات الله الشرعية يزيد الإنسان إيماناً بالله عز وجل؛ لأنك إذا نظرت إلى الآيات الشرعية، وهي الأحكام التي جاءت بها الرسل؛ وجدت فيها ما يبهر العقول من الحكم البالغة والأسرار العظيمة التي تعرف بها أن هٰذه الشريعة نزلت من عند الله، وأنها مبنية على العدل والرحمة، فتزداد بذٰلك إيماناً.

الثالث: كثرة الطاعات وإحسانها؛ لأن الأعمال داخلة في الإيمان، وإذا كانت داخلة فيه؛ لزم من ذٰلك أن يزيد بكثرتها.

السبب الرابع: ترك المعصية تقرباً إلى الله عز وجل؛ فإن الإنسان يزداد بذلك إيماناً بالله عز وجل.

*** أسباب نقص الإيمان أربعة**:

الأول: الإعراض عن معرفة الله تعالى وأسمائه وصفاته.

الثاني: الإعراض عن النظر في الآيات الكونية والشرعية؛ فإن هٰذا يوجب الغفلة وقسوة القلب.

الثالث: قلة العمل الصالح، ويدل لذٰلك قول النبي ﷺ في النساء: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للُبِّ الرجل الحازم من إحداكن». قالوا: يا رسول الله! كيف نقصان دينها؟ قال: «أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟»[١].

الرابع: فعل المعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

* وخالف أهل السنة والجماعة في القول بالزيادة والنقصان طائفتان: الطائفة الأولى: المرجئة، والطائفة الثانية: الخوارج والمعتزلة.

الطائفة الأولى: المرجئة: قالوا: إن الإيمان لا يزيد ولا

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٢٣٣)، وهو في «الصحيحين».

ينقص؛ لأن الأعمال ليست من الإيمان، حتى يزيد بزيادتها وينقص بنقصانها؛ فالإيمان هو إقرار القلب، والإقرار لا يزيد ولا ينقص.

ونحن نرد عليهم فنقول:

أولاً: إخراجكم الأعمال من الإيمان ليس بصحيح؛ فإن الأعمال داخلة في الإيمان، وقد سبق ذكر الدليل.

ثانياً: قولكم: إن الإقرار بالقلب لا يختلف زيادة ونقصاً: ليس بصحيح، بل الإقرار بالقلب يتفاضل؛ فلا يمكن لأحد أن يقول: إن إيماني كإيمان أبي بكر!! بل يتعدى ويقول: إن إيماني كإيمان الرسول عليه الصلاة والسلام!!

ثم نقول: إن الإقرار بالقلب يقبل التفاضل؛ فإقرار القلب بخبر الواحد ليس كإقراره بخبر اثنين، وإقراره بما سمع ليس كإقراره بما شاهد؛ ألم تسمعوا قول إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ فهٰذا دليل على أن الإيمان الكائن في القلب يقبل الزيادة والنقص.

ولهٰذا قسم العلماء درجات اليقين ثلاثة أقسام: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين؛ قال الله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥ ـ ٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الحاقة: ٥١].

الطائفة الثانية المخالفة لأهل السنة طائفة الوعيدية، وهٰذه الخوارج والمعتزلة، وسموا وعيدية؛ لأنهم يقولون بأحكام الوعيد

دون أحكام الوعد؛ أي: يغلبون نصوص الوعيد على نصوص الوعد، فيخرجون فاعل الكبيرة من الإيمان، لٰكن الخوارج يقولون: إنه خارج من الإيمان داخل في الكفر، والمعتزلة يقولون: خارج من الإيمان غير داخل في الكفر، بل هو في منزلة بين منزلتين.

ومناقشة هاتين الطائفتين المرجئة والوعيدية في الكتب المطولات.

* * *

* قوله: «**وَهُمْ مَعَ ذٰلِكَ**»؛ أي: مع قولهم: إن الإيمان قول وعمل.

* «**لا يُكَفِّرونَ أَهْلَ القِبْلَةِ بِمُطْلَقِ المَعاصي وَالكَبائِرِ**».

* أهل القبلة هم المسلمون، وإن كانوا عصاة؛ لأنهم يستقبلون قبلة واحدة، وهي الكعبة.

* فالمسلم عند أهل السنة والجماعة لا يكفر بمطلق المعاصي والكبائر.

* وتأمل قول المؤلف: «**بمطلق المعاصي**»، ولم يقل: بالمعاصي والكبائر؛ لأن المعاصي منها ما يكون كفراً، وأما مطلق المعصية؛ فلا يكون كفراً.

والفرق بين الشيء المطلق ومطلق الشيء: أن الشيء المطلق يعني الكمال، ومطلق الشيء؛ يعني: أصل الشيء.

فالمؤمن الفاعل للكبيرة عنده مطلق الإيمان؛ فأصل الإيمان موجود عنده، لٰكن كماله مفقود.

فكلام المؤلف رحمه الله دقيق جدّاً.

* قوله: «**كما يفعله الخوارج**»؛ يعني: الذين يقولون: إن فاعل الكبيرة كافر، ولهٰذا خرجوا على المسلمين، واستباحوا دماءهم وأموالهم.

* قوله: «**بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي**»؛ يعني: أن الأخوة بين المؤمنين ثابتة! ولو مع المعصية؛ فالزاني أخ للعفيف، والسارق أخ للمسروق منه، والقاتل أخ للمقتول.

* * *

* ثم استدل المؤلف لذٰلك فقال: «**كَمَا قالَ سُبْحانَهُ في آيَةِ القِصاصِ**: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨]»:

* آية القصاص هي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى . . .﴾ إلى قوله: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ . . .﴾ الآية، والمراد بـ﴿أَخِيهِ﴾ هو المقتول.

ووجه الدلالة من هٰذه الآية على أن فاعل الكبيرة لا يكفر أن الله سمى المقتول أخاً للقاتل، مع أن قتل المؤمن كبيرة من كبائر الذنوب.

* «**وقال**: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ

بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين * إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم﴾ [الحجرات: ٩ ـ ١٠]».

وهٰذا دليل آخر لقول أهل السنة: إن فاعل الكبيرة لا يخرج من الإيمان.

* ﴿اقتتلوا﴾ جمع، و﴿بينهما﴾ مثنى، و﴿طائفتان﴾ مثنى؛ فكيف يكون مثنى وجمع ومثنى آخر والمرجع واحد؟!

نقول: لأن قوله: ﴿طائفتان﴾: الطائفة عدد كبير من الناس، فيصح أن أقول: اقتتلوا، وشاهد هٰذا قوله تعالى: ﴿ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك﴾ [النساء: ١٠٢]، ولم يقل: لم تصل. فالطائفة أمة وجماعة، ولهٰذا عاد الضمير إليها جمعاً؛ فيكون الضمير في قوله: ﴿اقتتلوا﴾ عائداً إلى المعنى، وفي قوله: ﴿بينهما﴾ عائداً إلى اللفظ.

فهاتان الطائفتان من المؤمنين اقتتلوا، وحمل السلاح بعضهم على بعض، وقتال المؤمن للمؤمن كفر، ومع هٰذا قال الله تعالى بعد أن أمر بالصلح بينهما للطائفة الثالثة التي لم تدخل القتال: ﴿فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين * إنما المؤمنون إخوة﴾ [الحجرات: ٩ ـ ١٠]؛ فجعل الله تعالى الطائفة المصلحة إخوة للطائفتين المقتتلتين.

وعلى هٰذا؛ ففي الآية دليل على أن الكبائر لا تخرج من

الإيمان.

* وعلى هٰذا؛ لو مررت بصاحب كبيرة؛ فإني أسلم عليه؛ لأن النبي ﷺ ذكر من حقوق المسلم على المسلم: «إذا لقيته؛ فسلم عليه»[1]، وهٰذا الرجل ما زال مسلماً، فأسلم عليه؛ إلا إذا كان في هجره مصلحة؛ فحينئذ أهجره للمصلحة؛ كما جرى لكعب ابن مالك وصاحبيه الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، فهجرهم المسلمون خمسين ليلة حتى تاب الله عليهم[2].

* وهل نحبه على سبيل الإطلاق أو نكرهه على سبيل الإطلاق؟

نقول: لا هٰذا ولا هٰذا؛ نحبه بما معه من الإيمان، ونكرهه بما معه من المعاصي، وهٰذا هو العدل.

* * *

* قوله: **«ولا يسلبون الفاسق المِلِّي الإسلام بالكلية»**:

* **«الفاسق»**: هو الخارج عن الطاعة.

* والفسق ـ كما أشرنا إليه سابقاً ـ ينقسم إلى فسق أكبر مخرج عن الإسلام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠]، وفسق أصغر ليس مخرجاً عن الإسلام؛

---

(١) رواه: البخاري (١٢٤٠)، ومسلم (٢١٦٢)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه، واللفظ لمسلم.

(٢) قصة كعب بن مالك؛ رواها البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ [الحجرات: ٦].

* والفاسق الذي لا يخرج من الإسلام هو الفاسق الملي، وهو من فعل كبيرة، أو أصر على صغيرة.

ولهٰذا قال المؤلف: «**المِلِّي**»؛ يعني: المنتسب إلى الملة الذي لم يخرج منها.

فأهل السنة والجماعة لا يسلبون الفاسق الملي الإسلام بالكلية؛ فلا يمكن أن يقولوا: إن هٰذا ليس بمسلم، لٰكن يمكن أن يقولوا: إن هٰذا ناقص الإسلام أو ناقص الإيمان.

* قوله: «**ولا يخلدونه في النار**»: معطوف على قوله: «ولا يسلبون»: وعلى هٰذا يكون قوله: «كما تقول المعتزلة»: عائداً للأمرين؛ لأن المعتزلة يسلبونه الإسلام ويخلدونه في النار، وإن كانوا لا يطلقون عليه الكفر.

* قوله: «**بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان المطلق**»: مراد المؤلف بـ«**المطلق**» هنا؛ يعني: إذا أطلق الإيمان؛ فالوصف يعود إلى الاسم لا إلى الإيمان؛ كما سيتبين من كلام المؤلف رحمه الله؛ فيكون المراد به مطلق الإيمان الشامل للفاسق والعدل.

* قوله: «**كما في قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]**»؛ فإن المؤمنة هنا يدخل فيه الفاسق.

فلو أن إنساناً اشترى رقيقاً فاسقاً وأعتقه في كفارة؛ أجزأه؛

مع أن الله قال: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾؛ فكلمة ﴿مُّؤْمِنَةٍ﴾ تشمل الفاسق وغيره.

* قوله: «**وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق**»؛ أي: في مطلق اسم الإيمان.

* «**كما في قوله تعالى**: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [**الأنفال: ٢**]»؛ فـ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر؛ يعني: ما المؤمنون إلا هؤلاء، والمراد بالمؤمنين؛ يعني: ذوي الإيمان المطلق الكامل.

فلا يدخل في المؤمنين هنا الفساق؛ لأن الفاسق لو تلوت عليه آيات الله؛ ما زادته إيماناً، ولو ذكرت الله له؛ لم يَوْجَل قلبه.

فبين المؤلف أن الإيمان قد يراد به مطلق الإيمان، وقد يراد به الإيمان المطلق.

فإذا رأينا رجلاً: إذا ذكر الله؛ لم يوجل قلبه، وإذا تليت عليه آياته؛ لم يزدد إيماناً؛ فيصح أن نقول: إنه مؤمن، ويصح أن نقول: ليس بمؤمن؛ فنقول: مؤمن؛ أي: معه مطلق الإيمان؛ يعني: أصله، وليس بمؤمن؛ أي: ليس معه الإيمان الكامل.

* قوله: «**وقوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها**

أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن»[1].

هٰذا مثال ثان للإيمان الذي يراد به الإيمان المطلق؛ أي: الكامل.

* قوله ﷺ: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»**: هنا نفى عنه الإيمان الكامل حين زناه، أما بعد أن يفرغ من الزنى؛ فقد يؤمن؛ فقد يلحقه الخوف من الله بعد أن يتم الزنى فيتوب، لٰكن حين إقدامه على الزنى لو كان عنده إيمان كامل؛ ما أقدم عليه، بل إيمانه ضعيف جدّاً حين أقدم عليه.

* وتأمل قوله: **«حين يزني»**: احترازاً من أنه قبل الزنى وبعده تختلف حاله؛ لأن الإنسان ما دام لم يفعل الفاحشة، ولو هم بها؛ فهو على أمل ألا يقدم عليها.

* وقوله: **«ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»**؛ أي: كامل الإيمان؛ لأن الإيمان يردعه عن سرقته.

* وقوله: **«ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»**؛ أي: كامل الإيمان.

* **«ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم»**: **«ذات شرف»**؛ أي: ذات قيمة عند الناس، ولهٰذا يرفعون إليه أبصارهم؛ فلا ينتهبها حين ينتهبها وهو مؤمن؛ أي: كامل الإيمان.

---

(١) رواه: البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

هٰذه أربعة أشياء: الزنى (وهو الجماع في فرج حرام)، والسرقة (وهي أخذ المال المحترم على وجه الخفية من حرز مثله)، وشرب الخمر (والمراد تناوله بأكل أو شرب، والخمر كل ما أسكر على وجه اللذة والطرب)، والنهبة التي لها شرف وقيمة عند الناس (قيل: الانتهاب: أخذ المال على وجه الغنيمة)؛ لا يفعل هٰذه الأشياء الأربعة أحد وهو مؤمن بالله حين فعله لها.

فالمراد بنفي الإيمان هنا: نفي تمام الإيمان.

* * *

* قول المؤلف: «**ونقول: هو مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته؛ فلا يعطى الاسم المطلق، ولا يسلب مطلق الاسم**».

* هٰذا بيان للوصف الذي يستحقه الفاسق الملي عند أهل السنة والجماعة.

* والفرق بين مطلق الشيء والشيء المطلق: أن الشيء المطلق هو الشيء الكامل، ومطلق الشيء؛ يعني: أصل الشيء، وإن كان ناقصاً.

فالفاسق المِلِّي لا يعطى الاسم المطلق في الإيمان، وهو الاسم الكامل، ولا يسلب مطلق الاسم؛ فلا نقول: ليس بمؤمن، بل نقول: مؤمن ناقص الإيمان، أو: مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته.

هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، وهو المذهب العدل

الوسط.

* وخالفهم في ذٰلك طوائف:

ـ المرجئة؛ يقولون: مؤمن كامل الإيمان.

ـ والخوارج؛ يقولون: كافر.

ـ والمعتزلة؛ يقولون: في منزلة بين منزلتين.

* * *



فصل

في موقف أهل السنة والجماعة من أصحاب رسول الله ﷺ

* قوله: «ومن أصول أهل السنة والجماعة»؛ أي: من أسس عقيدتهم.

* قوله: «سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ»: ولم يقل: وأفعالهم؛ لأن الأفعال متعذرة بعد موت الصحابة، حتى لو فرض أن أحداً نبش قبورهم وأخرج جثثهم؛ فإن ذٰلك لا يؤذيهم ولا يضرهم، لٰكن الذي يمكن أن يكون بعد موت الصحابة نحوهم هو ما يكون في القلب وما ينطق به اللسان.

* فمن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ؛ سلامة القلب من البغض والغل والحقد والكراهة، وسلامة ألسنتهم من كل قول لا يليق بهم.

فقلوبهم سالمة من ذٰلك، مملوءة بالحب والتقدير والتعظيم

لأصحاب رسول الله ﷺ على ما يليق بهم.

* فهم يحبون أصحاب النبي ﷺ، ويفضلونهم على جميع الخلق؛ لأن محبتهم من محبة رسول الله ﷺ، ومحبة رسول الله ﷺ من محبة الله، وألسنتهم أيضاً سالمة من السب والشتم واللعن والتفسيق والتكفير وما أشبه ذٰلك مما يأتي به أهل البدع؛ فإذا سلمت من هٰذا؛ ملئت من الثناء عليهم والترضي عنهم والترحم والاستغفار وغير ذٰلك، وذٰلك للأمور التالية:

أولاً: أنهم خير القرون في جميع الأمم، كما صرح بذٰلك رسول الله ﷺ حين قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»(١).

ثانياً: أنهم هم الواسطة بين رسول الله ﷺ وبين أمته؛ فمنهم تلقت الأمة عنه الشريعة.

ثالثاً: ما كان على أيديهم من الفتوحات الواسعة العظيمة.

رابعاً: أنهم نشروا الفضائل بين هٰذه الأمة من الصدق والنصح والأخلاق والآداب التي لا توجد عند غيرهم، ولا يعرف هٰذا من كان يقرأ عنهم من وراء جدر، بل لا يعرف هٰذا إلا من عاش في تاريخهم وعرف مناقبهم وفضائلهم وإيثارهم واستجابتهم لله ولرسوله.

* فنحن نُشْهِد الله عز وجل على محبة هٰؤلاء الصحابة،

---

(١) رواه: البخاري (٣٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٣)؛ عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

ونثني عليهم بألسنتنا بما يستحقون، ونبرأ من طريقين ضالين: طريق الروافض الذين يسبون الصحابة ويغلون في آل البيت، ومن طريق النواصب الذين يبغضون آل البيت.

* ونرى أن لآل البيت إذا كانوا صحابة ثلاثة حقوق: حق الصحبة، وحق الإيمان، وحق القرابة من رسول الله ﷺ.

* وقوله: «**لأصحاب رسول الله ﷺ**»: سبق أن أصحاب رسول الله ﷺ كل من اجتمع به مؤمناً به ومات على ذٰلك، وسمي صاحباً؛ لأنه إذا اجتمع بالرسول ﷺ مؤمناً به؛ فقد التزم اتباعه، وهٰذا من خصائص صحبة الرسول ﷺ، أما غير الرسول؛ فلا يكون الشخص صاحباً له حتى يلازمه ملازمة طويلة يستحق أن يكون بها صاحباً.

* * *

* ثم استدل المؤلف رحمه الله لموقف أهل السنة بقوله: «**كما وصفهم الله به في قوله تعالى:** ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ **[الحشر: ١٠]**».

* هٰذه الآية بعد آيتين سابقتين هما قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، وعلى رأس هٰؤلاء المهاجرين أبو بكر وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين.

* ففي قوله: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾: إخلاص النية، وفي قوله: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ﴾: تحقيق العمل، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾؛ أي: لم يفعلوا ذٰلك رياء ولا سمعة، ولٰكن عن صدق نية.

* ثم قال في الأنصار: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾ [الحشر: ٩]؛ فوصفهم الله بأوصاف ثلاث: ﴿يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ﴾، ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ﴾، ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾.

* ثم قال تعالى بعد ذٰلك: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ...﴾ الآية [الحشر: ١٠]، وهم التابعون لهم بإحسان وتابعوهم إلى يوم القيامة؛ فقد أثنوا عليهم بالأخوة، وبأنهم سبقوهم بالإيمان، وسألوا الله أن لا يجعل في قلوبهم غلاً لهم؛ فكل من خالف في ذٰلك وقدح فيهم ولم يعرف لهم حقهم؛ فليس من هٰؤلاء الذين قال الله عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا﴾.

ولما سئلت عائشة رضي الله عنها عن قوم يسبون الصحابة؛ قالت: لا تعجبون! هٰؤلاء قوم انقطعت أعمالهم بموتهم، فأحب الله أن يجري أجرهم بعد موتهم[1]!!

---

(١) لما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قيل لعائشة: «إن ناساً يتناولون أصحاب النبي ﷺ، حتى أبا بكر وعمر، فقالت: وما تعجبون من هذا؟ انقطع عنهم=

* وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، ولم يقل: للذين سبقونا بالإيمان؛ ليشمل هٰؤلاء السابقين وغيرهم إلى يوم القيامة.

* ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: ولرأفتك ورحمتك نسألك المغفرة لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان.

* * *

* قوله: «**وطاعة النبي ﷺ في قوله: «لا تسبوا أصحابي؛ فوالذي نفسي بيده؛ لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً؛ ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»**[1]».

* «**طاعة**»: معطوف على قوله: «سلامة»؛ أي: من أصول أهل السنة والجماعة: طاعة النبي ﷺ. . . إلخ.

* السب: هو القدح والعيب؛ فإن كان في غيبة الإنسان؛ فهو غيبة.

* وقوله: «**أصحابي**»؛ أي: الذين صحبوه، وصحبة النبي ﷺ لا شك أنها تختلف: صحبة قديمة قبل الفتح، وصحبة متأخرة بعد الفتح.

والرسول عليه الصلاة والسلام كان يخاطب خالد بن الوليد

= العمل فأحب الله أن لا ينقطع عنهم الأجر»، ذكره ابنُ الأثير في «جامع الأصول» (٨/ ٥٥٤)، وعزاه لرزين!!

(١) رواه: البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١)؛ من حديث أبي سعيد وأبي هريرة.

حين حصل بينه وبين عبد الرحمٰن بن عوف ما حصل من المشاجرة في بني جذيمة، فقال النبي ﷺ لخالد: «لا تسبوا أصحابي»، والعبرة بعموم اللفظ.

ولا شك أن عبد الرحمٰن بن عوف وأمثاله أفضل من خالد بن الوليد رضي الله عنه من حيث سبقهم إلى الإسلام؛ لهٰذا قال: «لا تسبوا أصحابي»؛ يخاطب خالد بن الوليد وأمثاله.

وإذا كان هٰذا بالنسبة لخالد بن الوليد وأمثاله؛ فما بالك بالنسبة لمن بعدهم.

* وقوله: «**فوالذي نفسي بيده؛ لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً...**» إلخ.

* أقسم النبي عليه الصلاة والسلام، وهو الصادق البار بدون قسم: «لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً؛ ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».

* «**أحد**»: جبل عظيم كبير معروف في المدينة.

* والمد: ربع الصاع.

* «**ولا نصيفه**»؛ أي: نصفه. قال بعضهم: من الطعام؛ لأن الذي يقدر بالمد والنصيف هو الطعام، أما الذهب فيوزن، وقال بعضهم: من الذهب؛ بقرينة السياق؛ لأنه قال: «لو أنفق مثل أحد ذهباً؛ ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»؛ يعني: من الذهب.

وعلى كل حال؛ فإن قلنا: من الطعام؛ فمن الطعام، وإن

قلنا: من الذهب؛ فليكن من الذهب، ونسبة المد أو نصف المد من الذهب إلى جبل أحد من الذهب لا شيء.

* فالصحابة رضي الله عنهم إذا أنفق الإنسان منا مثل أحد ذهباً؛ ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه، والإنفاق واحد، والمنفَق واحد، والمنفَق عليه واحد، وكلهم بشر، لٰكن لا يستوي البشر بعضهم مع بعض؛ فهٰؤلاء الصحابة رضي الله عنهم لهم من الفضائل والمناقب والإخلاص والاتباع ما ليس لغيرهم؛ فلإخلاصهم العظيم، واتباعهم الشديد؛ كانوا أفضل من غيرهم فيما ينفقون.

* وهٰذا النهي يقتضي التحريم؛ فلا يحل لأحد أن يسب الصحابة على العموم، ولا أن يسب واحداً منهم على الخصوص؛ فإن سبهم على العموم؛ كان كافراً، بل لا شك في كفر من شك في كفره، أما إن سبهم على سبيل الخصوص؛ فينظر في الباعث لذٰلك؛ فقد يسبهم من أجل أشياء خَلْقية أو خُلُقية أو دينية، ولكل واحد من ذٰلك حكمه.

* * *

* قوله: «**ويقبلون**»؛ أي: أهل السنة.

* قوله: «**ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم**»:

* الفضائل: جمع فضيلة، وهو ما يفضل به المرء غيره ويعد

منقبة له.

* والمراتب: الدرجات؛ لأن الصحابة درجات ومراتب؛ كما سيذكرهم المؤلف رحمه الله.

* فما جاء من فضائل الصحابة ومراتبهم؛ فإن أهل السنة والجماعة يقبلون ذٰلك:

ـ فمثلاً يقبلون ما جاء عنهم من كثرة صلاة أو صدقة أو صيام أو حج أو جهاد أو غير ذٰلك من الفضائل.

ـ ويقبلون مثلاً ما جاء في أبي بكر رضي الله عنه أن النبي ﷺ حث على الصدقة، فجاء أبو بكر بجميع ماله[1]، وهٰذه فضيلة.

ـ ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة من أن أبا بكر رضي الله عنه كان وحده صاحب رسول الله ﷺ في هجرته في الغار.

ـ ويقبلون ما جاء به النص من قول الرسول عليه الصلاة والسلام في أبي بكر: «إن من أمن الناس علي في ماله وصحبته أبو بكر»[2].

ـ وكذٰلك ما جاء في عمر وفي عثمان وفي علي رضي الله عنهم، وما جاء في غيرهم من الصحابة من الفضائل؛ يقبلون هٰذا

---

(١) رواه: أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥)؛ وقال هذا حديث حسن صحيح. وحسنه الألباني في «المشكاة» (٣/ ١٧٠٠).

(٢) رواه: البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢)؛ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

كله.

ـ وكذٰلك المراتب، فيقبلون ما جاء في مراتبهم؛ فالخلفاء الراشدون هم القمة في هٰذه الأمة في المرتبة، وأعلاهم مرتبة أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي؛ كما سيذكره المؤلف.

* * *

* قوله: «**ويفضلون من أنفق من قبل الفتح ـ وهو صلح الحديبية ـ وقاتل على من أنفق من بعد وقاتل**»:

* ودليل ذٰلك قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الحديد: ١٠].

فالذين أنفقوا وقاتلوا قبل صلح الحديبية أفضل من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، وكان صلح الحديبية في السنة السادسة من الهجرة في ذي القعدة؛ فالذين أسلموا قبل ذٰلك وأنفقوا وقاتلوا أفضل من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا.

* فإذا قال قائل: كيف نعرف ذٰلك؟

فالجواب: أن ذٰلك يعرف بتاريخ إسلامهم؛ كأن نرجع إلى «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر أو «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر أو غير ذٰلك من الكتب المؤلفة في الصحابة رضي الله عنهم، ويعرف أن هٰذا أسلم من قبل أو أسلم من بعد.

* وقول المؤلف: **«وهو صلح الحديبية»**:

ـ هذا أحد القولين في الآية، وهو الصحيح، ودليله قصة خالد مع عبد الرحمٰن بن عوف، وقول البراء بن عازب: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية. رواه البخاري[1].

ـ وقيل: المراد فتح مكة، وهو قول كثير من المفسرين أو أكثرهم[2].

* * *

* قوله: **«ويقدمون المهاجرين على الأنصار»**:

ـ المهاجرون: هم الذين هاجروا إلى المدينة في عهد النبي ﷺ قبل فتح مكة.

ـ والأنصار هم الذين هاجر إليهم النبي ﷺ في المدينة.

* وأهل السنة يقدمون المهاجرين على الأنصار لأن المهاجرين جمعوا بين الهجرة والنصرة، والأنصار أتوا بالنصرة فقط.

ـ فالمهاجرون تركوا أهلهم وأموالهم، وتركوا أوطانهم، وخرجوا إلى أرض هم فيها غرباء؛ كل ذٰلك هجرة إلى الله

---

(١) رواه البخاري (٤١٥٠).

(٢) انظر: «الدر المنثور» (٦/٥٨).

ورسوله، ونصرة لله ورسوله.

ـ والأنصار أتاهم النبي ﷺ في بلادهم، ونصروا النبي ﷺ، ولا شك أنهم منعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم.

ودليل تقديم المهاجرين: قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]؛ فقدم المهاجرين على الأنصار، وقوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧]؛ فقدم المهاجرين، وقوله في الفيء: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ...﴾ [الحشر: ٨]، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر: ٩].

* * *

* قوله: **«ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر ـ وكانوا ثلاث مئة وبضعة عشر ـ: اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم»**.

* أهل بدر مرتبتهم من أعلى مراتب الصحابة.

* وبدر مكان معروف، كانت فيه الغزوة المشهورة، وكانت في السنة الثانية من الهجرة في رمضان، وسمى الله تعالى يومها يوم الفرقان.

* وسببها أن النبي ﷺ سمع أن أبا سفيان قدم بعير من الشام إلى مكة، فندب أصحابه من أجل هٰذه العير فقط، فانتدب منهم ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً، معهم سبعون بعيراً وفرسان،

وخرجوا من المدينة لا يريدون قتالاً، لٰكن الله عز وجل بحكمته جمع بينهم وبين عدوهم.

فلما سمع أبو سفيان بذٰلك، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام خرج إليه لتلقي العير؛ أخذ بساحل البحر، وأرسل صارخاً إلى أهل مكة يستنجدهم، فانتدب أهل مكة لذٰلك، وخرجوا بأشرافهم وكبرائهم وزعمائهم، خرجوا على الوصف الذي ذكر الله عز وجل: ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٧].

وفي أثناء ذٰلك جاءهم الخبر أن أبا سفيان نجا بالعير، فتآمروا بينهم في الرجوع، لٰكن أبا جهل قال: والله؛ لا نرجع حتى نقدم بدراً، فنقيم فيها ننحر الجزور ونسقي الخمور وتضرب علينا القيان وتسمع بنا العرب؛ فلا يزالون يهابوننا أبداً!!

وهٰذا الكلام يدل على الفخر والخيلاء والاعتزاز بالنفس، ولٰكن ـ ولله الحمد ـ كان الأمر على عكس ما يقول؛ سمعت العرب بهزيمتهم النكراء، فهانوا في نفوس العرب!!

قدموا بدراً، والتقت الطائفتان، وأوحى الله تعالى إلى الملائكة: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ * ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [الأنفال: ١٢ ـ ١٤].

حصل اللقاء بين الطائفتين، وكانت الهزيمة ـ ولله الحمد ـ

على المشركين، والنصر المبين للمؤمنين، انتصروا، وأسروا منهم سبعين رجلاً، وقتلوا سبعين رجلاً، منهم أربعة وعشرون رجلاً من كبرائهم وصناديدهم؛ سُحبوا، فأُلقوا في قليب من قُلب بدر خبيثة قبيحة.

* ثم إن النبي ﷺ بعد انتهاء الحرب بثلاثة أيام ركب ناقته، ووقف عليهم يدعوهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فلان ابن فلان! أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقّاً؛ فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقّاً». فقالوا: يا رسول الله! ما تُكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال: «والذي نفسي بيده؛ ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»[1].

والنبي عليه الصلاة والسلام وقف عليهم توبيخاً وتقريعاً وتنديماً، وهم قد وجدوا ما وعد الله حقّاً؛ قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [الأنفال: ١٤]؛ فوجدوا النار من حين ماتوا وعرفوا أن الرسول حق، ولٰكن أنى لهم التناوش من مكان بعيد.

* فأهل بدر الذين جعل الله على أيديهم هٰذا النصر المبين والفرقان الذي هاب العرب به رسول الله ﷺ وأصحابه، وكان لهم منزلة عظيمة بعد هٰذا النصر؛ اطلع الله عليهم، وقال: «اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم»[2]؛ فكل ما يقع منهم من ذنوب؛ فإنه

---

(١) رواه: البخاري (٣٩٧٦)، ومسلم (٢٨٧٤)؛ عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) رواه: البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤)؛ عن علي رضي الله عنه؛ في قصة =

مغفور؛ لهم؛ بسبب هٰذه الحسنة العظيمة الكبيرة التي جعلها الله تعالى على أيديهم.

* وفي هٰذا الحديث دليل على أن ما يقع منهم من الكبائر مهما عظم؛ فهو مغفور لهم.

* وفيه بشارة بأنهم لن يموتوا على الكفر؛ لأنهم مغفور لهم، وهٰذا يقتضي أحد أمرين:

ـ إما أنهم لا يمكن أن يكفروا بعد ذٰلك.

ـ وإما أنهم إن قدر أن أحدهم كفر؛ فسيوفق للتوبة والرجوع إلى الإسلام.

وأيّاً كان؛ ففيه بشارة عظيمة لهم، ولم نعلم أن أحداً منهم كفر بعد ذٰلك.

* * *

* قوله: **«وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة؛ كما أخبر به النبي ﷺ[1]، بل لقد رضي الله عنهم ورضوا عنه، وكانوا**

= حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه.

(١) لما رواه مسلم (٢٤٩٦)، عن جابر بن عبد الله يقول: أخبرتني أم مبشر أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها»، ورواه أبو داود (٤٦٥٣)، والترمذي (٣٨٥٩) بنحوه.

أكثر من ألف وأربع مئة»[1].

* أصحاب الشجرة هم أصحاب بيعة الرضوان.

* وسبب هٰذه البيعة أن النبي ﷺ خرج من المدينة إلى مكة يريد العمرة، ومعه أصحابه والهدي، وكانوا نحو ألف وأربع مئة رجل، لا يريدون إلا العمرة، فلما بلغوا الحديبية، وهي مكان قرب مكة، في طريق جدة الآن، بعضها من الحل وبعضها من الحرم، وعلم بذٰلك المشركون؛ منعوا رسول الله ﷺ وأصحابه؛ لأنهم يزعمون أنهم أهل البيت وحماة البيت، ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]، وجرت بينهم وبينهم مفاوضات.

وأرى الله تعالى من آياته في هٰذه الغزوة ما يدل على أن الأولى تنازل الرسول ﷺ وأصحابه لما يترتب على ذٰلك من الخير والمصلحة؛ فإن ناقة الرسول عليه الصلاة والسلام بركت وأبت أن تسير، حتى قالوا: «خلأت القصواء»؛ يعني: حرنت وأبت المسير. فقال النبي ﷺ مدافعاً عنها: «والله؛ ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخُلُق، ولٰكن حبسها حابس الفيل». ثم قال: «والذي نفسي بيده؛ لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله؛ إلا أعطيتهم إياها»[2].

---

(١) رواه البخاري (٤١٥٤) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢) عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم. قال الحافظ في «الفتح» (٥/٣٣٣): وهذه الرواية بالنسبة إلى مروان مرسلة، لأنه لا =

جرى التفاوض، وأرسل النبي ﷺ عثمان بن عفان؛ لأن له رهطاً بمكة يحمونه؛ أرسله إلى أهل مكة؛ يدعوهم إلى الإسلام، ويخبرهم أن النبي ﷺ إنما جاء معتمراً معظماً للبيت، فشاع الخبر بأن عثمان قد قتل، وكبُر ذٰلك على المسلمين، فدعا النبي ﷺ إلى البيعة؛ يبايع أصحابه على أن يقاتلوا أهل مكة الذين قتلوا رسول رسول الله ﷺ، وكانت الرسل لا تقتل، فبايع الصحابة رضي الله عنهم النبي ﷺ على أن يقاتلوا ولا يفروا إلى الموت.

وكان النبي ﷺ تحت شجرة يبايع الناس؛ يمدُّ يده فيبايعونه على هٰذه البيعة المباركة التي قال الله عنها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، وكان عثمان رضي الله عنه غائباً، فبايع النبي ﷺ بيده عن يد عثمان، وقال بيده اليمنى: «هٰذه يد عثمان».

ثم تبين أن عثمان لم يقتل، وصارت الرسل تأتي وتروح بين رسول الله ﷺ وقريش، حتى انتهى الأمر على الصلح الذي صار فتحاً مبيناً للرسول عليه الصلاة والسلام.

* هٰؤلاء الذين بايعوا قال الله عنهم: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۞ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ١٨ ـ ١٩].

= صحبة له، وأما المسور فهي بالنسبة إليه أيضاً مرسلة، لأنه لم يحضر القصة... وقد سمع المسور ومروان من جماعة من الصحابة شهدوا هذه القصة.

* وكان من جملة المبايعين أبو بكر وعمر وعثمان وعلي.

فوصفهم الله تعالى بالإيمان، وهٰذه شهادة من الله عز وجل بأن كل من بايع تحت الشجرة؛ فهو مؤمن مرضي عنه، والنبي عليه الصلاة والسلام قال: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة»؛[1] فالرضى ثابت بالقرآن، وانتفاء دخول النار ثبت بالسنة.

* وقول النبي ﷺ: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة»؛ قد يقول قائل: كيف نجمع بينه وبين قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]؟

فالجمع من أحد وجهين:

الأول: أن يقال: إن المفسرين اختلفوا في المراد بالورود، فقال بعضهم: هو المرور على الصراط؛ لأن هٰذا نوع ورود بلا شك؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]، ومعلوم أنه لم ينزل وسط الماء، بل كان حوله وقريباً منه، وبناء على هٰذا؛ لا إشكال ولا تعارض أصلاً.

والوجه الثاني: أن من المفسرين من يقول: المراد بالورود الدخول، وأنه ما من إنسان إلا ويدخل النار، وبناء على هٰذا القول؛ فيحمل قوله: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة»: لا يدخلها دخول عذاب وإهانة، وإنما يدخلها تنفيذاً للقسم: ﴿وَإِن

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٢٦٠).

﴿مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾، أو يقال: إن هٰذا من باب العام المخصوص بأهل بيعة الرضوان.

* وقوله: «**الشجرة**»: الشجرة هٰذه شجرة سدر، وقيل: شجرة سمر، ولا طائل تحت هٰذا الخلاف، كانت ذات ظل، فجلس النبي ﷺ تحتها يبايع الناس، وكانت موجودة في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وعهد أبي بكر رضي الله عنه وأول خلافة عمر، فلما قيل له: إن الناس يختلفون إليها ـ أي: يأتونها ـ يصلون عندها؛ أمر رضي الله عنه بقطعها، فقطعت.

قال في «الفتح»[1]: «وجدته عند ابن سعد بإسناد صحيح، لٰكن في «صحيح البخاري»[2] عن ابن عمر رضي الله عنهما؛ قال: رجعنا من العام المقبل ـ يعني: بعد صلح الحديبية ـ فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها، كانت رحمة من الله. وهٰكذا قال المسيب والد سعيد: فلما خرجنا من العام المقبل؛ نسيناها، فلم نقدر عليها».

وهٰذا لا ينافي ما ذكره ابن حجر عن ابن سعد؛ لأن نسيانها لا يستلزم عدمها ولا عدم تذكرها بعد. والله أعلم.

وهٰذه من حسنات عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ لأننا نظن

---

(١) «فتح الباري» (٧/٤٤٨).

(٢) رواه: البخاري (٤١٦٢ و ٤١٦٣) (٢٩٥٨) عن ابن عمر رضي الله عنه، ورواه أيضاً (٤١٦٢ و ٤١٦٣) عن والد سعيد بن المسيب.

أن هٰذه الشجرة لو كانت باقية إلى الآن؛ لعبدت من دون الله.

* * *

* قوله: «**ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله ﷺ؛ كالعشرة، وثابت بن قيس بن شماس، وغيرهم من الصحابة**».

* «**يشهدون**»؛ أي: أهل السنة والجماعة.

* والشهادة بالجنة نوعان: شهادة معلقة بوصف، وشهادة معلقة بالشخص.

ـ أما المعلقة بالوصف؛ فأن نشهد لكل مؤمن أنه في الجنة، وكل متق أنه في الجنة؛ بدون تعيين شخص أو أشخاص.

وهٰذه شهادة عامة، يجب علينا أن نشهد بها؛ لأن الله تعالى أخبر به، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ * خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [لقمان: ٨ ـ ٩]، وقال: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

ـ وأما الشهادة المعلقة بشخص معين؛ فأن نشهد لفلان أو لعدد معين أنهم في الجنة.

وهٰذه شهادة خاصة؛ فنشهد لمن شهد له الرسول ﷺ؛ سواء شهد لشخص معين واحد أو لأشخاص معينين.

* مثال ذٰلك ما ذكره المؤلف بقوله: «**كالعشرة**»؛ يعني بهم: العشرة المبشرين بالجنة؛ لقبوا بهٰذا الاسم لأن النبي ﷺ جمعهم

في حديث واحد، وهم: الخلفاء الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وسعيد بن زيد، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمٰن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وأبو عبيدة عامر ابن الجراح، وانظر تراجمهم في المطولات.

وقد جمع الستة الزائدون عن الخلفاء الأربعة في بيت واحد؛ فاحفظه:

سَعيدٌ وَسَعْدٌ وَابْنُ عَوْفٍ وَطَلْحَةٌ وَعامِرُ فِهْرٍ وَالزُّبَيْرُ المُمَدَّحُ

هٰؤلاء بشرهم النبي ﷺ في نسق واحد، فقال: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة...»[1]، ولهٰذا لقبوا بهٰذا اللقب؛ فيجب أن نشهد أنهم في الجنة لشهادة النبي ﷺ بذٰلك.

* قوله: «**وثابت بن قيس بن شماس**»: ثابت بن قيس رضي الله عنه أحد خطباء النبي ﷺ، كان جهوري الصوت، فلما نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]؛ خاف أن يكون حبط عمله وهو لا يشعر، فاختفى في بيته، ففقده النبي عليه الصلاة والسلام، فبعث إليه رجلاً يسأله عن اختفائه فقال: إن الله أنزل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ

---

(١) رواه أحمد (١/١٨٧ و ١٨٨ و ١٨٩)، وأبو داود (٤٦٤٩)، والترمذي (٣٧٤٨)، وابن ماجه (١٣٤)، وابن حبان في «صحيحه» (١٠/٦٩٩٦)، والحاكم في «المستدرك» (٣/٤٥٠)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٧٥).

﴿أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، وأنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ حبط عملي، أنا من أهل النار!! فأتى الرجل إلى النبي ﷺ، فأخبره بما قال ثابت، فقال النبي ﷺ: «اذهب إليه؛ فقل له إنك لست من أهل النار، ولٰكنك من أهل الجنة»[1]؛ فبشره النبي ﷺ بالجنة.

* قوله: **«وغيرهم من الصحابة»**: مثل أمهات المؤمنين؛ لأنهن في درجة الرسول ﷺ، ومنهم: بلال، وعبد الله بن سلام، وعكاشة بن محصن، وسعد بن معاذ؛ رضي الله عنهم[2].

* * *

---

(١) رواه: البخاري (٣٦١٣)، ومسلم (١١٩)؛ عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) ـ أما بلال؛ ففي حديث جابر عند مسلم (٢٤٥٧)؛ أن رسول الله ﷺ؛ قال: أريت الجنة، فرأيت امرأة أبي طلحة، ثم سمعت خشخشة أمامي؛ فإذا بلال.

ـ وأما عبد الله بن سلام؛ ففي حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عند البخاري (١٩٨٢) ومسلم (٢٤٨١)؛ قال: ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض: إنه من أهل الجنة؛ إلا لعبد الله بن سلام.

ـ وأما عكاشة بن محصن؛ فقد دعا له النبي ﷺ بأن يكون من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وذٰلك في حديث ابن عباس عند البخاري (٦٥٤١) ومسلم (٢٢٠).

ـ وأما سعد بن معاذ؛ ففي حديث البراء عند البخاري (٣٨٠٢) ومسلم (٢٤٦٨)؛ قال: أهديت لرسول الله ﷺ حلة حرير، فجعل أصحابه يلمسونها ويعجبون من لينها، فقال: أتعجبون من لين هٰذه؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير من هٰذه وألين.

* قوله: **«ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره؛ من أن خير هٰذه الأمة بعد نبيها: أبو بكر، ثم عمر»**.

* التواتر: خبر يفيد العلم اليقيني، وهو الذي نقله طائفة لا يمكن تواطؤهم على الكذب.

* ففي «صحيح البخاري»[1] وغيره عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ قال: كنا نخير بين الناس في زمن النبي ﷺ؛ فنخير أبا بكر، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان.

* وفي «صحيح البخاري»[2] أيضاً أن محمد بن الحنفية قال: قلت لأبي: أي الناس خير بعد رسول الله ﷺ؟ قال: أبو بكر. قلت: ثم من؟ قال: ثم عمر. وخشيت أن يقول: عثمان؛ قلت: ثم أنت؟ قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين.

فإذا كان علي رضي الله عنه يقول وهو في زمن خلافته: إن خير هٰذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر؛ فقد اندحضت حجة الرافضة الذين فضلوه عليهما.

* قوله: **«وغيره»**؛ يعني: غير علي من الصحابة والتابعين.

* وهٰذا متفق عليه بين الأئمة.

ـ قال الإمام مالك: ما رأيت أحداً يشك في تقديمهما.

---

(١) رواه البخاري (٣٦٥٥).

(٢) رواه البخاري (٣٦٧١).

ـ وقال الشافعي: لم يختلف الصحابة والتابعون في تقديم أبي بكر وعمر.

ومن خرج عن هٰذا الإجماع؛ فقد اتبع غير سبيل المؤمنين.

* قوله: «**ويثلثون بعثمان، ويربعون بعلي؛ رضي الله عنهم؛ كما دلت عليه الآثار**».

* «**يثلِّثون**»؛ يعني: أهل السنة؛ أي: يجعلون عثمان هو الثالث.

* «**ويربِّعون بعلي**»؛ أي: يجعلون عليّاً هو الرابع.

* وعلى هٰذا؛ فأفضل هٰذه الأمة هٰؤلاء الأربعة: أبو بكر، ثم عمر، وهٰذا بالإجماع، ثم عثمان، ثم علي.

* * *

* ثم استدل المؤلف لهٰذا الترتيب بدليلين:

الأول: قوله: «**كما دلت عليه الآثار**»: وقد سبق ذكر شيء منها.

والثاني: قوله: «**وكما أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة**»:

فصار في تقديم عثمان على علي رضي الله عنهما آثار نقلية، وفيه أيضاً دليل عقلي، وهو إجماع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة؛ فإن إجماعهم على ذٰلك يستلزم أن عثمان أفضل من علي،

وهو كذٰلك؛ لأن حكمة الله عز وجل تأبى أن يولِّي على خير القرون رجلاً وفيه من هو أفضل منه؛ كما جاء في الأثر: «كما تكونون يولَّى عليكم»؛ فخير القرون لا يولِّي الله عليهم إلا من هو خيرهم.

* * *

* قوله: **«مع أن بعض أهل السنة كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلي رضي الله عنهما بعد اتفاقهما على تقديم أبي بكر وعمر؛ أيهما أفضل؟ فقدم قوم عثمان، وسكتوا، أو ربعوا بعلي»**:

فيقولون: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ويسكتون، أو يقولون: ثم علي.

* قال المؤلف: **«وقدم قوم عليّاً»**؛ فقالوا: أبو بكر، ثم عمر، ثم علي، ثم عثمان. وهٰذا رأي من آراء أهل السنة.

* قال المؤلف: **«وقوم توقفوا»**؛ فقالوا: أبو بكر، ثم عمر. وتوقفوا أيهما أفضل: عثمان أو علي؟ وهٰذا غير الرأي الأول.

* فالآراء أربعة:

ـ الرأي المشهور: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي.

ـ الرأي الثاني: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم السكوت.

ـ الرأي الثالث: أبو بكر، ثم عمر، ثم علي، ثم عثمان.

ـ الرأي الرابع: أبو بكر، ثم عمر، ثم نتوقف أيهما أفضل: عثمان أو علي؛ فهم يقولون: لا نقول: عثمان أفضل، ولا علي أفضل، لٰكن لا نرى أحداً يتقدم على عثمان وعلي في الفضيلة بعد أبي بكر وعمر.

* قال المؤلف: **«لٰكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان ثم علي»**:

هذا الذي استقر عليه أمر أهل السنة؛ فقالوا: أفضل هٰذه الأمة بعد نبيها: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي؛ على ترتيبهم في الخلافة. وهو الصواب؛ كما سبق دليله.

* * *

* قوله: **«وإن كانت هٰذه المسألة ـ مسألة عثمان وعلي ـ ليست من الأصول التي يُضَلَّل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة»**.

* يعني: المفاضلة بين عثمان وعلي رضي الله عنهما ليست من أصول أهل السنة التي يضلل فيها المخالف؛ فمن قال: إن عليّاً أفضل من عثمان؛ فلا نقول: إنه ضال، بل نقول: هٰذا رأي من آراء أهل السنة، ولا نقول فيه شيئاً.

* قوله: **«لكن التي يُضَلَّل فيها مسألة الخلافة»**: فيجب أن نقول: الخليفة بعد نبينا في أمته أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي. ومن قال: إن الخلافة لعلي دون هٰؤلاء الثلاثة؛ فهو ضال،

ومن قال: إنها لعلي بعد أبي بكر وعمر؛ فهو ضال؛ لأنه مخالف لإجماع الصحابة رضي الله عنهم.

* ولهٰذا قال المؤلف: «**وذلك أنهم يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله ﷺ: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي**».

وهٰذا ما أجمع عليه أهل السنة في مسألة الخلافة.

* قوله: «**ومن طعن في خلافة أحد من هٰؤلاء؛ فهو أضل من حمار أهله**».

* الذي يطعن في خلافة أحد من هٰؤلاء، ويقول: إنه لا يستحق الخلافة! أو: إنه أحق ممن سبقه! فهو أضل من حمار أهله.

وعبر المؤلف بهٰذا التعبير؛ لأنه تعبير الإمام أحمد رحمه الله، ولا شك أنه أضل من حمار أهله، وإنما ذكر الحمار؛ لأنه أبلد الحيوانات على الإطلاق؛ فهو أقل الحيوانات فهماً؛ فالطعن في خلافة أحد من هٰؤلاء أو في ترتيبه طعنٌ في الصحابة جميعاً.

* فيجب علينا أن نعتقد بأن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، وأنهم في أحقية الخلافة على هٰذا الترتيب، حتى لا نقول: إن هناك ظلماً في الخلافة؛ كما ادعته الرافضة حين زعموا أن أبا بكر وعمر وعثمان والصحابة كلهم ظلمة؛ لأنهم ظلموا علي بن أبي طالب؛ حيث اغتصبوا الخلافة منه.

* أما من بعدهم؛ فإننا لا نستطيع أن نقول: إن كل خليفة استخلفه الله على الناس؛ فهو أحق بالخلافة من غيره؛ لأن من بعدهم ليسوا في خير القرون، بل حصل فيهم من الظلم والانحراف والفسوق ما استحقوا به أن يولى عليهم من ليس أحق بالخلافة منهم؛ كما قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

* واعلم أن الترتيب في الأفضلية على ما سبق لا يعني أن من فضل غيره؛ فإنه يفضله في كل شيء، بل قد يكون للمفضول فضيلة لم يشاركه فيها أحد، وتميز أحد هٰؤلاء الأربعة أو غيرهم بميزة يفضل بها غيره لا يدل على الأفضلية المطلقة؛ فيجب التفريق بين الإطلاق والتقييد.

* * *

* قوله: «وَيُحِبُّونَ أَهْلَ بَيْتِ رَسولِ اللهِ ﷺ وَيَتَوَلَّوْنَهُم».

* أي: ومن أصول أهل السنة والجماعة أنهم يحبون آل بيت رسول الله ﷺ؛ يحبونهم لأمرين: للإيمان، وللقرابة من رسول الله ﷺ، ولا يكرهونهم أبداً.

ولٰكن لا يقولون كما قال الرافضة: كل من أحب أبا بكر وعمر؛ فقد أبغض عليّاً!! وعلى هٰذا؛ فلا يمكن أن نحب عليّاً حتى نبغض أبا بكر وعمر!! وكأن أبا بكر وعمر أعداء لعلي بن أبي طالب!! مع أنه قد تواتر النقل عن علي رضي الله عنه أنه كان يثني عليهما على المنبر.

فنحن نقول: إننا نشهد الله على محبة آل بيت الرسول ﷺ وقرابته؛ نحبهم لمحبة الله ورسوله.

ـ ومن أهل بيته أزواجه بنص القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۞ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ۞ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۞ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۞ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۞ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٨ ـ ٣٣]؛ فأهل البيت هنا يدخل فيها أزواج الرسول عليه الصلاة والسلام بلا ريب.

ـ وكذلك يدخل فيه قرابته؛ فاطمة وعلي والحسن والحسين وغيرهم كالعباس بن عبد المطلب وأبنائه.

فنحن نحبهم لقرابتهم من رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولإيمانهم بالله.

فإن كفروا؛ فإننا لا نحبهم، ولو كانوا من أقارب الرسول عليه الصلاة والسلام؛ فأبو لهب عم الرسول عليه الصلاة والسلام لا يجوز أن نحبه بأي حال من الأحوال، بل يجب أن نكرهه لكفره

ولإيذائه النبي ﷺ، وكذٰلك أبو طالب؛ يجب علينا أن نكرهه لكفره، لٰكن نحب أفعاله التي أسداها إلى الرسول عليه الصلاة والسلام من الحماية والذب عنه.

* قال المؤلف: «ويتولَّونهم»؛ أي: يجعلونهم من أوليائهم، والولي: يطلق على عدة معان؛ يطلق على الصديق، والقريب، والمتولِّي للأمر، وغير ذٰلك من الموالاة والنصرة. وهنا يشمل النصرة والصداقة والمحبة.

* قوله: **«ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ؛ حيث قال يوم غدير خم: «أذكركم الله في أهل بيتي»[1]»**.

* **«وصية الرسول ﷺ»**؛ أي: عهده الذي عهد به إلى أمته.

* و**«يوم غدير خم»**: هو اليوم الثامن عشر من ذي الحجة. وهٰذا الغدير ينسب إلى رجل يسمى (خم)، وهو في الطريق الذي بين مكة والمدينة، قريب من الجحفة، نزل الرسول عليه الصلاة والسلام فيه منزلاً في رجوعه من حجة الوداع، وخطب الناس، وقال: «أذكركم الله في أهل بيتي»؛ ثلاثاً؛ يعني: اذكروا الله؛ اذكروا خوفه وانتقامه إن أضعتم حق آل البيت، واذكروا رحمته وثوابه إن قمتم في حقهم.

* قوله: **«وقال أيضاً للعباس عمه وقد اشتكى إليه أن بعض قريش يجفو بني هاشم؛ فقال: «والذي نفسي بيده؛ لا يؤمنون حتى**

---

(١) رواه مسلم (٢٤٠٨) عن زيد بن أرقم رضي الله عنه.

يحبوكم لله ولقرابتي»[1].

* **«أيضاً»**: مصدر آض يئيض؛ أي: رجع، وهو مصدر لفعل محذوف، والمعنى: عوداً على ما سبق.

* **«يجفو»**: يترفع ويكره.

* **«هاشم»**: هو جد أبي الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

* فأقسم ﷺ أنهم لا يؤمنون، أي: لا يتم إيمانهم؛ حتى يحبوكم لله، وهٰذه المحبة يشاركهم فيها غيرهم من المؤمنين؛ لأن الواجب على كل إنسان أن يحب كل مؤمن لله.

* لٰكن قال: **«ولقرابتي»**: فهٰذا حب زائد على المحبة لله، ويختص به آل البيت قرابة النبي عليه الصلاة والسلام.

* وفي قول العباس: **«إن بعض قريش يجفو بني هاشم»**: دليل على أن جفاء آل البيت كان موجوداً منذ حياة النبي ﷺ، وذٰلك لأن الحسد من طبائع البشر؛ إلا من عصمه الله عز وجل،

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢٠٧)، وفي «فضائل الصحابة» (١٧٥٧)، عن العباس بلفظ: «والله لا يدخل قلب امرىء إيمان، حتى يحبكم لله ولقرابتي» عن يزيد بن أبي زياد، وهو ضعيف.
ورواه الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (١٧٥٦)، بلفظ: «لن ينالوا خيراً حتى يحبوكم لله ولقرابتي»، وإسناده ضعيف لإرساله. ورواه متصلاً طراد الزينبي في «أماليه» (٨٨ب)، كما نقله محقق «فضائل الصحابة» وصي الله عباس (١٧٥٦).

فكانوا يحسدون آل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام على ما منَّ الله به عليهم من قرابة النبي ﷺ، فيجفونهم ولا يقومون بحقهم.

* قوله: «**وقال: إن الله اصطفى بني إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»[1].

وهٰذا دليل على أن بني هاشم مصطفون عند الله، مختارون من خلقه.

* فعقيدة أهل السنة والجماعة بالنسبة لآل البيت: أنهم يحبونهم، ويتولونهم، ويحفظون فيهم وصية الرسول ﷺ في التذكير بهم، ولا ينزلونهم فوق منزلتهم، بل يتبرؤون ممن يغلون فيهم، حتى يوصلوهم إلى حد الألوهية؛ كما فعل عبد الله بن سبأ في علي بن أبي طالب حين قال له: أنت الله! والقصة مشهورة.

* و«**إسماعيل**»: هو ابن إبراهيم الخليل، وهو الذي أمر الله إبراهيم بذبحه، وقصته في سورة الصافات.

* و«**كنانة**»: هو الأب الرابع عشر لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

* و«**قريش**»: هو الأب الحادي عشر لرسول الله ﷺ، وهو فهر بن مالك، وقيل: الأب الثالث عشر، وهو النضر بن كنانة.

---

(١) رواه مسلم (٢٢٧٦)، والترمذي (٣٦٠٩ و ٣٦١٢)؛ من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.

* و«**هاشم**»: هو الأب الثالث لرسول الله ﷺ.

* * *

* قوله: «**ويتولون أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين**»:

* قوله: «**أمهات المؤمنين**»: هٰذه صفة لـ«أزواج»؛ فأزواج النبي ﷺ أمهات لنا في الإكرام والاحترام والصلة؛ قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ [الأحزاب: ٦]؛ فنحن نتولاهن بالنصرة والدفاع عنهن واعتقاد أنهن أفضل أزواج أهل الأرض؛ لأنهن زوجات الرسول ﷺ.

* قوله: «**ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة**»:

لأحاديث وردت في ذٰلك، ولقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۖ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۞ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [غافر: ٧ ـ ٨]، فقال: ﴿وَأَزْوَٰجِهِمْ﴾؛ فأثبت الزوجية لهن بعد دخول الجنة، وهٰذا يدل على أن زوجة الإنسان في الدنيا تكون زوجته في الآخرة إذا كانت من أهل الجنة.

* * *

* قوله: «**خصوصاً خديجة رضي الله عنها أم أكثر أولاده**»:

* «**خصوصاً خديجة رضي الله عنها**»: «**خصوصاً**»: مصدر

محذوف العامل؛ أي: أخص خصوصاً.

* «**خديجة**» بنت خويلد: تزوجها النبي ﷺ أول ما تزوج، وكان عمره حينذاك خمساً وعشرين سنة، وعمرها أربعين سنة، وكانت امرأة عاقلة، وانتفع بها ﷺ انتفاعاً كثيراً؛ لأنها امرأة ذات عقل وذكاء، ولم يتزوج عليها أحداً.

* فكانت كما قال المؤلف: «**أم أكثر أولاده**»: البنين والبنات، ولم يقل المؤلف: أم أولاده؛ لأن من أولاده من ليس منها، وهو إبراهيم؛ فإنه كان من مارية القبطية.

وأولاده الذين من خديجة هم ابنان وأربع بنات: القاسم، ثم عبد الله، ويقال له: الطيب، والطاهر. وأما البنات؛ فهن: زينب، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية. وأكبر أولاده القاسم، وأكبر بناته زينب.

* قوله: «**وأول من آمن به وعاضده على أمره**»: لا شك أنها أول من آمن به؛ لأن النبي ﷺ لما جاءها وأخبرها بما رأى في غار حراء؛ قالت: كلا؛ والله لا يخزيك الله أبداً. وآمنت به، وذهبت به إلى ورقة بن نوفل، وقصت عليه الخبر، وقال له: إن هٰذا الناموس الذي كان ينزل على موسى[1].

«الناموس»: أي: صاحب السر.

فآمن به ورقة.

---

(١) رواه: البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠)؛ عن عائشة رضي الله عنها.

ولهٰذا نقول: أول من آمن به من النساء خديجة، ومن الرجال ورقة بن نوفل.

* قوله: **«وعاضده على أمره»**؛ أي: ساعده، ومن تدبر السيرة؛ وجد لأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها من معاضدة النبي ﷺ ما لم يحصل لغيرها من نسائه.

* قوله: **«وكان لها منه المنزلة العالية»**: حتى إنه كان يذكرها بعد موتها صلوات الله وسلامه عليه، ويرسل بالشيء إلى صديقاتها، ويقول: «إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد»[1]؛ فكان يثني عليها، وهٰذا يدل على عظم منزلتها عند الرسول ﷺ.

* قوله: **«والصديقة بنت الصديق رضي الله عنها»**:

أما كونها صديقة؛ فلكمال تصديقها لرسول الله ﷺ، ولكمال صدقها في معاملته، وصبرها على ما حصل من الأذى في قصة الإفك، ويدلك على صدقها وصدق إيمانها بالله أنه لما نزلت براءتها؛ قالت: إني لا أحمد غير الله. وهٰذا يدل على كمال إيمانها وصدقها.

وأما كونها بنت الصديق؛ فكذٰلك أيضاً؛ فإن أباها رضي الله عنه هو الصديق في هٰذه الأمة، بل صديق الأمم كلها؛ لأن هٰذه الأمة أفضل الأمم؛ فإذا كان صديق هٰذه الأمة؛ فهو صديق غيرها من الأمم.

---

(١) رواه: البخاري (٣٨١٨)، عن عائشة رضي الله عنها.

* قوله: «**التي قال فيها النبي ﷺ: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»**».

* قوله: «**على النساء**»: ظاهره العموم؛ أي: على جميع النساء. وقيل: إن المراد: فضل عائشة على النساء؛ أي: من أزواجه اللاتي على قيد الحياة؛ فلا تدخل في ذٰلك خديجة.

* لكن ظاهر الحديث العموم؛ لأن الرسول ﷺ قال: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»، وقد أخرجه الشيخان[1] بدون ذكر خديجة. وهٰذا يدل على أنها أفضل النساء مطلقاً.

* ولٰكن ليست أفضل من فاطمة باعتبار النسب؛ لأن فاطمة بلا شك أشرف من عائشة نسباً.

وأما منزلة؛ فإن عائشة رضي الله عنها لها من الفضائل العظيمة ما لم يدركه أحد غيرها من النساء.

* وظاهر كلام المؤلف رحمه الله أن هاتين الزوجين رضي الله عنهما في منزلة واحدة؛ لأنه قال: «خصوصاً خديجة... والصديقة»، ولم يقل: ثم الصديقة.

* والعلماء اختلفوا في هٰذه المسألة:

---

(١) رواه: البخاري (٣٧٦٩)، ومسلم (٢٤٣١)؛ عن أبي موسى الأشعري. وزيادة خديجه عزاها الحافظ في الفتح (٦/ ٤٤٧) للطبراني وأبي نعيم في «الحلية».

ـ فقال بعض العلماء: خديجة أفضل؛ لأن لها مزايا لم تلحقها عائشة فيها.

ـ وقال بعض العلماء: بل عائشة أفضل؛ لهٰذا الحديث، ولأن لها مزايا لم تلحقها خديجة فيها.

ـ وفصل بعض أهل العلم؛ فقال: إن لكل منهما مزية لم تلحقها الأخرى فيها؛ ففي أول الرسالة لا شك أن المزايا التي حصلت عليها خديجة لم تلحقها فيها عائشة، ولا يمكن أن تساويها، وبعد ذٰلك، وبعد موت الرسول ﷺ، حصل من عائشة من نشر العلم ونشر السنة وهداية الأمة ما لم يحصل لخديجة؛ فلا يصح أن تفضَّل إحداهما على الأخرى تفضيلاً مطلقاً، بل نقول: هٰذه أفضل من وجه، وهٰذه أفضل من وجه، ونكون قد سلكنا مسلك العدل؛ فلم نهدر ما لهٰذه من المزية، ولا ما لهٰذه من المزية، وعند التفصيل يحصل التحصيل.

وهما وبقية أزواج الرسول في الجنة معه.

* * *

* قوله: «**ويتبرؤون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم**»:

* الروافض: طائفة غلاة في علي بن أبي طالب وآل البيت، وهم من أضل أهل البدع، وأشدهم كرهاً للصحابة رضي الله عنهم، ومن أراد معرفة ما هم عليه من الضلال؛ فليقرأ في كتبهم

وفي كتب من رد عليهم.

وسموا روافض لأنهم رفضوا زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عندما سألوه عن أبي بكر وعمر، فأثنى عليهما، وقال: هما وزيرا جدي.

* أما النواصب؛ فهم الذين ينصبون العداء لآل البيت، ويقدحون فيهم، ويسبونهم؛ فهم على النقيض من الروافض.

* فالروافض اعتدوا على الصحابة بالقلوب والألسن.

ـ ففي القلوب يبغضون الصحابة ويكرهونهم؛ إلا من جعلوهم وسيلة لنيل مآربهم وغلوا فيهم، وهم آل البيت.

ـ وفي الألسن يسبونهم فيلعنونهم ويقولون: إنهم ظلمة! ويقولون: إنهم ارتدوا بعد النبي ﷺ إلا قليلاً، إلى غير ذلك من الأشياء المعروفة في كتبهم.

* وفي الحقيقة إن سب الصحابة رضي الله عنهم ليس جرحاً في الصحابة رضي الله عنهم فقط، بل هو قدح في الصحابة وفي النبي ﷺ وفي شريعة الله وفي ذات الله عز وجل:

ـ أما كونه قدحاً في الصحابة؛ فواضح.

ـ وأما كونه قدحاً في رسول الله ﷺ؛ فحيث كان أصحابه وأُمناؤه وخلفاؤه على أمته من شرار الخلق، وفيه قدح في رسول الله ﷺ من وجه آخر، وهو تكذيبه فيما أخبر به من فضائلهم ومناقبهم.

ـ وأما كونه قدحاً في شريعة الله؛ فلأن الواسطة بيننا وبين رسول الله ﷺ في نقل الشريعة هم الصحابة، فإذا سقطت عدالتهم؛ لم يبق ثقة فيما نقلوه من الشريعة.

ـ وأما كونه قدحاً في الله سبحانه؛ فحيث بعث نبيه ﷺ في شرار الخلق، واختارهم لصحبته وحمل شريعته ونقلها لأمته!!

فانظر ماذا يترتب من الطوام الكبرى على سب الصحابة رضي الله عنهم.

* ونحن نتبرأ من طريقة هٰؤلاء الروافض الذين يسبون الصحابة ويبغضونهم، ونعتقد أن محبتهم فرض، وأن الكف عن مساوئهم فرض، وقلوبنا ـ ولله الحمد ـ مملوءة من محبتهم؛ لما كانوا عليه من الإيمان والتقوى ونشر العلم ونصرة النبي ﷺ.

* * *

* قوله: **«وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل»**.

* يعني: يتبرأ أهل السنة والجماعة من طريقة النواصب.

وهٰؤلاء على عكس الروافض، الذين يغلون في آل البيت، حتى يخرجوهم عن طور البشرية إلى طور العصمة والولاية.

أما النواصب؛ فقابلوا البدعة ببدعة، فلما رأوا الرافضة يغلون في آل البيت؛ قالوا: إذاً؛ نبغض آل البيت ونسبهم؛ مقابلة لهٰؤلاء في الغلو في محبتهم والثناء عليهم، ودائماً يكون الوسط هو خير

الأمور؛ ومقابلة البدعة ببدعة لا تزيد البدعة إلا قوة.

* * *

* قوله: «**ويمسكون عما شجر بين الصحابة**»؛ يعني: عما وقع بينهم من النزاع.

* فالصحابة رضي الله عنهم وقعت بينهم بعد مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه نزاعات، واشتد الأمر بعد مقتل عثمان، فوقع بينهم ما وقع، مما أدى إلى القتال.

وهٰذه القضايا مشهورة، وقد وقعت ـ بلا شك ـ عن تأويل واجتهاد، كل منهم يظن أنه على حق، ولا يمكن أن نقول: إن عائشة والزبير بن العوام قاتلا علياً رضي الله عنهم أجمعين وهم يعتقدون أنهم على باطل، وأن علياً على حق.

واعتقادهم أنهم على حق لا يستلزم أن يكونوا قد أصابوا الحق.

ولٰكن إذا كانوا مخطئين، ونحن نعلم أنهم لن يقدموا على هٰذا الأمر إلا عن اجتهاد؛ فإنه ثبت عن النبي ﷺ أن: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب؛ فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ؛ فله أجر»[1]؛ فنقول: هم مخطئون مجتهدون؛ فلهم أجر واحد.

---

(١) رواه: البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦)؛ عن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

* فهٰذا الذي حصل موقفنا نحن منه له جهتان: الجهة الأولى: الحكم على الفاعل. والجهة الثانية: موقفنا من الفاعل.

ـ أما الحكم على الفاعل؛ فقد سبق، وأن ما ندين الله به أن ما جرى بينهم؛ فهو صادر عن اجتهاد، والاجتهاد إذا وقع فيه الخطأ؛ فصاحبه معذور مغفور له.

ـ وأما موقفنا من الفاعل؛ فالواجب علينا الإمساك عما شجر بينهم، لماذا نتخذ من فعل هٰؤلاء مجالاً للسب والشتم والوقيعة فيهم والبغضاء بيننا؛ ونحن في فعلنا هٰذا إما آثمون وإما سالمون، ولسنا غانمين أبداً؟!

* فالواجب علينا تجاه هٰذه الأمور أن نسكت عما جرى بين الصحابة، وأن لا نطالع الأخبار أو التآريخ في هٰذه الأمور؛ إلا المراجعة للضرورة.

* * *

* قوله: «**ويقولون: إن هٰذه الآثار المروية في مساويهم؛ منها ما هو كذب، ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغير عن وجهه الصريح**».

* قسم المؤلف الآثار المروية في مساويهم ثلاثة أقسام:

ـ منها ما هو كذب محض لم يقع منهم، وهٰذا يوجد كثيراً فيما يرويه النواصب في آل البيت وما يرويه الروافض في غير آل البيت.

ـ ومنها شيء له أصل، لٰكن زيد فيه ونقص وغيِّر عن وجهه.

وهٰذان القسمان كلاهما يجب رده.

ـ القسم الثالث: ما هو صحيح؛ فماذا نقول فيه؟

بينه المؤلف بقوله:

* **«والصحيح منه هم فيه معذورون: إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون».**

* والمجتهد إن أصاب؛ فله أجران، وإن أخطأ؛ فله أجر واحد؛ لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا حكم الحاكم، فاجتهد، ثم أصاب؛ فله أجران، وإذا حكم، فاجتهد، ثم أخطأ؛ فله أجر»[(١)].

* فما جرى بين معاوية وعلي رضي الله عنهما صادر عن اجتهاد وتأويل.

لكن لا شك أن علياً أقرب إلى الصواب فيه من معاوية، بل قد نكاد نجزم بصوابه؛ إلا أن معاوية كان مجتهداً.

* ويدل على أن علياً أقرب إلى الصواب أن النبي ﷺ قال: «ويح عمار! تقتله الفئة الباغية»[(٢)]؛ فكان الذي قتله أصحاب

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٢٨٥)، وهو في «الصحيحين».

(٢) رواه: البخاري (٤٤٧)، ومسلم (٢٩١٥)؛ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

معاوية، وبهٰذا عرفنا أنها فئة باغية خارجة على الإمام، لٰكنهم متأولون، والصواب مع علي إما قطعاً وإما ظنّاً.

* * *

ــ وهناك قسم رابع، وهو ما وقع منهم من سيئات حصلت لا عن اجتهاد ولا عن تأويل:

فبينه المؤلف بقوله:

* **«وهم مع ذٰلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره»**.

* لا يعتقدون ذٰلك؛ لقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»[1].

ولٰكن العصمة في إجماعهم؛ فلا يمكن أن يجمعوا على شيء من كبائر الذنوب وصغائرها فيستحلوها أو يفعلوها.

لكن الواحد منهم قد يفعل شيئاً من الكبائر؛ كما حصل من مِسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش في قصة الإفك[2]، ولٰكن هٰذا الذي حصل تطهروا منه بإقامة الحد عليهم.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ١٩٨)، والترمذي (٢٤٩٩)، والدارمي (٢٦٢٧)، وابن ماجه (٤٢٥١)، والحاكم (٤/ ٢٤٤)؛ عن أنس بن مالك، وحسنه الألباني في «المشكاة» (٢٣٤١).

(٢) حديث الإفك؛ رواه البخاري (٤٧٥٧)، ومسلم (٢٧٧٠)؛ عن عائشة رضي الله عنها.

* قوله: «**بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة**»؛ يعني: كغيرهم من البشر.

* * *

لكن يمتازون عن غيرهم بما قال المؤلف رحمه الله:

* «**ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر**».

* هٰذا من الأسباب التي يمحو الله بها عنهم ما فعلوه من الصغائر أو الكبائر، وهو ما لهم من السوابق والفضائل التي لم يلحقهم فيها أحد؛ فهم نصروا النبي عليه الصلاة والسلام، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، وبذلوا رقابهم لإعلاء كلمة الله؛ فهٰذه توجب مغفرة ما صدر منهم، ولو كان من أعظم الذنوب، إذا لم يصل إلى الكفر.

* ومن ذٰلك قصة حاطب بن أبي بلتعة حين أرسل إلى قريش يخبرهم عن مسير النبي ﷺ إليهم، حتى أطلع الله نبيه على ذٰلك، فلم يصلهم الخبر، فاستأذن عمر النبي ﷺ أن يضرب عنق حاطب، فقال النبي ﷺ: «إنه شهد بدراً، وما يدريك؟ لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم!»[1].

* قوله: «**حتى إنه يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم، لأن لهم من الحسنات التي تمحوا السيئات ما ليس لمن**

---

(١) سبق تخريجه (٢/ ٢٥٩)، وهو في «الصحيحين» عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

بعدهم، وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ: أنهم خير القرون، وأن المد من أحدهم إذا تصدق به؛ كان أفضل من جبل أحد ذهباً ممن بعدهم».

* وذلك في قوله ﷺ: «خير الناس قرني»[1]، وفي قوله: «لا تسبوا أصحابي؛ فوالذي نفسي بيده؛ لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً؛ ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»[2].

* قوله: **«ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب؛ فيكون قد تاب منه»**:

يعني: وإذا تاب منه؛ ارتفع عنه وباله ومعرته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا. . .﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠]، ومن تاب من الذنب كان كمن لا ذنب له؛ فلا يؤثر عليه.

* قوله: **«أو أتى بحسنات تمحوه»**؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ [هود: ١١٤].

* قوله: **«أو غفر له بفضل سابقته»**: لقوله تعالى في الحديث القدسي في أهل بدر: «اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم».

---

(١) سبق تخريجه (٢/ ٢٤٨)، وهو في «الصحيحين»؛ عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه (٢/ ٢٥١)، وهو في «الصحيحين»؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

* قوله: «**أو بشفاعة محمد ﷺ الذي هم أحق الناس بشفاعته**».

وقد سبق أن النبي ﷺ يشفع في أمته، والصحابة رضي الله عنهم أحق الناس في ذٰلك.

* قوله: «**أو ابتلي ببلاء في الدنيا كفر به عنه**»: فإن البلاء في الدنيا يكفر الله به السيئات؛ كما أخبر بذٰلك النبي ﷺ في قوله: «ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه؛ إلا حط الله به سيئاته؛ كما تحط الشجرة ورقها»[1]، والأحاديث في هٰذا مشهورة كثيرة.

* قوله: «**فإذا كان هٰذا في الذنوب المحققة؛ فكيف الأمور التي كانوا فيها مجتهدين: إن أصابوا؛ فلهم أجران، وإن أخطؤوا؛ فلهم أجر واحد، والخطأ مغفور**»، وسبق دليله؛ فتكون هٰذه من باب أولى ألا تكون سبباً للقدح فيهم والعيب.

* فهٰذه الأسباب التي ذكرها المؤلف ترفع القدح في الصحابة، وهي قسمان:

الأول: خاص بهم، وهو ما لهم من السوابق والفضائل.

والثاني: عام، وهي التوبة، والحسنات الماحية، وشفاعة النبي ﷺ، والبلاء.

---

(١) رواه البخاري (٥٦٦٠)، ومسلم (٢٥٧١)؛ عن ابن مسعود رضي الله عنه.

* قوله: **«ثم إن القدر الذي ينكر من فعل بعضهم قليل نزر مغمور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم»**:

* القدر الذي ينكر من فعل بعضهم قليل جدّاً نزر أقل القليل، ولهٰذا قال: **«مغمور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم»**.

* ولا شك أنه حصل من بعضهم سرقة وشرب خمر وقذف وزنى بإحصان وزنى بغير إحصان، لٰكن كل هٰذه الأشياء تكون مغمورة في جنب فضائل القوم ومحاسنهم، وبعضها أقيم فيه الحدود، فيكون كفارة.

* ثم بين المؤلف رحمه الله شيئاً من فضائلهم ومحاسنهم بقوله:

* **«من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله والهجرة والنصرة والعلم النافع والعمل الصالح»**.

فكل هٰذه مناقب وفضائل معلومة مشهورة، تغمر كل ما جاء من مساوىء القوم المحققة؛ فكيف بالمساوىء غير المحققة أو التي كانوا فيها مجتهدين متأولين.

* * *

* قوله: **«ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة، وما من الله عليهم به من الفضائل؛ علم يقيناً أنهم خير الخلق بعد الأنبياء»**:

هٰذا بالإضافة إلى ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من قوله: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين

يلونهم». أخرجه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما[(١)].

وعلى هٰذا تثبت خيريتهم على غيرهم من أتباع الأنبياء بالنص والنظر في أحوالهم.

فإذا نظرت بعلم وبصيرة وإنصاف في محاسن القوم وما أعطاهم الله من الفضائل؛ علمت يقيناً أنهم خير الخلق بعد الأنبياء؛ فهم خير من الحواريين أصحاب عيسى، وخير من النقباء أصحاب موسى، وخير من الذين آمنوا مع نوح ومع هود وغيرهم، لا يوجد أحد في أتباع الأنبياء أفضل من الصحابة رضي الله عنهم، والأمر في هٰذا ظاهر معلوم؛ لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وخيرنا الصحابة، ولأن النبي ﷺ خير الخلق؛ فأصحابه خير الأصحاب بلا شك.

هٰذا عند أهل السنة والجماعة، أما عند الرافضة؛ فهم شر الخلق؛ إلا من استثنوا منهم.

* قوله: «**لا كان ولا يكون مثلهم**»؛ أي: ما وجد ولا يوجد مثلهم؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «خير الناس قرني»؛ فلا يوجد على الإطلاق مثلهم رضي الله عنهم لا سابقاً ولا لاحقاً.

* قوله: «**وأنهم الصفوة من قرون هٰذه الأمة، التي هي خير الأمم وأكرمها على الله عز وجل**»:

---

(١) تقدم (٢/٢٤٨).

ـ أما كون هٰذه الأمة خير الأمم؛ فلقوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ولأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم خير الرسل؛ فلا جرم أن تكون أمته خير الأمم.

ـ وأما كون الصحابة صفوة قرون الأمة؛ فلقوله ﷺ: «خير الناس قرني»[1]، وفي لفظ: «خير أمتي قرني»[2]، والمراد بقرنه: الصحابة، وبالذين يلونهم: التابعون، وبالذين يلونهم: تابعو التابعين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والاعتبار بالقرون الثلاثة بجمهور أهل القرن، وهم وسطه، وجمهور الصحابة انقرضوا بانقراض خلافة الخلفاء الأربعة، حتى إنه لم يكن بقي من أهل بدر إلا نفر قليل، وجمهور التابعين بإحسان انقرضوا في أواخر عصر أصاغر الصحابة في إمارة ابن الزبير وعبد الملك وجمهور تابعي التابعين في أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية» اهـ.

وكان آخر الصحابة موتاً أبو الطفيل عامر بن واثلة الليثي سنة مئة من الهجرة، وقيل: مئة وعشر.

---

(١) تقدم تخريجه (٢/٢٤٨)، وهو في «الصحيحين»، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٣٦٥٠)؛ عن عمران بن حصين رضي الله عنهما.

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»[1]: «واتفقوا أن آخر من كان من أتباع التابعين ممن يقبل قوله من عاش إلى حدود العشرين ومئتين».

* * *

(١) «الفتح» (٧/٦).



فصل
في كرامات الأولياء

كرامات الأولياء مسألة هامة ينبغي أن يعرف الحق فيها من الباطل؛ هل هي حقيقة ثابتة، أو هي من باب التخيلات؟

فبين المؤلف رحمه الله قول أهل السنة فيها بقوله:

* «**ومن أصول أهل السنة: التصديق بكرامات الأولياء**»:

* فمن هم الأولياء؟

والجواب: أنّ الله بيّنهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «من كان مؤمناً تقيّاً؛ كان لله وليّاً».

ليست الولاية بالدعوى والتمني، الولاية إنما هي بالإيمان والتقوى؛ فلو رأينا رجلاً يقول: إنه ولي! ولٰكنه غير متق لله تعالى؛ فقوله مردود عليه.

* أما الكرامات؛ فهي جمع كرامة، والكرامة أمر خارق للعادة، يجريه الله تعالى على يد ولي؛ تأييداً له، أو إعانة، أو تثبيتاً، أو نصراً للدين.

ـ فالرجل الذي أحيا الله تعالى له فرسه، وهو صلة بن أشيم، بعد أن ماتت، حتى وصل إلى أهله، فلما وصل إلى أهله؛ قال لابنه: ألق السرج عن الفرس؛ فإنها عرية! فلما ألقى السرج عنها؛ سقطت ميتة[1]. فهٰذه كرامة لهٰذا الرجل إعانة له.

ـ أما التي لنصرة الإسلام؛ فمثل الذي جرى للعلاء بن الحضرمي رضي الله عنه في عبور ماء البحر، وكما جرى لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في عبور نهر دجلة، وقصتهما مشهورة في التاريخ.

فالكرامة أمر خارق للعادة.

أما ما كان على وفق العادة؛ فليس بكرامة.

* وهٰذا الأمر إنما يجريه الله على يد ولي؛ احترازاً من أمور السحر والشعوذة؛ فإنها أمور خارقة للعادة، لٰكنها تجري على يد غير أولياء الله، بل على يد أعداء الله؛ فلا تكون هٰذه كرامة.

* وقد كثرت هٰذه الكرامات التي تدعى أنها كرامات في هٰؤلاء المشعوذين الذين يصدون عن سبيل الله؛ فالواجب الحذر

---

(١) «صفة الصفوة» (٣/٢١٧)، «الزهد» لابن المبارك (٢٩٥)؛ إلاّ أنهما ذكرا ذهاب بغلته وليس موتها.

منهم ومن تلاعبهم بعقول الناس وأفكارهم.

* فالكرامة ثابتة بالقرآن والسنة والواقع، سابقاً ولاحقاً.

ـ فمن الكرامات الثابتة بالقرآن والسنة لمن سبق قصة أصحاب الكهف، الذين عاشوا في قوم مشركين، وهم قد آمنوا بالله، وخافوا أن يغلبوا على أمرهم، فخرجوا من القرية مهاجرين إلى الله عز وجل، فيسر الله لهم غاراً في جبل، وجه هٰذا الغار إلى الشمال، فلا تدخل الشمس عليهم فتفسد أبدانهم ولا يحرمون منها، إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال، وهم في فجوة منه، وبقوا في هٰذا الكهف ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعاً، وهم نائمون، يقلبهم الله ذات اليمين وذات الشمال، في الصيف وفي الشتاء، لم يزعجهم الحر، ولم يؤلمهم البرد، ما جاعوا وما عطشوا وما ملوا من النوم. فهٰذه كرامة بلا شك، بقوا هٰكذا حتى بعثهم الله وقد زال الشرك عن هٰذه القرية، فسلموا منه.

ـ ومن ذٰلك قصة مريم رضي الله عنها، أكرمها الله حيث أجاءها المخاض إلى جذع النخلة، وأمرها الله أن تهز بجذعها لتتساقط عليها رطباً جنيّاً.

ـ ومن ذٰلك قصة الرجل الذي أماته الله مئة عام ثم بعثه؛ كرامة له؛ ليتبين له قدرة الله تعالى، ويزداد ثباتاً في إيمانه.

ـ أما في السنة؛ فالكرامات كثيرة، وراجع (كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل) في «صحيح البخاري»، وكتاب

«الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان» لشيخ الإسلام ابن تيمية.

ـ وأما شهادة الواقع بثبوت الكرامات؛ فظاهر، يعلم به المرء في عصره: إما بالمشاهدة، وإما بالأخبار الصادقة.

فمذهب أهل السنة والجماعة التصديق بكرامات الأولياء.

* وهناك مذهب مخالف لمذهب أهل السنة، وهو مذهب المعتزلة ومن تبعهم؛ حيث إنهم ينكرون الكرامات، ويقولون: إنك لو أثبت الكرامات؛ لاشتبه الساحر بالولي والولي بالنبي؛ لأن كل واحد منهم يأتي بخارق.

فيقال: لا يمكن الالتباس؛ لأن الكرامة على يد ولي، والولي لا يمكن أن يدعي النبوة، ولو ادعاها؛ لم يكن وليّاً. آية النبي تكون على يد نبي، والشعوذة والسحر على يد عدو بعيد من ولاية الله، وتكون بفعله باستعانته بالشياطين، فينالها بكسبه؛ بخلاف الكرامة؛ فهي من الله تعالى، لا يطلبها الولي بكسبه.

* قال العلماء: كل كرامة لولي؛ فهي آية للنبي الذي اتبعه؛ لأن الكرامة شهادة من الله عز وجل أن طريق هٰذا الولي طريق صحيح.

وعلى هٰذا؛ ما جرى من الكرامات للأولياء من هٰذه الأمة؛ فإنها آيات لرسول الله ﷺ.

* ولهٰذا قال بعض العلماء: ما من آية لنبي من الأنبياء

السابقين؛ إلا ولرسول الله ﷺ مثلها.

ـ فأورد عليهم أن الرسول ﷺ لم يلق في النار فيخرج حيّاً؛ كما حصل ذٰلك لإبراهيم.

فأجيب بأنه جرى ذٰلك لأتباع الرسول عليه الصلاة والسلام؛ كما ذكره المؤرخون عن أبي مسلم الخولاني[1]، وإذا أكرم أتباع الرسول عليه الصلاة والسلام بجنس هٰذا الأمر الخارق للعادة؛ دلَّ ذٰلك على أن دين النبي ﷺ حق؛ لأنه مؤيد بجنس هٰذه الآية التي حصلت لإبراهيم.

ـ وأورد عليهم أن البحر لم يفلق للنبي ﷺ، وقد فلق لموسى!

فأجيب بأنه حصل لهٰذه الأمة فيما يتعلق في البحر شيء أعظم مما حصل لموسى، وهو المشي على الماء؛ كما في قصة العلاء بن الحضرمي؛[2] حيث مشوا على ظهر الماء، وهٰذا أعظم مما حصل لموسى؛ لأن موسى مشى على أرض يابسة.

ـ وأورد عليهم أن من آيات عيسى إحياء الموتى، ولم يقع

---

(١) «صفة الصفوة» (٢٠٨/٤) لابن الجوزي، وقال: إن الأسود العنسي المتنبي طرح أبا مسلم الخولاني في النار، فلم تضره، فكان يشبه بالخليل عليه السلام.

(٢) لما رواه أبو نعيم في «الحلية» (٧/١)؛ عن سهم بن منجاب قال: غزونا مع العلاء ابن الحضرمي، فسرنا حتى أتينا دارين، والبحر بيننا وبينهم، فقال: يا عليم، يا حليم، يا عليّ، يا عظيم، إنا عبيدك، وفي سبيلك نقاتل عدوك، اللهم فاجعل لنا إليهم سبيلاً فنقتحم البحر، فخضنا ما يبلغ لبودنا الماء.

ذٰلك لرسول الله ﷺ.

فأجيب بأنه وقع لأتباع الرسول عليه الصلاة والسلام؛ كما في قصة الرجل الذي مات حماره في أثناء الطريق، فدعا الله تعالى أن يحييه، فأحياه الله تعالى.

ـ وأورد عليهم إبراء الأكمه والأبرص.

فأجيب بأنه حصل من النبي ﷺ أن قتادة بن النعمان لما جرح في أحد؛ ندرت عينه حتى صارت على خده، فجاء النبي ﷺ، فأخذها بيده، ووضعها في مكانها، فصارت أحسن عينيه[1].

فهٰذه من أعظم الآيات.

فالآيات التي كانت للأنبياء السابقين كان من جنسها للنبي ﷺ أو لأمته، ومن أراد المزيد من ذٰلك؛ فليرجع إلى كتاب «البداية والنهاية في التاريخ» لابن كثير.

تنبيه:

الكرامات؛ قلنا: إنها تكون تأييداً أو تثبيتاً أو إعانة للشخص أو نصراً للحق، ولهٰذا كانت الكرامات في التابعين أكثر منها في الصحابة؛ لأن الصحابة عندهم من التثبيت والتأييد والنصر ما

---

(١) وقد أخرجها الحافظ بن حجر في «الإصابة» (٣/٢١٧)؛ عن البغوي وأبو يعلى والدارقطني والبيهقي في «دلائل النبوة»، وعزاها الهيثمي في «المجمع» (٨/٢٩٨) للطبراني وأبي يعلى، وقال: في إسناد الطبراني من لم أعرفهم، وفي إسناد أبي يعلى يحيى بن عبد الحميد الحماني؛ وهو ضعيف.

يستغنون به عن الكرامات؛ فإن الرسول ﷺ كان بين أظهرهم، وأما التابعون؛ فإنهم دون ذٰلك، ولذٰلك كثرت الكرامات في زمنهم تأييداً لهم وتثبيتاً ونصراً للحق الذي هم عليه.

* * *

* قوله: «**وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات**»:
«**خوارق**»: جمع خارق.

* و«**العادات**»: جمع عادة.

والمراد بـ«**خوارق العادات**»: ما يأتي على خلاف العادة الكونية.

* وهٰذه الكرامات لها أربع دلالات:

أولاً: بيان كمال قدرة الله عز وجل؛ حيث حصل هٰذا الخارق للعادة بأمر الله.

ثانياً: تكذيب القائلين بأن الطبيعة هي التي تفعل؛ لأنه لو كانت الطبيعة هي التي تفعل؛ لكانت الطبيعة على نسق واحد لا يتغير؛ فإذا تغيرت العادات والطبيعة؛ دل على أن للكون مدبراً وخالقاً.

ثالثاً: أنها آية للنبي المتبوع كما أسلفنا قريباً.

رابعاً: أن فيها تثبيتاً وكرامة لهٰذا الولي.

* * *

* قوله: «**في أنواع العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات**»؛ يعني: أن الكرامة تنقسم إلى قسمين: قسم يتعلق بالعلوم والمكاشفات، وقسم آخر يتعلق بالقدرة والتأثيرات.

ـ أما العلوم؛ فأن يحصل للإنسان من العلوم ما لا يحصل لغيره.

ـ وأما المكاشفات؛ فأن يظهر له من الأشياء التي يكشف له عنها ما لا يحصل لغيره.

ـ مثال الأول ـ العلوم ـ: ما ذكر عن أبي بكر: أن الله أطلعه على ما في بطن زوجته ـ الحمل ـ؛ أعلمه الله أنه أنثى[1].

ـ ومثال الثاني ـ المكاشفات ـ: ما حصل لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين كان يخطب الناس يوم الجمعة على المنبر، فسمعوه يقول: يا سارية! الجبل! فتعجبوا من هٰذا الكلام، ثم سألوه عن ذٰلك؟ فقال: إنه كشف له عن سارية بن زنيم ـ وهو أحد قواده في العراق ـ، وأنه محصور من عدوه، فوجهه إلى الجبل، وقال له: يا سارية! الجبل! فسمع سارية صوت عمر، وانحاز إلى الجبل، وتحصن به[2]!

---

(١) رواه اللالكائي في «كرامات الأولياء» (٦٣)، وأوردها ابن حجر في «الإصابة» (٤/ ٢٦١).

(٢) رواه البيهقي في «دلائل النبوة»، وذكره ابن كثير في «البداية» (٧/ ١٣١) وقال: إسناده حسن جيد. وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١١١٠).

هٰذه من أمور المكاشفات؛ لأنه أمر واقع، لٰكنه بعيد.

ـ أما القدرة والتأثيرات؛ فمثل ما وقع لمريم من هزها لجذع النخل وتساقط الرطب عليها. ومثل ما وقع للذي عنده علم من الكتاب؛ حيث قال لسليمان: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك.

* * *

* قوله: «**والمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها وعن صدر هٰذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر فرق الأمة**».

الكرامات موجودة فيما سبق من الأمم، ومنها قصة أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة[1]، وموجودة في عهد الرسول ﷺ؛ كقصة أسيد بن حضير[2]، وتكثير الطعام عند بعض الصحابة[3]، وموجودة في التابعين؛ مثل قصة صلة بن أشيم الذي أحيا الله له فرسه[4].

يقول شيخ الإسلام في كتاب «الفرقان»: «وهٰذا باب واسع،

---

(١) قصة أصحاب الغار؛ رواها البخاري (٣٤٦٥)، ومسلم (٢٧٤٣)؛ عن ابن عمر رضي الله عنه.

(٢) قصة أُسيد بن حضير؛ رواها البخاري (٥٠١٨)، ومسلم (٧٩٦)؛ من حديث أبي سعيد الخدري عن أُسيد بن حضير رضي الله عنه.

(٣) رواها البخاري (٦٠٢)، ومسلم (٢٠٥٧)؛ من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما.

(٤) انظر: (٢/٢٩٨).

قد بسط الكلام على كرامات الأولياء في غير هٰذا الموضع، وأما ما نعرفه نحن عياناً ونعرفه في هٰذا الزمان؛ فكثير».

* * *

* قوله: «**وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة**».

* والدليل على أنها موجودة إلى يوم القيامة: سمعي وعقلي:

ـ أما السمعي؛ فإن الرسول ﷺ أخبر في قصة الدجال أنه يدعو رجلاً من الناس من الشباب؛ يأتي، ويقول له: كذبت! إنما أنت المسيح الدجال الذي أخبرنا عنك رسول الله ﷺ، فيأتي الدجال، فيقتله قطعتين، فيجعل واحدة هنا وواحدة هنا رمية الغرض (يعني: بعيد ما بينهما)، ويمشي بينهما، ثم يدعوه، فيقوم يتهلل، ثم يدعوه ليقر له بالعبودية، فيقول الرجل: ما كنت فيك أشد بصيرة مني اليوم! فيريد الدجال أن يقتله؛ فلا يسلط عليه[(١)].

فهٰذه (أي: عدم تمكن الدجال من قتل ذٰلك الشاب) من الكرامات بلا شك.

ـ وأما العقلي؛ فيقال: ما دام سبب الكرامة هي الولاية؛ فالولاية لا تزال موجودة إلى قيام الساعة.

* * *

---

(١) رواه: البخاري (٧١٣٢)، ومسلم (٢٩٣٨)؛ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

فصل
في طريقة أهل السنة العملية

* قوله: «**ثم من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع آثار رسول الله ﷺ باطناً وظاهراً**».

لما فرغ المؤلف مما يريد ذكره من طريقة أهل السنة العقدية؛ شرع في ذكر طريقتهم العملية:

* قوله: «**اتباع الآثار**»: لا اتباع إلا بعلم؛ إذاً؛ فهم حريصون على طلب العلم؛ ليعرفوا آثار الرسول عليه الصلاة والسلام ثم يتبعوها.

* فهم يتبعون آثار الرسول ﷺ في العقيدة والعبادة والأخلاق والدعوة إلى الله تعالى؛ يدعون عباد الله إلى شريعة الله في كل مناسبة، وكلما اقتضت الحكمة أن يدعوا إلى الله؛ دَعَوا إلى الله، ولٰكنهم لا يخبطون خبط عشواء، وإنما يدعون بالحكمة؛ يتبعون آثار الرسول عليه الصلاة والسلام في الأخلاق الحميدة في معاملة

الناس باللطف واللين، وتنزيل كل إنسان منزلته؛ يتبعونه أيضاً في أخلاقه مع أهله، فتجدهم يحرصون على أن يكونوا أحسن الناس لأهليهم؛ لأن النبي ﷺ يقول: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[1].

ونحن لا نستطيع أن نحصر آثار الرسول عليه الصلاة والسلام، ولٰكن نقول على سبيل الإجمال في العقيدة والعبادة والخلق والدعوة: في العبادة لا يتشددون ولا يتهاونون ويتبعون ما هو أفضل.

وربما يشتغلون عن العبادة بمعاملة الخلق للمصلحة؛ كما كان الرسول يأتيه الوفود يشغلونه عن الصلاة؛ فيقضيها فيما بعد.

* قوله: **«ظاهراً وباطناً»**: الظهور والبطون أمر نسبي: ظاهراً فيما يظهر للناس، وباطناً فيما يسرونه بأنفسهم. ظاهراً في الأعمال الظاهرة، وباطناً في أعمال القلوب...

فمثلاً؛ التوكل والخوف والرجاء والإنابة والمحبة وما أشبه ذٰلك؛ هٰذه من أعمال القلوب؛ يقومون بها على الوجه المطلوب، والصلاة فيها القيام والقعود والركوع والسجود والصدقة والحج والصيام، وهٰذه من أعمال الجوارح؛ فهي ظاهرة.

---

(١) رواه: الترمذي (٣٨٩٥)، والدارمي (٢١٧٧)، وابن ماجه (١٩٧٧)، وابن حبان (٤١٧٧)؛ عن عائشة رضي الله عنها.
والحديث صححه الألباني في «الصحيحة» (٢٨٥).

* ثم اعلم أن آثار الرسول ﷺ تنقسم إلى ثلاثة أقسام أو أكثر:

أولاً: ما فعله على سبيل التعبد؛ فهٰذا لا شك أننا مأمورون باتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ فكل شيء لا يظهر فيه أنه فعله تأثراً بعادة أو بمقتضى جبلة وفطرة أو حصل اتفاقاً؛ فإنه على سبيل التعبد، ونحن مأمورون به.

ثانياً: ما فعله اتفاقاً؛ فهٰذا لا يشرع لنا التأسي فيه؛ لأنه غير مقصود؛ كما لو قال قائل: ينبغي أن يكون قدومنا إلى مكة في الحج في اليوم الرابع من ذي الحجة! لأن الرسول ﷺ قدم مكة في اليوم الرابع من ذي الحجة[1]. فنقول: هٰذا غير مشروع؛ لأن قدومه ﷺ في هٰذا اليوم وقع اتفاقاً.

ولو قال قائل: ينبغي إذا دفعنا من عرفة ووصلنا إلى الشعب الذي نزل فيه ﷺ وبال أن ننزل ونبول ونتوضأ وضوءًا خفيفاً كما فعل النبي ﷺ! فنقول: هٰذا لا يشرع.

وكذٰلك غيرها من الأمور التي وقعت اتفاقاً؛ فإنه لا يشرع التأسي فيه بذٰلك؛ لأنه ﷺ فعله لا على سبيل القصد للتعبد،

---

(١) كما رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/٣٦٦)؛ من حديث جابر قال: «وقدمنا الكعبة في أربع مضين من ذي الحجة أياماً أو ليالي...»، وهو عند الطبراني في «الكبير» (٧/١٢٣)، وهو حديثٌ صحيح، وأصلُه في «صحيح مُسلم».

والتأسي به تعبد.

ثالثاً: ما فعله بمقتضى العادة؛ فهل يشرع لنا التأسي به؟

الجواب: نعم؛ ينبغي لنا أن نتأسى به، لٰكن بجنسه لا بنوعه.

وهٰذه المسألة قل من يتفطن لها من الناس؛ يظنون أن التأسي به فيما هو على سبيل العادة بالنوع، ثم ينفون التأسي به في ذٰلك.

ونحن نقول: نتأسى به، لٰكن باعتبار الجنس؛ بمعنى أن نفعل ما تقتضيه العادة التي كان عليها الناس؛ إلا أن يمنع من ذٰلك مانع شرعي.

رابعاً: ما فعله بمقتضى الجبلة؛ فهٰذا ليس من العبادات قطعاً، لٰكن قد يكون عبادة من وجه؛ بأن يكون فعله على صفة معينة عبادة: كالنوم؛ فإنه بمقتضى الجبلة، لٰكن يسن أن يكون على اليمين، والأكل والشرب جبلة وطبيعة، ولٰكن قد يكون عبادة من جهة أخرى ،إذا قصد به الإنسان امتثال أمر الله والتنعم بنعمه والقوة على عبادته وحفظ البدن، ثم إن صفته أيضاً تكون عبادة كالأكل باليمين، والبسملة عند البداءة، والحَمْدلة عند الانتهاء.

وهنا نسأل: هل اتخاذ الشعر عادة أو عبادة؟

يرى بعض العلماء أنه عبادة، وأنه يسن للإنسان اتخاذ الشعر.

ويرى آخرون أن هٰذا من الأمور العادية؛ بدليل قول الرسول

ﷺ للذي رآه قد حلق بعض رأسه وترك بعضه؛ فنهاهم عن ذلك، وقال: «احلقوا كله أو ذروا كله»[1]، وهذا يدل على أن اتخاذ الشعر ليس بعبادة، وإلا؛ لقال: أبقه، ولا تحلق منه شيئاً!

وهذه المسألة ينبغي التثبت فيها، ولا يحكم على شيء بأنه عبادة؛ إلا بدليل؛ لأن الأصل في العبادات المنع؛ إلا ما قام الدليل على مشروعيته.

* * *

* قوله: «**واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار**»؛ أي: ومن طريقة أهل السنة اتباع... إلخ؛ فهي معطوفة على «اتباع الآثار».

* قوله: «**السابقين**»؛ يعني: إلى الأعمال الصالحة.

* وقوله: «**الأولين**»؛ يعني: من هذه الأمة.

* **والمهاجرون**: من هاجروا إلى المدينة.

* **والأنصار**: أهل المدينة في عهد النبي ﷺ.

---

(١) رواه مسلم (٢١٢٠)؛ عن ابن عمر من طريق معمر عن أيوب عن نافع، ولم يسق لفظه. وهو عند عبد الرزاق في «مصنفه» (١٩٥٦٤)، وأبو داود (٤١٩٥)، والنسائي (٨/ ١٣٠)، وأحمد (٢/ ٨٨)؛ بلفظ: «احلقوا كله أو ذروا كله».
قال الحميدي: وحكى أبو مسعود الدمشقي أن في رواية مسلم أن النبي ﷺ رأى غلاماً قد حلق بعض رأسه وترك بعض، فنهاهم عن ذلك وقال: «احلقوا كله أو ذروا كله»، انظر: «جامع الأصول» (٤/ ٧٥٣).

* وإنما كان اتباع سبيلهم من منهج أهل السنة والجماعة؛ لأنهم أقرب إلى الصواب والحق ممن بعدهم، وكلما بعد الناس عن عهد النبوة؛ بعدوا من الحق، وكلما قرب الناس من عهد النبوة؛ قربوا من الحق، وكلما كان الإنسان أحرص على معرفة سيرة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين؛ كان أقرب إلى الحق.

ولهٰذا ترى اختلاف الأمة بعد زمن الصحابة والتابعين أكثر انتشاراً وأشمل لجميع الأمور، لٰكن الخلاف في عهدهم كان محصوراً.

فمن طريقة أهل السنة والجماعة أن ينظروا في سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، فيتبعوها؛ لأن اتباعها يؤدي إلى محبتهم، مع كونهم أقرب إلى الصواب والحق؛ خلافاً لمن زهد في هٰذه الطريقة، وصار يقول: هم رجال ونحن رجال! ولا يبالي بخلافهم!! وكأن قول أبي بكر وعمر وعثمان وعلي قول فلان وفلان من أواخر هٰذه الأمة!! وهٰذا خطأ وضلال؛ فالصحابة أقرب إلى الصواب، وقولهم مقدم على قول غيرهم من أجل ما عندهم من الإيمان والعلم، وما عندهم من الفهم السليم والتقوى والأمانة، وما لهم من صحبة الرسول ﷺ.

* * *

* قوله: **«واتباع وصية رسول الله ﷺ»**: حيث قال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل

بدعة ضلالة»[1].

* «**اتباع**»: معطوفة على «اتباع الآثار».

* والوصية: العهد إلى غيره بأمر هام.

* ومعنى: «**عليكم بسنتي...**» إلخ: الحث على التمسك بها، وأكد هٰذا بقوله: «**وعضوا عليها بالنواجذ**»، وهي أقصى الأضراس؛ فأمر بالتمسك بها باليد والعض عليها بالأضراس مبالغة في التمسك بها.

* والسنة: هي الطريقة ظاهراً وباطناً.

* والخلفاء الراشدون: هم الذين خلفوا النبي ﷺ في أمته علماً وعملاً ودعوة.

* وأول من يدخل في هٰذا الوصف وأولى من يدخل فيه: الخلفاء الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي.

* ثم يأتي رجل في هٰذا العصر، ليس عنده من العلم شيء، ويقول: أذان الجمعة الأول بدعة؛ لأنه ليس معروفاً على عهد الرسول ﷺ، ويجب أن نقتصر على الأذان الثاني فقط!

---

(١) رواه أحمد (٤/١٢٦)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٣ ـ ٤٤)، والحاكم (١/٩٥ ـ ٩٦)، وابن حبان (١/١٨٧)؛ من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، وقال الترمذي: حسن صحيح.
وقال الحاكم: صحيح ليس له علة، ووافقه الذهبي.
وقد نقل الألباني في «إرواء الغليل» (٨/١٠٧) تصحيح جماعةٍ من أهل العلم له.

فنقول له: إن سنة عثمان رضي الله عنه سنة متبعة إذا لم تخالف سنة رسول الله ﷺ، ولم يقم أحد من الصحابة الذين هم أعلم منك وأغير على دين الله بمعارضته، وهو من الخلفاء الراشدين المهديين، الذين أمر رسول الله ﷺ باتباعهم.

ثم إن عثمان رضي الله عنه اعتمد على أصل، وهو أن بلالاً يؤذن قبل الفجر في عهد النبي ﷺ، لا لصلاة الفجر، ولٰكن ليرجع القائم ويوقظ النائم؛ كما قال ذٰلك رسول الله ﷺ، فأمر عثمان بالأذان الأول يوم الجمعة[1]، لا لحضور الإمام، ولٰكن لحضور الناس؛ لأن المدينة كبرت واتسعت واحتاج الناس أن يعلموا بقرب الجمعة قبل حضور الإمام؛ من أجل أن يكون حضورهم قبل حضور الإمام.

* فأهل السنة والجماعة يتبعون ما أوصى به النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من الحث على التمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده وعلى رأسهم الخلفاء الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي؛ إلا إذا خالف كلام رسول الله ﷺ مخالفة صريحة؛ فالواجب علينا أن نأخذ بكلام رسول الله ﷺ ونعتذر عن هٰذا الصحابي، ونقول: هٰذا من باب الاجتهاد المعذور فيه.

* قول النبي ﷺ: **«وإياكم ومحدثات الأمور»**: **«إياكم»**: هٰذه

---

(١) لما رواه السائب بن يزيد: «إن الذي زاد التأذين الثالث يوم الجمعة؛ عثمان بن عفان رضي الله عنه».
أخرجه البخاري (٩١٢، ٩١٣).

للتحذير؛ أي: أحذركم.

* و«**الأمور**»: بمعنى: الشؤون، والمراد بها أمور الدين، أما أمور الدنيا؛ فلا تدخل في هٰذا الحديث؛ لأن الأصل في أمور الدنيا الحل؛ فما ابتدع منها؛ فهو حلال؛ إلا أن يدل الدليل على تحريمه. لٰكن أمور الدين الأصل فيها الحظر؛ فما ابتدع منها؛ فهو حرام بدعة؛ إلا بدليل من الكتاب والسنة على مشروعيته.

* قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**فإن كل بدعة ضلالة**»: الجملة مفرعة على الجملة التحذيرية، فيكون المراد بها هنا توكيد التحذير وبيان حكم البدعة.

* «**كل بدعة ضلالة**»: هٰذا كلام عام مسور بأقوى لفظ دال على العموم، وهو لفظ (كل)؛ فهو تعميم محكم صدر من الرسول ﷺ، والرسول عليه الصلاة والسلام أعلم الخلق بشريعة الله، وأنصح الخلق لعباد الله، وأفصح الخلق بياناً، وأصدقهم خبراً؛ فاجتمعت في حقه أربعة أمور: علم ونصح وفصاحة وصدق، نطق بقوله: «كل بدعة ضلالة».

فعلى هٰذا: كل من تعبد لله بعقيدة أو قول أو فعل لم يكن شريعة الله؛ فهو مبتدع.

ـ فالجهمية يتعبدون بعقيدتهم، ويعتقدون أنهم منزهون لله. والمعتزلة كذٰلك. والأشاعرة يتعبدون بما هم عليه من عقيدة باطلة.

ـ والذين أحدثوا أذكاراً معينة يتعبدون لله بذٰلك، ويعتقدون أنهم مأجورون على هٰذا.

ـ والذين أحدثوا أفعالاً يتعبدون لله بها ويعتقدون أنهم مأجورون على هٰذا.

كل هٰذه الأصناف الثلاثة الذين ابتدعوا في العقيدة أو في الأقوال أو في الأفعال؛ كل بدعة من بدعهم؛ فهي ضلالة، ووصفها الرسول عليه الصلاة والسلام بالضلالة؛ لأنها مركب، ولأنها انحراف عن الحق.

* والبدعة تستلزم محاذير فاسدة:

فأولاً: تستلزم تكذيب قول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]؛ لأنه إذا جاء ببدعة جديدة يعتبرها ديناً؛ فمقتضاه أن الدين لم يكمل.

ثانياً: تستلزم القدح في الشريعة، وأنها ناقصة، فأكملها هٰذا المبتدع.

ثالثاً: تستلزم القدح في المسلمين الذين لم يأتوا بها؛ فكل من سبق هٰذه البدع من الناس دينهم ناقص! وهٰذا خطير!!

رابعاً: من لوازم هٰذه البدعة أن الغالب أن من اشتغل ببدعة؛ انشغل عن سنة؛ كما قال بعض السلف: «ما أحدث قوم بدعة؛ إلا هدموا مثلها من السنة».

خامساً: أن هٰذه البدع توجب تفرق الأمة؛ لأن هٰؤلاء

المبتدعة يعتقدون أنهم هم أصحاب الحق، ومن سواهم على ضلال!! وأهل الحق يقولون: أنتم الذين على ضلال! فتتفرق قلوبهم.

فهٰذه مفاسد عظيمة، كلها تترتب على البدعة من حيث هي بدعة، مع أنه يتصل بهٰذه البدعة سفه في العقل وخلل في الدين.

* وبهٰذا نعرف أن من قسم البدعة إلى أقسام ثلاثة أو خمسة أو ستة؛ فقد أخطأ، وخطؤه من أحد وجهين:

ـ إما أن لا ينطبق شرعاً وصف البدعة على ما سماه بدعة.

ـ وإما أن لا يكون حسناً كما زعم.

فالنبي ﷺ قال: «كل بدعة ضلالة»؛ فقال: «كل»؛ فما الذي يخرجنا من هٰذا السور العظيم حتى نقسم البدع إلى أقسام؟

* فإن قلت: ما تقول في قول أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حين خرج إلى الناس وهم يصلون بإمامهم في رمضان، فقال: نعمت البدعة هٰذه. فأثنى عليها، وسماها بدعة[1]؟!

فالجواب أن نقول: ننظر إلى هٰذه البدعة التي ذكرها؛ هل ينطبق عليها وصف البدعة الشرعية أو لا.

فإذا نظرنا ذٰلك؛ وجدنا أنه لا ينطبق عليها وصف البدعة الشرعية؛ فقد ثبت أن النبي ﷺ صلى بأصحابه في رمضان ثلاث

---

(١) رواه البخاري (٢٠١٠).

ليال، ثم تركه خوفاً من أن تفرض عليهم، فثبت أصل المشروعية، وانتفى أن تكون بدعة شرعية، ولا يمكن أن نقول: إنها بدعة، والرسول ﷺ قد صلاها!!

وإنما سماها عمر رضي الله عنه بدعة؛ لأن الناس تركوها، وصاروا لا يصلون جماعة بإمام واحد، بل أوزاعاً؛ الرجل وحده والرجلان والثلاثة والرهط، فلما جمعهم على إمام واحد؛ صار اجتماعهم بدعة بالنسبة لما كانوا عليه أولاً من هٰذا التفرق.

فإنه خرج رضي الله عنه ذات ليلة، فقال: لو أني جمعت الناس على إمام واحد؛ لكان أحسن، فأمر أبي بن كعب وتميماً الداري أن يقوما للناس بإحدى عشرة ركعة، فقاما للناس بإحدى عشرة ركعة، فخرج ذات ليلة والناس يصلون بإمامهم، فقال: نعمت البدعة هٰذه.

إذاً؛ هي بدعة نسبية؛ باعتبار أنها تركت ثم أنشئت مرة أخرى.

فهٰذا وجه تسميتها ببدعة.

وأما أنها بدعة شرعية، ويثني عليها عمر؛ فكلاَّ.

وبهٰذا نعرف أن كلام رسول الله ﷺ لا يعارضه كلام عمر رضي الله عنه.

* فإن قلت: كيف تجمع بين هٰذا وبين قول الرسول ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة؛ فله أجرها وأجر من عمل بها إلى

يوم القيامة»؛ فأثبت أن الإنسان يسن سنة حسنة في الإسلام؟

فنقول: كلام الرسول ﷺ يصدق بعضه بعضاً، ولا يتناقض؛ فيريد بالسنة الحسنة السنة المشروعة، ويكون المراد بسنها المبادرة إلى فعلها.

يعرف هٰذا ببيان سبب الحديث، وهو أن النبي ﷺ قاله حين جاء أحد الأنصار بصرة (يعني: من الدراهم)، ووضعها بين يدي النبي ﷺ حين دعا أصحابه أن يتبرعوا للرهط الذين قدموا من مضر مجتابي النمار، وهم من كبار العرب، فتمعر وجه النبي ﷺ لما رأى من حالهم، فدعا إلى التبرع لهم، فجاء هٰذا الرجل أول ما جاء بهٰذه الصرة، فقال: «من سن في الإسلام سنة حسنة؛ فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة»[1].

أو يقال: المراد بالسنة الحسنة ما أحدث ليكون وسيلة إلى ما ثبتت مشروعيته؛ كتصنيف الكتب وبناء المدارس ونحو ذٰلك.

وبهٰذا نعرف أن كلام الرسول ﷺ لا يناقض بعضه بعضاً، بل هو متفق؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى.

***

* قوله: **«ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله»**:

* هٰذا علمنا واعتقادنا، وأن ليس في كلام الله من كذب،

---

(١) رواه مسلم (١٠١٧) عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.

بل هو أصدق الكلام؛ فإذا أخبر الله عن شيء بأنه كائن؛ فهو كائن، وإذا أخبر عن شيء بأنه سيكون؛ فإنه سيكون، وإذا أخبر عن شيء بأن صفته كذا وكذا؛ فإن صفته كذا وكذا.

* فلا يمكن أن يتغير الأمر عما أخبر الله به، ومن ظن التغير؛ فإنما ظنه خطأ؛ لقصوره أو تقصيره.

مثال ذٰلك لو قال قائل: إن الله عز وجل أخبر أن الأرض قد سطحت، فقال: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ٢٠]، ونحن نشاهد أن الأرض مكورة؛ فكيف يكون خبره خلاف الواقع؟

فجوابه أن الآية لا تخالف الواقع، ولٰكن فهمه خاطىء إما لقصوره أو تقصيره؛ فالأرض مكورة مسطحة، وذٰلك لأنها مستديرة، ولٰكن لكبر حجمها لا تظهر استدارتها إلا في مساحة واسعة تكون بها مسطحة، وحينئذ يكون الخطأ في فهمه؛ حيث ظن أن كونها قد سطحت مخالف لكونها كروية.

فإذا كنا نؤمن أن أصدق الكلام كلام الله؛ فلازم ذٰلك أنه يجب علينا أن نصدق بكل ما أخبر الله به في كتابه، سواء كان ذٰلك عن نفسه أو عن مخلوقاته.

* قوله: «**وخير الهدي هدي محمد ﷺ**»:

* «**الهدي**»: هو الطريق التي كان عليها السالك.

والطرق شتى، لٰكن خيرها طريق النبي ﷺ؛ فنحن نعلم ذٰلك ونؤمن به، نعلم أن خير الهدي هدي محمد ﷺ في العقائد

والعبادات والأخلاق والمعاملات، وأن هدي محمد ﷺ ليس بقاصر؛ لا في حسنه وتمامه وانتظامه وموافقته لمصالح الخلق، ولا في أحكام الحوادث التي لم تزل ولا تزال تقع إلى يوم القيامة؛ فإن هدي محمد ﷺ كامل تام؛ فهو خير الهدي؛ أهدى من شريعة التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وجميع الهدي.

فإذا كنا نعتقد ذٰلك؛ فوالله؛ لا نبغي به بديلاً.

* وبناء على هٰذه العقيدة لا نعارض قول رسول الله ﷺ بقول أحد من الناس، كائناً من كان، حتى لو جاءنا قول لأبي بكر، وهو خير الأمة، وقول لرسول الله ﷺ؛ أخذنا بقول رسول الله ﷺ.

* وأهل السنة والجماعة بنوا هٰذا الاعتقاد على الكتاب والسنة:

ـ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

ـ وقال النبي ﷺ وهو يخطب الناس على المنبر: «خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ»[(١)].

ولهٰذا تجد الذين اختلفوا في الهدي وخالفوا فيه: إما مقصرين عن شريعة الرسول ﷺ، وإما غالين فيها؛ بين متشددين وبين متهاونين، بين مفرِّط ومفرِط، وهدي الرسول ﷺ يكون بين هٰذا وهٰذا.

---

(١) رواه مسلم (٨٦٧) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

* قوله: «ويؤثرون كلام الله على كلام غيره من كلام أصناف الناس»:

* «يؤثرون»؛ أي: يقدمون.

* «كلام الله على كلام غيره»: من سائر أصناف الناس في الخبر والحكم؛ فأخبار الله عندهم مقدمة على خبر كل أحد.

* فإذا جاءتنا أخبار عن أمم مضت وصار القرآن يكذبها؛ فإننا نكذبها.

مثال ذٰلك: اشتهر عند كثير من المؤرخين أن إدريس قبل نوح، وهٰذا كذب؛ لأن القرآن يكذبه؛ كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النساء: ١٦٣]، وإدريس من النبيين؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا...﴾ [مريم: ٥٦] إلى أن قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ﴾ [مريم: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ﴾ [الحديد: ٢٦]؛ فلا نبي قبل نوح إلا آدم فقط.

* * *

* قوله: «ويقدمون هدي محمد ﷺ على هدي كل أحد»:

* «يقدمون هدى محمد ﷺ»؛ أي: طريقته وسنته التي هو عليها.

* «على هدي كل أحد»: في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات والأحوال وفي كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا

صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقوله: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١].

* * *

* قوله: «**ولهٰذا**»: اللام في قوله: «ولهٰذا» للتعليل؛ أي: ومن أجل إيثارهم كلام الله وتقديم هدي رسول الله ﷺ.

* «**سموا أهل الكتاب والسنة**»: لتصديقهما والتزامهما وإيثارهما على غيرهما. ومن خالف الكتاب والسنة، وادعى أنه من أهل الكتاب والسنة؛ فهو كاذب؛ لأن من كان من أهل شيء لا بد أن يلزمه ويلتزم به.

* * *

* قوله: «**وسموا أهل الجماعة؛ لأن الجماعة هي الاجتماع، وضدها الفرقة**»:

* قوله: «**وسموا أهل الجماعة؛ لأن الجماعة هي الاجتماع، وضدها الفرقة**»؛ فالجماعة اسم مصدر اجتمع يجتمع اجتماعاً وجماعة؛ فالجماعة هي الاجتماع؛ فمعنى أهل الجماعة أهل الاجتماع؛ لأنهم مجتمعون على السنة، متآلفون فيها، لا يضلل بعضهم بعضاً، ولا يبدع بعضهم بعضاً؛ بخلاف أهل البدع.

* قوله: «**وإن كان لفظ الجماعة قد صار اسماً لنفس القوم المجتمعين**»: هٰذا في استعمال ثان؛ حيث صار لفظ (الجماعة)

عرفاً: اسماً للقوم المجتمعين.

* وعلى ما قرره المؤلف تكون (الجماعة) في قولنا: «أهل السنة والجماعة»: معطوفة على (السنة)، ولهٰذا عبر المؤلف بقوله: «سموا أهل الجماعة»، ولم يقل: سموا جماعة؛ فكيف يكونون أهل الجماعة وهم جماعة؟!

نقول: الجماعة في الأصل: الاجتماع؛ فأهل الجماعة؛ يعني: أهل الاجتماع، لٰكن نقل اسم الجماعة إلى القوم المجتمعين نقلاً عرفيّاً.

* * *

* قوله: **«والإجماع هو الأصل الثالث الذي يعتمد عليه في العلم والدين»**:

* يعني به الدليل الثالث؛ لأن الأدلة أصول الأحكام؛ حيث تبنى عليها.

* والأصل الأول هو الكتاب، والثاني السنة، والإجماع هو الأصل الثالث، ولهٰذا يسمون: أهل الكتاب والسنة والجماعة.

* فهٰذه ثلاثة أصول يعتمد عليها في العلم والدين، وهي: الكتاب، والسنة، والإجماع.

أما الكتاب والسنة؛ فأصلان ذاتيان، وأما الإجماع؛ فأصل مبني على غيره؛ إذ لا إجماع إلا بكتاب أو سنة.

* أما كون الكتاب والسنة أصلاً يُرجع إليه؛ فأدلته كثيرة؛

منها:

ـ قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧].

ـ قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠].

ومن أنكر أن تكون السنة أصلاً في الدليل؛ فقد أنكر أن يكون القرآن أصلاً.

ولا شك عندنا في أن من قال: إن السنة لا يرجع إليها في الأحكام الشرعية؛ أنه كافر مرتد عن الإسلام؛ لأنه مكذب ومنكر للقرآن؛ فالقرآن في غيرما موضع جعل السنة أصلاً يرجع إليه.

* وأما الدليل على أن الإجماع أصل؛ فيقال:

أولاً: هل الإجماع موجود أو غير موجود؟

قال بعض العلماء: لا إجماع موجود؛ إلا على ما فيه نص، وحينئذ؛ يستغنى بالنص عن الإجماع.

فمثلاً؛ لو قال قائل: العلماء مجمعون على أن الصلوات المفروضة خمس؛ فهٰذا صحيح، لٰكن ثبوت فرضيتها بالنص.

ومجمعون على تحريم الزنى؛ فهٰذا صحيح، لٰكن ثبوت تحريمه بالنص. ومجمعون على تحريم نكاح ذوات المحارم؛ فهٰذا صحيح، لٰكن ثبوت تحريمه بالنص.

ولهٰذا قال الإمام أحمد: من ادعى الإجماع؛ فهو كاذب، وما يدريه؟ لعلهم اختلفوا[1].

* والمعروف عند عامة العلماء أن الإجماع موجود، وأن كونه دليلاً ثابت بالقرآن والسنة:

ـ فمن ذٰلك قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]؛ فإن قوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ﴾: يدل على أن ما أجمعنا عليه لا يجب رده إلى الكتاب والسنة؛ اكتفاء بالإجماع! وهٰذا الاستدلال فيه شيء!!

ـ ومن ذٰلك قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، فقال: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

ـ واستدلوا أيضاً بحديث: «لا تجتمع أمتي على

---

(١) رواه عبد الله بن الإمام أحمد في «مسائله عن أبيه» (٣٧)، وانظر «أعلام الموقعين» لابن القيم (١/ ٣٠).

ضلالة»[1].

وهٰذا الحديث حسنه بعضهم وضعفه آخرون، لٰكن قد نقول: إن هٰذا، وإن كان ضعيف السند، لٰكن يشهد لمتنه ما سبق من النص القرآني.

فجمهور الأمة أن الإجماع دليل مستقل، وأننا إذا وجدنا مسألة فيها إجماع؛ أثبتناها بهٰذا الإجماع.

وكأن المؤلف رحمه الله يريد من هٰذه الجملة إثبات أن إجماع أهل السنة حجة.

* * *

* قوله: **«وهم يزنون بهٰذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من أقوال وأعمال باطنة أو ظاهرة مما له تعلق بالدين»**.

* **«الأصول الثلاثة»**: هي الكتاب والسنة والإجماع.

* يعني: أن أهل السنة والجماعة يزنون بهٰذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من قول أو عمل، باطن أو ظاهر، لا يعرفون

---

(١) رواه الترمذي (٣/٢٠٧)، وابن ماجه (٢/١٣٠٣)، والحاكم في «المستدرك» (١/١١٥). وذكره السخاوي في «المقاصد» (٤٦٠)، وقال عنه: «وبالجملة فهو حديث مشهور المتن ذو أسانيد كثيرة وشواهد متعددة؛ في المرفوع وغيره».
وذكره الهيثمي في «المجمع» (٥/١٢٩)، وقال: «رواه الطبراني بإسنادين، رجال أحدهما ثقات رجال الصحيح، خلا مرزوق مولى آل طلحة وهو ثقة».
وحسّنه الألباني في «ظلال الجنّة» (٨٠).

أنه حق؛ إلا إذا وزنوه بالكتاب والسنة والإجماع؛ فإن وجد له دليل منها؛ فهو حق، وإن كان على خلافه؛ فهو باطل.

* قوله: **«والإجماع الذي ينضبط هو ما كان عليه السلف الصالح؛ إذ بعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة»**:

* يعني: أن الإجماع الذي يمكن ضبطه والإحاطة به هو ما كان عليه السلف الصالح، وهم القرون الثلاثة، الصحابة والتابعون وتابعوهم.

* ثم علل المؤلف ذلك بقوله: **«إذ بعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة»**؛ يعني: أنه كثر الاختلاف ككثرة الأهواء؛ لأن الناس تفرقوا طوائف، ولم يكونوا كلهم يريدون الحق، فاختلفت الآراء وتنوعت الأقوال.

* **«وانتشرت الأمة»**: فصارت الإحاطة بهم من أصعب الأمور.

فشيخ الإسلام رحمه الله كأنه يقول: من ادعى الإجماع بعد السلف الصالح، وهم القرون الثلاثة؛ فإنه لا يصح دعواه الإجماع؛ لأن الإجماع الذي ينضبط ما كان عليه السلف الصالح، وهل يمكن أن يوجد إجماع بعد الخلاف؟ فنقول: لا إجماع مع وجود خلاف سابق ولا عبرة بخلاف بعد تحقق الإجماع.

* * *

فصل
في منهج أهل السنة والجماعة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها من الخصال

* قوله رحمه الله تعالى: «**ثم هم مع هٰذه الأصول يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**»:

* «**هم**»؛ أي: أهل السنة والجماعة.

* «**مع هٰذه الأصول**»: السابقة التي ذكرها قبل هٰذا، وهو اتباع آثار الرسول عليه الصلاة والسلام واتباع الخلفاء الراشدين وإيثارهم كلام الله وكلام رسوله على غيره واتباع إجماع المسلمين؛ مع هٰذه الأصول:

* «**يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر**»:

و«**المعروف**»: كل ما أمر به الشرع؛ فهم يأمرون به.

و«**المنكر**»: كل ما نهى عنه الشرع؛ فهم ينهون عنه.

لأن هٰذا هو ما أمر الله به في قوله: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وكذٰلك قال النبي عليه الصلاة والسلام: «لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً»[1].

فهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ولا يتأخرون عن ذٰلك.

* ولٰكن يشترط للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكونا على ما توجبه الشريعة وتقتضيه.

* ولذٰلك شروط:

الشرط الأول: أن يكون عالماً بحكم الشرع فيما يأمر به أو ينهى عنه؛ فلا يأمر إلا بما علم أن الشرع أمر به، ولا ينهى إلا عما علم أن الشرع نهى عنه، ولا يعتمد في ذٰلك على ذوق ولا عادة.

لقوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ

---

(١) رواه أبو داود (٤٣٣٦)، وابن ماجه (٤٠٠٦)، والترمذي (٣٠٤٧ و ٣٠٤٨) وقال: «حديث حسن غريب»، وقال: «وقد روي هذا الحديث عن أبي عبيدة عن عبد الله عن النبي ﷺ نحوه، وبعضهم يقول: عن أبي عبيدة عن النبي ﷺ مرسل». وعزاه الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٦٩) للطبراني عن أبي موسى الأشعري وقال: ورجاله رجال الصحيح. وانظر: «الدر المنثور» في تفسير قوله تعالى: ﴿لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل...﴾ [المائدة: ٧٨ و ٧٩].

أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

ـ فلو رأى شخصاً يفعل شيئاً الأصل فيه الحل؛ فإنه لا يحل له أن ينهاه عنه حتى يعلم أنه حرام أو منهي عنه.

ـ ولو رأى شخصاً ترك شيئاً يظنه الرائي عبادة؛ فإنه لا يحل له أن يأمره بالتعبد به حتى يعلم أن الشرع أمر به.

الشرط الثاني: أن يعلم بحال المأمور: هل هو ممن يوجه إليه الأمر أو النهي أم لا؟ فلو رأى شخصاً يشك هل هو مكلف أم لا؛ لم يأمره بما لا يؤمر به مثله حتى يستفصل.

الشرط الثالث: أن يكون عالماً بحال المأمور حال تكليفه؛ هل قام بالفعل أم لا؟

ـ فلو رأى شخصاً دخل المسجد ثم جلس، وشك هل صلى ركعتين؛ فلا ينكر عليه، ولا يأمره بهما، حتى يستفصل.

ودليل ذلك أن النبي ﷺ كان يخطب يوم الجمعة، فدخل رجل، فجلس، فقال له النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

«أصليت؟». قال: لا. قال: «قم فصل ركعتين وتجوز فيهما»[1].

ـ ولقد نقل لي أن بعض الناس يقول: يحرم أن يسجل القرآن بأشرطة؛ لأن ذلك إهانة للقرآن على زعمه!! فينهى الناس أن يسجلوا القرآن على هذه الأشرطة؛ لظنه أنه منكر!!

فنقول له: إن المنكر أن تنهاهم عن شيء لم تعلم أنه منكر!! فلا بد أن تعلم أن هذا منكر في دين الله.

وهذا في غير العبادات، أما العبادات؛ فإننا لو رأينا رجلاً يتعبد بعبادة؛ لم يعلم أنها مما أمر الله به؛ فإننا ننهاه؛ لأن الأصل في العبادات المنع.

الشرط الرابع: أن يكون قادراً على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا ضرر يلحقه؛ فإن لحقه ضرر؛ لم يجب عليه، لكن إن صبر وقام به؛ فهو أفضل؛ لأن جميع الواجبات مشروطة بالقدرة والاستطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فإذا خاف إذا أمر شخصاً بمعروف أن يقتله؛ فإنه لا يلزمه أن يأمره؛ لأنه لا يستطيع ذلك، بل قد يحرم عليه حينئذ. وقال بعض العلماء: بل يجب عليه الأمر والصبر، وإن تضرر بذلك، ما لم

---

(١) رواه البخاري (٩٣١)، ومسلم (٨٧٥) واللفظ له، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

يصل إلى حد القتل. لكن القول الأول أولى؛ لأن هٰذا الآمر إذا لحقه الضرر بحبس ونحوه؛ فإن غيره قد يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خوفاً مما حصل، حتى في حال لا يخشى منها ذٰلك الضرر.

وهٰذا ما لم يصل الأمر إلى حد يكون الأمر بالمعروف من جنس الجهاد؛ كما لو أمر بسنة ونهى عن بدعة، ولو سكت؛ لاستطال أهل البدعة على أهل السنة؛ ففي هٰذه الحال يجب إظهار السنة وبيان البدعة؛ لأنه من الجهاد في سبيل الله، ولا يعذر من تعين عليه بالخوف على نفسه.

الشرط الخامس: أن لا يترتب على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مفسدة أعظم من السكوت؛ فإن ترتب عليها ذٰلك؛ فإنه لا يلزمه، بل لا يجوز له أن يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر.

ولهٰذا قال العلماء: إن إنكار المنكر ينتج منه إحدى أحوال أربعة: إما أن يزول المنكر، أو يتحول إلى أخف منه، إو إلى مثله، أو إلى أعظم منه.

- أما الحالة الأولى والثانية؛ فالإنكار واجب.

- وأما في الثالثة؛ فهي في محل نظر.

- وأما في الرابعة؛ فلا يجوز الإنكار؛ لأن المقصود بإنكار المنكر إزالته أو تخفيفه.

مثال ذٰلك: إذا أراد أن يأمر شخصاً بفعل إحسان، لكن

يستلزم فعل هٰذا الإحسان ألا يصلي مع الجماعة؛ فهنا لا يجوز الأمر بهٰذا المعروف؛ لأنه يؤدي إلى ترك واجب من أجل فعل مستحب.

وكذٰلك في المنكر لو كان إذا نهى عن هٰذا المنكر؛ تحول الفاعل له إلى فعل منكر أعظم؛ فإنه في هٰذه الحال لا يجوز أن ينهى عن هٰذا المنكر دفعاً لأعلى المفسدتين بأدناهما.

ويدل لهٰذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]؛ فإن سب آلهة المشركين؛ لا شك أنه أمر مطلوب، لٰكن لما كان يترتب عليه أمر محظور أعظم من المصلحة التي تكون بسب آلهة المشركين، وهو سبهم لله تعالى عدواً بغير علم؛ نهى الله عن سب آلهة المشركين في هٰذه الحال.

ولو وجدنا رجلاً يشرب الخمر، وشرب الخمر منكر، فلو نهيناه عن شربه؛ لذهب يسرق أموال الناس ويستحل أعراضهم؛ فهنا لا ننهاه عن شرب الخمر؛ لأنه يترتب عليه مفسدة أعظم.

الشرط السادس: أن يكون هٰذا الآمر أو الناهي قائماً بما يأمر به منتهياً عما ينهى عنه، وهٰذا على رأي بعض العلماء، فإن كان غير قائم بذٰلك؛ فإنه لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر؛ لأن الله تعالى قال لبني إسرائيل: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]؛ فإذا كان هٰذا الرجل لا يصلي؛ فلا يأمر غيره بالصلاة، وإن كان يشرب الخمر؛ فلا

ينهى غيره عنها، ولهٰذا قال الشاعر:

لا تَنْهَ عَن خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ عارٌ عَلَيْكَ إذا فَعَلْتَ عَظيمُ

فهم استدلوا بالأثر والنظر.

ولٰكن الجمهور على خلاف ذٰلك، وقالوا: يجب أن يأمر بالمعروف، وإن كان لا يأتيه، وينهى عن المنكر، وإن كان يأتيه، وإنما وبخ الله تعالى بني إسرائيل، لا على أمرهم بالبر، ولٰكن على جمعهم بين الأمر بالبر ونسيان النفس.

وهٰذا القول هو الصحيح؛ فنقول: أنت الآن مأمور بأمرين: الأول: فعل البر، والثاني: الأمر بالبر. منهي عن أمرين: الأول: فعل المنكر، والثاني: ترك النهي عن فعله. فلا تجمع بين ترك المأمورين وفعل المنهيين؛ فإن ترك أحدهما لا يستلزم سقوط الآخر.

فهٰذه ستة شروط؛ منها أربعة للجواز، وهن الأول والثاني والثالث والخامس؛ على تفصيل فيه، واثنان للوجوب، وهما الرابع والسادس؛ على خلاف فيهن.

* ولا يشترط أن لا يكون من أصول الآمر أو الناهي كأبيه أو أمه أو جده أو جدته، بل ربما نقول: إن هٰذا يتأكد أكثر؛ لأن من بر الوالدين أن ينهاهما عن فعل المعاصي ويأمرهما بفعل الطاعات.

قد يقول: أنا إذا نهيت أبي؛ غضب علي، وزعل، وهجرني؛ فماذا أصنع؟

نقول: اصبر على هٰذا الذي ينالك بغضب أبيك وهجره، والعاقبة للمتقين، واتبع ملة أبيك إبراهيم عليه السلام؛ حيث عاتب أباه على الشرك؛ فقال: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـًٔا . . . ﴾ إلى أن قال: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَـٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَـٰنِ عَصِيّٗا ۞ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَـٰنِ وَلِيّٗا ۞ قَالَ ﴾؛ أي: أبوه: ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴾ [مريم: ٤٢ ـ ٤٦]. وقال إبراهيم أيضاً لأبيه آزر: ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ [الأنعام: ٧٤].

* * *

* قوله: «**ويرون إقامة الحج، والجهاد، والجمع، والأعياد؛ مع الأمراء؛ أبراراً كانوا أو فجاراً**».

* الأبرار: جمع بَر، وهو كثير الطاعة، والفجار: جمع فاجر وهو العاصي كثير المعصية.

* فأهل السنة رحمهم الله يخالفون أهل البدع تماماً؛ فيرون إقامة الحج مع الأمير، وإن كان من أفسق عباد الله.

* وكان الناس فيما سبق يجعلون على الحج أميراً؛ كما جعل النبي ﷺ أبا بكر أميراً على الحج في العام التاسع من الهجرة، وما

زال الناس على ذٰلك، يجعلون للحج أميراً قائداً يدفعون بدفعه ويقفون بوقوفه، وهٰذا هو المشروع؛ لأن المسلمين يحتاجون إلى إمام يقتدون به، أما كون كل إنسان على رأسه؛ فإنه يحصل به فوضى واختلاف.

فهم يرون إقامة الحج مع الأمراء، وإن كانوا فساقاً، حتى وإن كانوا يشربون الخمر في الحج، لا يقولون: هٰذا إمام فاجر، لا نقبل إمامته؛ لأنهم يرون أن طاعة ولي الأمر واجبة، وإن كان فاسقاً، بشرط أن لا يخرجه فسقه إلى الكفر البواح الذي عندنا فيه من الله برهان؛ فهٰذا لا طاعة له، ويجب أن يزال عن تولي أمور المسلمين، لٰكن الفجور الذي دون الفسق مهما بلغ؛ فإن الولاية لا تزول به، بل هي ثابتة، والطاعة لولي الأمر واجبة في غير المعصية:

ـ خلافاً للخوارج، الذين يرون أنه لا طاعة للإمام والأمير إذا كان عاصياً؛ لأن من قاعدتهم: أن الكبيرة تخرج من الملة.

ـ وخلافاً للرافضة الذين يقولون: إنه لا إمام إلا المعصوم، وإن الأمة الإسلامية منذ غاب من يزعمون أنه الإمام المنتظر، ليست على إمام، ولا تبعاً لإمام، بل هي تموت ميتة جاهلية من ذٰلك الوقت إلى اليوم، ويقولون: إنه لا إمام إلا الإمام المعصوم، ولا حج ولا جهاد مع أي أمير كان؛ لأن الإمام لم يأت بعد.

* لٰكن أهل السنة والجماعة يقولون: نحن نرى إقامة الحج مع الأمراء سواء كانوا أبراراً أو فجاراً، وكذٰلك إقامة الجهاد مع

الأمير، ولو كان فاسقاً، ويقيمون الجهاد مع أمير لا يصلي معهم الجماعة، بل يصلي في رحله.

فأهل السنة والجماعة لديهم بعد نظر؛ لأن المخالفات في هٰذه الأمور معصية لله ورسوله، وتجر إلى فتن عظيمة.

فما الذي فتح باب الفتن والقتال بين المسلمين والاختلاف في الآراء إلا الخروج على الأئمة؟!

فيرى أهل السنة والجماعة وجوب إقامة الحج والجهاد مع الأمراء، وإن كانوا فجاراً.

* ولٰكن هٰذا لا يعني أن أهل السنة والجماعة لا يرون أن فعل الأمير منكر، بل يرون أنه منكر، وأن فعل الأمير للمنكر قد يكون أشد من فعل عامة الناس؛ لأن فعل الأمير للمنكر يلزم منه زيادة على إثمه محذوران عظيمان:

الأول: اقتداء الناس به وتهاونهم بهٰذا المنكر.

والثاني: أن الأمير إذا فعل المنكر سيقل في نفسه تغييره على الرعية أو تغيير مثله أو مقاربه.

* لٰكن أهل السنة والجماعة يقولون: حتى مع هٰذا الأمر المستلزم لهٰذين المحذورين أو لغيرهما؛ فإنه يجب علينا طاعة ولاة الأمور، وإن كانوا عصاة؛ فنقيم معهم الحج والجهاد، وكذٰلك الجمع؛ نقيمها مع الأمراء، ولو كانوا فجاراً.

فالأمير إذا كان يشرب الخمر مثلاً، ويظلم الناس بأموالهم؛

نصلي خلفه الجمعة، وتصح الصلاة، حتى إن أهل السنة والجماعة يرون صحة الجمعة خلف الأمير المبتدع إذا لم تصل بدعته إلى الكفر؛ لأنهم يرون أن الاختلاف عليه في مثل هٰذه الأمور شر، ولٰكن لا يليق بالأمير الذي له إمامة الجمعة أن يفعل هٰذه المنكرات.

وكذٰلك أيضاً إقامة الأعياد مع الأمراء الذين يصلون بهم، أبراراً كانوا أو فجاراً.

* وبهٰذه الطريق الهادئة يتبين أن الدين الإسلامي وسط بين الغالي فيه والجافي عنه.

* فقد يقول قائل: كيف نصلي خلف هٰؤلاء ونتابعهم في الحج والجهاد والجمع والأعياد؟!

فنقول: لأنهم أئمتنا، ندين لهم بالسمع والطاعة:

امتثالاً لأمر الله بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩].

ولأمر النبي ﷺ بقوله: «إنكم سترون بعدي أثرة وأموراً تنكرونها». قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟! قال: «أدوا إليهم حقهم، وسلوا الله حقكم». رواه مسلم[1]. وحقهم: طاعتهم في غير معصية الله.

---

(١) رواه البخاري (٧٠٥٢)، ومسلم (١٨٤٣)؛ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فعن وائل بن حجر؛ قال: سأل سلمة بن يزيد الجعفي رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فقال: يا نبي الله! أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا؛ فما تأمرنا؟ قال: «اسمعوا وأطيعوا؛ فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم». رواه مسلم[1].

وفي حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه؛ قال: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله. قال: «إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان»[2].

ولأننا لو تخلفنا عن متابعتهم؛ لشققنا عصا الطاعة الذي يترتب على شقه أمور عظيمة، ومصائب جسيمة.

* والأمور التي فيها تأويل واختلاف بين العلماء إذا ارتكبها ولاة الأمور؛ لا يحل لنا منابذتهم ومخالفتهم، لٰكن يجب علينا مناصحتهم بقدر المستطاع فيما خالفوا فيه؛ مما لا يسوغ فيه الاجتهاد، وأما ما يسوغ فيه الاجتهاد؛ فنبحث معهم فيه بحث تقدير واحترام؛ لنبين لهم الحق، لا على سبيل الانتقاد لهم والانتصار للنفس، وأما منابذتهم وعدم طاعتهم؛ فليس من طريق أهل السنة والجماعة.

* * *

---

(١) رواه مسلم (١٨٤٦).

(٢) رواه البخاري (٧٠٥٦)، ومسلم (١٧٠٩).

* قوله: «ويحافظون على الجماعات».

* أي: يحافظ أهل السنة والجماعة على الجماعات؛ أي: على إقامة الجماعة في الصلوات الخمس؛ يحافظون عليها محافظة تامة؛ بحيث إذا سمعوا النداء؛ أجابوا وصلوا مع المسلمين؛ فمن لم يحافظ على الصلوات الخمس؛ فقد فاته من صفات أهل السنة والجماعة ما فاته من هٰذه الجماعات.

* وربما يدخل في الجماعات الاجتماع على الرأي وعدم النزاع فيه؛ فإن هٰذا ما أوصى به النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم معاذ بن جبل وأبا موسى حين بعثهما إلى اليمن، فقال: «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا». رواه البخاري[1].

* * *

* قوله: **«ويدينون بالنصيحة للأمة»**:

* **«يدينون»**؛ أي: يتعبدون لله عز وجل بالنصيحة للأمة، ويعتقدون ذٰلك ديناً.

* والنصح للأمة قد يكون الحامل عليه غير التعبد لله؛ فقد يكون الحامل عليه الغيرة، وقد يكون الحامل عليه الخوف من العقوبات، وقد يكون الحامل عليه أن يتخلق بالأخلاق الفاضلة

---

(١) رواه: البخاري (٤٣٤١، ٤٣٤٢)، ومسلم (١٧٣٣)؛ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

التي يريد بها نفع المسلمين... إلى غير ذٰلك من الأسباب.

* لٰكن هٰؤلاء ينصحون للأمة طاعة لله تعالى وتديناً له؛ لقول الرسول عليه الصلاة والسلام في حديث تميم بن أوس الداري: «الدين النصيحة، الدين النصيحة». قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم»[1].

ـ فالنصيحة لله صدق الطلب في الوصول إليه.

ـ والنصيحة للرسول عليه الصلاة والسلام صدق الاتباع له، ويستلزم ذٰلك الذود عن دين الله عز وجل، الذي جاء به رسوله ﷺ، ولهٰذا قال: «ولكتابه».

ـ فينصح للقرآن ببيان أنه كلام الله، وأنه منزل غير مخلوق، وأنه يجب تصديق خبره وامتثال أحكامه، وهو كذٰلك يعتقده في نفسه.

ـ وأئمة المسلمين كل من ولاه الله أمراً من أمور المسلمين؛ فهو إمام في ذٰلك الأمر؛ فهناك إمام عام كرئيس الدولة، وهناك إمام خاص؛ كالأمير والوزير والمدير والرئيس وأئمة المساجد وغيرهم.

ـ وعامتهم؛ يعني: عامة المسلمين، وهم التابعون للأئمة.

---

(١) رواه مسلم (٥٥).

ـ ومن أعظم أئمة المسلمين العلماء، والنصيحة لعلماء المسلمين هي نشر محاسنهم، والكف عن مساوئهم، والحرص على إصابتهم الصواب؛ بحيث يرشدهم إذا أخطؤوا، ويبين لهم الخطأ على وجه لا يخدش كرامتهم، ولا يحط من قدرهم؛ لأن تخطئة العلماء على وجه يحط من قدرهم ضرر على عموم الإسلام؛ لأن العامة إذا رأوا العلماء يضلل بعضهم بعضاً؛ سقطوا من أعينهم، وقالوا: كل هٰؤلاء راد ومردود عليه؛ فلا ندري من الصواب معه! فلا يأخذون بقول أي واحد منهم، لٰكن إذا احترم العلماء بعضهم بعضاً، وصار كل واحد يرشد أخاه سرّاً إذا أخطأ، ويعلن للناس القول الصحيح؛ فإن هٰذا من أعظم النصيحة لعلماء المسلمين.

* وقول المؤلف: «**للأمة**»: يشمل الأئمة والعامة؛ فأهل السنة والجماعة يدينون بالنصيحة للأمة؛ أئمتهم وعامتهم.

وكان مما يبايع الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه: «والنصح لكل مسلم»[1].

* فإذا قال قائل: ما هو ميزان النصيحة للأمة؟

فالميزان هو ما أشار إليه النبي عليه الصلاة والسلام؛ بقوله: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[2]؛ فإذا عاملت

---

(١) رواه: البخاري (٥٧)، ومسلم (٥٦)؛ عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥)؛ عن أنس رضي الله عنه.

الناس هٰذه المعاملة؛ فهٰذا هو تمام النصيحة.

فقبل أن تعامل صاحبك بنوع من المعاملة فكر؛ هل ترضى أن يعاملك شخص بها؟ فإن كنت لا ترضى؛ فلا تعامله!!

* * *

* قوله: **«ويعتقدون معنى قوله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضاً»، وشبك بين أصابعه**[1] ».

* شبه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم المؤمن لأخيه المؤمن بالبنيان الذي يشد بعضه بعضاً، حتى يكون بناء محكماً متماسكاً يشد بعضه بعضاً، ويقوى به، ثم قرب هٰذا وأكده، فشبك بين أصابعه.

فالأصابع المتفرقة فيها ضعف؛ فإذا اشتبكت؛ قوّى بعضها بعضاً؛ فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً؛ فالبنيان يمسك بعضه بعضاً، كذٰلك المؤمن مع أخيه إذا صار في أخيه نقص؛ فإن هٰذا يكمله؛ فهو مرآة أخيه إذا وجد فيه النقص؛ كمله إذا احتاج أخوه؛ ساعده، إذا مرض أخوه؛ عاده... وهٰكذا في كل الأحوال.

* فأهل السنة والجماعة يعتقدون هٰذا المعنى ويطبقونه عملاً.

---

(١) البخاري (٦٠٢٦)، ومسلم (٢٥٨٥)؛ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

* قوله: «**وقوله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم؛ كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو؛ تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**»[1]».

* «**قوله**» هنا معطوف على «قوله» في الحديث السابق.

* «**مثل المؤمنين في توادهم**»؛ أي: مودة بعضهم بعضاً.

* «**وتراحمهم**»: رحمة بعضهم بعضاً.

* «**وتعاطفهم**»: عطف بعضهم على بعض.

* «**كالجسد الواحد**»؛ أي: أنهم يشتركون في الآمال والآلام، فيرحم بعضهم بعضاً، فإذا احتاج؛ أزال حاجته، ويعطف بعضهم على بعض باللين والرفق وغير ذٰلك... ويود بعضهم بعضاً، حتى إن الواحد منهم إذا رأى في قلبه بغضاء لأحد من إخوانه المسلمين؛ حاول أن يزيله وأن يذكر من محاسنه ما يوجب زوال هٰذه البغضاء.

فالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو، ولو من أصغر الأعضاء؛ تداعى له سائر الجسد؛ فإذا أوجعك أصبعك الخنصر الذي هو من أصغر الأعضاء؛ فإن الجسد كله يتألم... إذا أوجعتك الأذن؛ تألم الجسد كله... وإذا أوجعتك العين؛ تألم الجسد كله... وغير ذٰلك؛

---

(١) البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦)؛ عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

فهٰذا المثل الذي ضربه النبي عليه الصلاة والسلام مثل مصور للمعنى ومقرب له غاية التقريب.

* * *

* قوله: «**ويأمرون بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضى بمر القضاء**»:

* «**يأمرون**»: قد يقال: إن هٰذه الكلمة تشمل أمر نفوسهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]؛ فهم يأمرون حتى أنفسهم.

* «**بالصبر عند البلاء**»: الصبر: هو تحمل البلاء، وحبس النفس عن التسخط بالقلب أو اللسان أو الجوارح.

والبلاء: المصيبة؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٦].

فالصبر يكون عند البلاء، وأفضله وأعلاه الصبر عند الصدمة الأولى، وهٰذا عنوان الصبر الحقيقي؛ كما قاله النبي ﷺ للمرأة التي مر بها وهي تبكي عند قبر، فقال لها: «اتقي الله واصبري، قالت: إليك عني فإنك لم تصب بمصيبتي ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى»[1]، أما بعد أن تبرد

---

(١) رواه البخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦)؛ عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

الصدمة؛ فإن الصبر يكون سهلاً، ولا ينال به كمال الصبر.

* فأهل السنة والجماعة يأمرون بالصبر عند البلاء، وما من إنسان؛ إلا يبتلى إما في نفسه وإما في أهله، وإما في ماله، وإما في صحبه، وإما في بلده، وإما في المسلمين عامة. ويكون ذٰلك إما في الدنيا وإما في الدين، والمصيبة في الدين أعظم بكثير من المصيبة في الدنيا.

* فأهل السنة والجماعة يأمرون بالصبر عند البلاء في الأمرين:

ـ فأما الصبر على بلاء الدنيا؛ فأن يتحمل المصيبة كما سبق.

ـ وأما الصبر على بلاء الدين؛ فأن يثبت على دينه، ولا يتزعزع عنه، ولا يكن كمن قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

* «**ويأمرون**»؛ أي: أهل السنة والجماعة.

* «**الشكر عند الرخاء**»: الرخاء: سعة في العيش، والأمن في الوطن، فيأمرون عند ذٰلك بالشكر.

* وأيهما أشق: الصبر على البلاء، أو الشكر عند الرخاء؟

اختلف العلماء في ذٰلك؛ فقال بعضهم: إن الصبر على البلاء أشق، وقال آخرون: الشكر عند الرخاء أشق.

والصواب أن لكل واحد آفته ومشقته؛ لأن الله عز وجل قال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ٩ ـ ١٠].

لكن كل منهما قد يهونه بعض التفكير: فالمصاب إذا فكر وقال: إن جزعي لا يرد المصيبة ولا يرفعها؛ فإما أن أصبر صبر الكرام، وإما أن أسلو سلو البهائم، فهان عليه الصبر، وكذٰلك الذي في رخاء ورغد.

* لٰكن أهل السنة والجماعة يأمرون بهٰذا وهٰذا؛ بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء.

* «**ويأمرون**»؛ أي: أهل السنة والجماعة.

* «**بالرضى بمر القضاء**»: الرضى أعلى من الصبر. ومر القضاء: هو ما لا يلائم طبيعة الإنسان، ولهٰذا عبر عنه بـ«المر».

* فإذا قضى الله قضاء لا يلائم طبيعة البشر، وتأذى به؛ سمي ذٰلك مر القضاء؛ فهو ليس لذيذاً ولا حلواً، بل هو مر؛ فهم يأمرون بالرضى بمر القضاء.

* واعلم أن مر القضاء لنا فيه نظران:

النظر الأول: باعتباره فعلاً واقعاً من الله.

والنظر الثاني: باعتباره مفعولاً له.

فباعتبار كونه فعلاً من الله يجب علينا أن نرضى به، وألا

نعترض على ربنا به؛ لأن هٰذا من تمام الرضى بالله ربّاً.

وأما باعتباره مفعولاً له؛ فهٰذا يسن الرضى به، ويجب الصبر عليه.

* فالمرض باعتبار كون الله قدره الرضى به واجب، وباعتبار المرض نفسه يسن الرضى به، وأما الصبر عليه؛ فهو واجب، والشكر عليه مستحب.

* ولهٰذا نقول: المصابون لهم تجاه المصائب أربعة مقامات: المقام الأول: السخط، والثاني: الصبر، والثالث: الرضى، والرابع: الشكر.

فأما **السخط**؛ فحرام، بل هو من كبائر الذنوب؛ مثل أن يلطم خده، أو ينتف شعره، أو يشق ثوبه، أو يقول: وا ثبوراه! أو يدعو على نفسه بالهلاك وغير ذٰلك مما يدل على السخط؛ قال النبي ﷺ: «ليس منا من شق الجيوب ولطم الخدود ودعا بدعوى الجاهلية»[1].

الثاني: الصبر: بأن يحبس نفسه قلباً ولساناً وجوارح عن التسخط؛ فهٰذا واجب.

الثالث: الرضى: والفرق بينه وبين الصبر: أن الصابر يتجرع المر، لٰكن لا يستطيع أن يتسخط؛ إلا أن هٰذا الشيء في نفسه

---

(١) رواه البخاري (١٢٩٨)، ومسلم (١٠٣)؛ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

صعب ومر، ويتمثل بقول الشاعر:

وَالصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ مُرٌّ مَذاقَتُهُ   لَكِنْ عَواقِبُهُ أَحْلى مِنَ العَسَلِ

لٰكن الراضي لا يذوق هٰذا مرّاً، بل هو مطمئن، وكأن هٰذا الشيء الذي أصابه لا شيء.

وجمهور العلماء على أن الرضى بالمَقْضِي مستحب.

وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو الصحيح.

الرابع: **الشكر**: وهو أن يقول بلسانه وحاله:

«الحمد لله»، ويرى أن هٰذه المصيبة نعمة.

* لٰكن؛ هٰذا المقام؛ قد يقول قائل: كيف يكون؟!

فنقول: يكون لمن وفقه الله تعالى:

فأولاً: لأنه إذا علم أن هٰذه المصيبة كفارة للذنب، وأن العقوبة على الذنب في الدنيا أهون من تأخير العقوبة في الآخرة؛ صارت هٰذه المصيبة عنده نعمة يشكر الله عليها.

وثانياً: أن هٰذه المصيبة إذا صبر عليها؛ أثيب؛ لقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

فيشكر الله على هٰذه المصيبة الموجبة للأجر.

وثالثاً: أن الصبر من المقامات العالية عند أرباب السلوك، لا

ينال إلا بوجود أسبابه، فيشكر الله على نيل هٰذا المقام.

* ويُذْكَر أن بعض العابدات أصيبت في أصبعها، فشكرت الله، فقيل لها في ذٰلك، فقالت: إن حلاوة أجرها أنستني مرارة صبرها.

* فأهل السنة والجماعة رحمهم الله يأمرون بالصبر على البلاء والشكر عند الرخاء والرضى بمر القضاء.

تتمة:

القضاء يطلق على معنيين:

أحدهما: حكم الله تعالى الذي هو قضاؤه ووصفه؛ فهٰذا يجب الرضى به بكل حال، سواء كان قضاء دينيّاً أم قضاء كونيّاً؛ لأنه حكم الله تعالى، ومن تمام الرضى بربوبيته.

ـ فمثال القضاء الديني قضاؤه بالوجوب والتحريم والحل، ومنه قوله تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

ـ ومثال القضاء الكوني: قضاؤه بالرخاء والشدة والغنى والفقر والصلاح والفساد والحياة والموت، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ [سبأ: ١٤]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤].

المعنى الثاني: المقضي، وهو نوعان:

الأول: المقضي شرعاً، فيجب الرضى به وقبوله، فيفعل

المأمور به، ويترك المنهي عنه، ويتمتع بالحلال.

والنوع الثاني: المقضي كوناً:

ـ فإن كان من فعل الله؛ كالفقر والمرض والجدب والهلاك ونحو ذٰلك؛ فقد تقدم أن الرضى به سنة، لا واجب، على القول الصحيح.

ـ وإن كان من فعل العبد؛ جرت فيه الأحكام الخمسة؛ فالرضى بالواجب واجب، وبالمندوب مندوب، وبالمباح مباح، وبالمكروه مكروه، وبالحرام حرام.

* * *

* قوله: **«ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال»**:

* **«مكارم الأخلاق»**؛ أي: أطايبها، والكريم من كل شيء هو الطيب منه بحسب ذٰلك الشيء منه قول الرسول ﷺ لمعاذ: «إياك وكرائم أموالهم»[1]؛ حين أمره بأخذ الزكاة من أهل اليمن.

* والأخلاق: جمع خلق، وهو الصورة الباطنة في الإنسان؛ يعني: السجايا والطبائع؛ فهم يدعون إلى أن يكون الإنسان سريرته كريمة؛ فيحب الكرم والشجاعة والتحمل من الناس والصبر، وأن يلاقي الناس بوجه طلق وصدر منشرح ونفس مطمئنة؛ كل هٰذه من مكارم الأخلاق.

---

(١) رواه: البخاري (٤٣٤٧)، ومسلم (١٩)؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

* وأما «**محاسن الأعمال**»؛ فهي مما يتعلق بالجوارح، ويشمل الأعمال التعبدية والأعمال غير التعبدية؛ مثل البيع والشراء والإجارة؛ حيث يدعون الناس إلى الصدق والنصح في الأعمال كلها، وإلى تجنب الكذب والخيانة، وإذا كانوا يدعون الناس إلى ذٰلك؛ فهم بفعله أولى.

* قوله: «**ويعتقدون معنى قوله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»**[1].

* هٰذا الحديث ينبغي أن يكون دائماً نصب عيني المؤمن؛ فأكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً مع الله ومع عباد الله.

ـ أما حسن الخلق مع الله؛ فأن تتلقى أوامره بالقبول والإذعان والانشراح وعدم الملل والضجر، وأن تتلقى أحكامه الكونية بالصبر والرضى وما أشبه ذٰلك.

ـ أما حسن الخلق مع الخَلْق؛ فقيل: هو بذل الندى، وكف الأذى، وطلاقة الوجه.

بذل الندى؛ يعني: الكرم، وليس خاصّاً بالمال، بل بالمال والجاه والنفس، وكل هٰذا من بذل الندى.

وطلاقة الوجه ضده العبوس.

---

(١) رواه: أحمد (٢/ ٢٥٠)، والترمذي (٢٦١٢)، وأبو داود (٤٦٨٢)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٣)، وابن حبان (٢/ ٢٢٧)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه. والحديث حسنه الألباني في «الصحيحة» (٢٨٤).

وكذٰلك كف الأذى بأن لا يؤذي أحداً لا بالقول ولا بالفعل.

* * *

* قوله: «**ويندبون إلى أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك**»:

* «**يندبون**»؛ أي: يدعون.

* «**أن تصل من قطعك**»: من الأقارب ممن تجب صلتهم عليك، إذا قطعوك؛ فصلهم، لا تقل: من وصلني؛ وصلته! فإن هٰذا ليس بصلة؛ كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «ليس الواصل بالمكافىء، إنما الواصل من إذا قطعت رحمه؛ وصلها»(1)؛ فالواصل هو الذي إذا قطعت رحمه؛ وصلها.

وسأل النبي ﷺ رجلٌ، فقال: يا رسول الله! إن لي أقارب؛ أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي! فقال النبي ﷺ: «إن كنت كما قلت؛ فكأنما تسفهم الملّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذٰلك»(2).

«تسفهم المل»؛ أي: كأنما تضع التراب أو الرماد الحار في أفواههم.

* فأهل السنة يندبون إلى أن تصل من قطعك، وأن تصل من وصلك بالأولى؛ لأن من وصلك وهو قريب؛ صار له حقان: حق

---

(1) رواه البخاري (٥٩٩١) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(2) رواه مسلم (٢٥٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

القرابة، وحق المكافأة؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «من صنع إليكم معروفاً؛ فكافئوه»[1].

* «**وتعطي من حرمك**»؛ أي: من منعك، ولا تقل: منعني؛ فلا أعطيه.

* «**وتعفو عمن ظلمك**»؛ أي: من انتقصك حقك: إما بالعدوان، وإما بعدم القيام بالواجب.

* والظلم يدور على أمرين: اعتداء وجحود: إما أن يعتدى عليك بالضرب وأخذ المال وهتك العرض، وإما أن يجحدك فيمنعك حقك.

وكمال الإنسان أن يعفو عمن ظلمه.

* ولٰكن العفو إنما يكون عند القدرة على الانتقام، فأنت تعفو مع قدرتك على الانتقام.

أولاً: رجاء لمغفرة الله عز وجل ورحمته؛ فإن من عفا وأصلح؛ فأجره على الله.

ثانياً: لإصلاح الود بينك وبين صاحبك؛ لأنك إذا قابلت إساءته بإساءة؛ استمرت الإساءة بينكما، وإذا قابلت إساءته بإحسان؛ عاد إلى الإحسان إليك، وخجل.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٩٠).

﴿أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت: ٣٤].

فالعفو عند المقدرة من سمات أهل السنة والجماعة، لٰكن بشرط أن يكون العفو إصلاحاً؛ فإن تضمن العفو إساءة؛ فإنهم لا يندبون إلى ذٰلك؛ لأن الله اشترط، فقال: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾ [الشورى: ٤٠]؛ أي: كان في عفوه إصلاح، أما من كان في عفوه إساءة، أو كان سبباً للإساءة؛ فهنا نقول: لا تعف! مثل أن يعفو عن مجرم، ويكون عفوه هٰذا سبباً لاستمرار هٰذا المجرم في إجرامه؛ فترك العفو هنا أفضل، وربما يجب ترك العفو حينئذ.

* * *

* قوله: «**ويأمرون ببر الوالدين**»: وذٰلك لعظم حقهما.

* ولم يجعل الله لأحد حقّاً يلي حقه وحق رسوله إلا للوالدين، فقال: ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [النساء: ٣٦].

وحق الرسول في ضمن الأمر بعبادة الله؛ لأنه لا تتحقق العبادة حتى يقوم بحق الرسول عليه الصلاة والسلام؛ بمحبته واتباع سبيله، ولهٰذا كان داخلاً في قوله: ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾، وكيف يعبد الله إلا من طريق الرسول ﷺ؟!

وإذا عبد الله على مقتضى شريعة الرسول؛ فقد أدى حقه.

ثم يلي ذٰلك حق الوالدين؛ فالوالدان تعبا على الولد، ولا سيما الأم، قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ

﴿كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وفي آية أخرى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤]، والأم تتعب في الحمل، وعند الوضع، وبعد الوضع، وترحم صبيها أشد من رحمة الوالد له، ولهٰذا كانت أحق الناس بحسن الصحبة والبر، حتى من الأب.

قال رجل: يا رسول الله! من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك». ثم قال في الرابعة: «ثم أبوك»(١).

والأب أيضاً يتعب في أولاده، ويضجر بضجرهم، ويفرح لفرحهم، ويسعى بكل الأسباب التي فيها راحتهم وطمأنينتهم وحسن عيشهم، يضرب الفيافي والقفار من أجل تحصيل العيش له ولأولاده.

فكل من الأم والأب له حق؛ مهما عملت من العمل؛ لن تقضي حقهما، ولهٰذا قال الله عز وجل: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]؛ فحقهم سابق؛ حيث ربياك صغيراً حين لا تملك لنفسك نفعاً ولا ضرّاً؛ فواجبهما البر.

* والبر فرض عين بالإجماع على كل واحد من الناس، ولهٰذا قدمه النبي ﷺ على الجهاد في سبيل الله؛ كما في حديث ابن مسعود؛ قال: قلت: يا رسول الله! أي العمل أحب إلى الله؟

---

(١) رواه: البخاري (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»[1].

* والوالدان هما الأب والأم، أما الجد والجدة؛ فلهما بر، لٰكنه لا يساوي بر الأم والأب؛ لأن الجد والجدة لم يحصل لهما ما حصل للأم والأب من التعب والرعاية والملاحظة؛ فكان برهما واجباً من باب الصلة، لٰكن هما أحق الأقارب بالصلة، أما البر؛ فإنه للأم والأب.

* لٰكن؛ ما معنى البر؟

البر: إيصال الخير بقدر ما تستطيع، وكف الشر.

إيصال الخير بالمال، إيصال الخير بالخدمة، إيصال الخير بإدخال السرور عليهما؛ من طلاقة الوجه، وحسن المقال والفعال، وبكل ما فيه راحتهما.

* ولهٰذا كان القول الراجح وجوب خدمة الأب والأم على الأولاد، إذا لم يحصل على الولد ضرر، فإن كان عليه ضرر؛ لم يجب عليه خدمتهما، اللهم إلا عند الضرورة.

ولهٰذا نقول: إن طاعتهما واجبة فيما فيه نفع لهما ولا ضرر على الولد فيه، أما ما فيه ضرر عليه، سواء كان ضرراً دينيّاً؛ كأن يأمراه بترك واجب أو فعل محرم؛ فإنه لا طاعة لهما في ذٰلك، أو كان ضرراً بدنيّاً؛ فلا يجب عليه طاعتهما. أما المال؛ فيجب عليه

(١) رواه: البخاري (٥٩٧٠)، ومسلم (٨٥)؛ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

أن يبرهما ببذله، ولو كثر، إذا لم يكن عليه ضرر، ولم تتعلق به حاجته، والأب خاصة له أن يأخذ من مال ولده ما شاء، ما لم يضر.

* وإذا تأملنا في أحوال الناس اليوم؛ وجدنا كثيراً منهم لا يبر بوالديه، بل هو عاق؛ تجده يحسن إلى أصحابه، ولا يمل الجلوس معهم، لٰكن لو يجلس إلى أبيه أو أمه ساعة من نهار؛ لوجدته متململاً، كأنما هو على الجمر؛ فهٰذا ليس ببار، بل البار من ينشرح صدره لأمه وأبيه ويخدمهما على أهداب عينيه، ويحرص غاية الحرص على رضاهما بكل ما يستطيع.

وكما قالت العامة: «البر أسْلاف»؛ فإن البر مع كونه يحصل به البار على ثواب عظيم في الآخرة؛ فإنه يجازى به في الدنيا. فالبر والعقوق كما يقول العوام: «أسلاف»، أقراض؛ تستوفى، إن قدمت البر؛ برك أولادك، وإن قدمت العقوق؛ عقك أولادك . . .

وهنا حكايات كثيرة في أن من الناس من بر والديه فبر به أولاده، وكذٰلك العقوق فيه حكايات تدل على أن الإنسان عقه أولاده كما عق هو آباءه.

فأهل السنة والجماعة يأمرون ببر الوالدين.

* * *

* **وكذٰلك يأمرون بصلة الأرحام.**

* ففرق بين الوالدين والأقارب الآخرين، الأقارب لهم

الصلة، والوالدان لهما البر، والبر أعلى من الصلة؛ لأن البر كثرة الخير والإحسان، لٰكن الصلة ألا يقطع، ولهٰذا يقال في تارك البر: إنه عاق، ويقال فيمن لم يصل: إنه قاطع!

* فصلة الأرحام واجبة، وقطعها سبب للعنة والحرمان من دخول الجنة.

قال الله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٢ ـ ٢٣].

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «لا يدخل الجنة قاطع»[1]؛ أي: قاطع رحم.

* والصلة جاءت في القرآن والسنة مطلقة.

وَكُلُّ مَا أَتَى وَلَمْ يُحَدَّدِ   بِالشَّرْعِ كَالحِرْزِ فَبِالعُرْفِ احْدُدِ[2]

وعلى هٰذا؛ يرجع إلى العرف فيها؛ فما سماه الناس صلة؛ فهو صلة، وما سماه قطيعة؛ فهو قطيعة، وهٰذه تختلف باختلاف الأحوال والأزمان والأمكنة والأمم.

ـ إذا كان الناس في حالة فقر، وأنت غني، وأقاربك فقراء؛ فصلتهم أن تعطيهم بقدر حالك.

---

(١) رواه: البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦)؛ عن جبير بن مطعم رضي الله عنه.

(٢) من منظومة الشيخ حفظه الله في أصول الفقه، انظر «مجلة الحكمة» العدد (١).

ـ وإذا كان الناس أغنياء، وكلهم في خير؛ فيمكن أن الذهاب إلى أقاربك في الصباح أو المساء يعد صلة.

* وفي زماننا هٰذا الصلة بين الناس قليلة، وذٰلك لانشغال الناس في حوائجهم، وانشغال بعضهم عن بعض، والصلة التامة أن تبحث عن حالهم، وكيف أولادهم، وترى مشاكلهم، ولٰكن هٰذه مع الأسف مفقودة؛ كما أن البر التام مفقود عند كثير من الناس.

* * *

* قوله: «**وحسن الجوار**»:

* أي: ويأمرون؛ يعني: أهل السنة والجماعة بحسن الجوار مع الجيران، والجيران هم الأقارب في المنزل، وأدناهم أولاهم بالإحسان والإكرام:

قال الله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ [النساء: ٣٦]، فأوصى الله بالإحسان إلى الجار القريب والجار البعيد.

وقال النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليكرم جاره»[(١)].

وقال: «إذا طبخت مرقة؛ فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك».

وقال: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه

(١) رواه: البخاري (٦١٣٥)، ومسلم (٤٨)؛ عن أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه.

سيورثه»[1].

وقال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن؛ قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه»[2].

إلى غير ذٰلك من النصوص الدالة على العناية بالجار والإحسان إليه وإكرامه.

* والجار إن كان مسلماً قريباً؛ كان له ثلاثة حقوق: حق الإسلام، وحق القرابة، وحق الجوار.

وإن كان قريباً جاراً؛ فله حقان: حق القرابة، وحق الجوار.

وإن كان مسلماً غير قريب وهو جار؛ فله حقان: حق الإسلام، وحق الجوار.

وإن كان جاراً كافراً بعيداً؛ فله حق واحد، وهو حق الجوار.

* فأهل السنة والجماعة يأمرون بحسن الجوار مطلقاً، أيّاً كان الجار، ومن كان أقرب؛ فهو أولى.

* ومن المؤسف أن بعض الناس اليوم يسيئون إلى الجار أكثر مما يسيئون إلى غيره؛ فتجده يعتدي على جاره بالأخذ من ملكه وإزعاجه.

وقد ذكر الفقهاء رحمهم الله في آخر باب الصلح في الفقه

---

(١) رواه: البخاري (٦٠١٤)، ومسلم (٢٦٢٤)؛ عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه البخاري (٦٠١٦)؛ عن أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه.

شيئاً من أحكام الجوار؛ فليرجع إليه.

* * *

* قوله: «والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل»:

* كذٰلك يأمرون؛ أي: أهل السنة والجماعة بالإحسان إلى هٰؤلاء الأصناف الثلاثة.

* اليتامى: جمع يتيم، وهو الذي مات أبوه قبل بلوغه.

وقد أمر الله تعالى بالإحسان إلى اليتامى، وكذٰلك النبي ﷺ حث عليه في عدة أحاديث[1].

ووجه ذٰلك أن اليتيم قد انكسر قلبه بفقد أبيه؛ فهو في حاجة إلى العناية والرفق.

والإحسان إلى اليتامى يكون بحسب الحال.

* والمساكين: هم الفقراء، وهو هنا شامل للمسكين والفقير.

فالإحسان إليهم مما أمر به الشرع في آيات متعددة من القرآن، وجعل لهم حقوقاً خاصة في الفيء وغيره.

ووجه الإحسان إليهم أن الفقر أسكنهم وأضعفهم وكسر قلوبهم، فكان من محاسن الإسلام أن نحسن إليهم جبراً لما حصل

---

(١) والتي منها ما رواه البخاري (٦٠٠٥)؛ عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وقال: بالسبابة والوسطى.

لهم من النقص والانكسار.

والإحسان إلى المساكين يكون بحسب الحال: فإذا كان محتاجاً إلى طعام؛ فالإحسان إليه بأن تطعمه، وإذا كان محتاجاً إلى كسوة؛ فالإحسان إليه بأن تكسوه، وإلى اعتبار بأن توليه اعتباراً، فإذا دخل المجلس؛ ترحب به، وتقدمه لأجل أن ترفع من معنويته.

فمن أجل هٰذا النقص الذي قدره الله عز وجل عليهم بحكمته أمرنا عز وجل أن نحسن إليهم.

* كذٰلك ابن السبيل، وهو المسافر، وهو هنا المسافر الذي انقطع به السفر، أو لم ينقطع؛ بخلاف الزكاة؛ لأن المسافر غريب، والغريب مستوحش، فإذا آنسته بإكرامه والإحسان إليه؛ فإن هٰذا مما يأمر به الشرع.

فإذا نزل ابن سبيل بك ضيفاً؛ فمن إكرامه أن تكرم ضيافته.

لٰكن قال بعض العلماء: إنه لا يجب إكرامه بضيافته إلا في القرى دون الأمصار!

ونحن نقول: بل هي واجبة في القرى والأمصار؛ إلا أن يكون هناك سبب؛ كضيق البيت مثلاً، أو أسباب أخرى تمنع أن تضيف هٰذا الرجل، لٰكن على كل حال ينبغي إذا تعذر أن تحسن الرد.

* * *

* قوله: «**والرفق بالمملوك**»؛ يعني: أن أهل السنة والجماعة يأمرون بالرفق بالمملوك.

* وهٰذا يشمل المملوك الآدمي والبهيم:

ـ فالرفق بالمملوك الآدمي أن تطعمه إذا طعمت، وتكسوه إذا اكتسيت، ولا تكلفه ما لا يطيق.

ـ والرفق بالمملوك من البهائم سواء كانت مما تركب أو تحلب أو تقتنى؛ يختلف بحسب ما تحتاج إليه؛ ففي الشتاء تجعل في الأماكن الدافئة إذا كانت لا تتحمل البرد، وفي الصيف في الأماكن الباردة إذا كانت لا تتحمل الحر، ويؤتى لها بالطعام وبالشراب إن لم تحصل عليه بنفسها بالرعي، وإذا كانت مما تحمل؛ فلا تحمل ما لا تطيق.

وهٰذا يدل على كمال الشرع، وأنه لم ينس حتى البهائم، وعلى شمولية طريقة أهل السنة والجماعة.

* * *

* قوله: «**وينهون عن الفخر والخيلاء والبغي والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق**».

* الفخر بالقول، والخيلاء بالفعل، والبغي العدوان، والاستطالة الترفع والاستعلاء.

فينهون عن الفخر: أن يتفاخر الإنسان على غيره بقوله، فيقول: أنا العالم! أنا الغني! أنا الشجاع!

وإن زاد على ذٰلك أن يستطيل على الآخرين ويقول: ماذا أنتم عندي؟ فيكون هٰذا فيه بغي واستطالة على الخلق

والخيلاء تكون بالأفعال؛ يتخايل في مشيته وفي وجهه وفي رفع رأسه ورقبته إذا مشى، كأنه وصل إلى السماء، والله عز وجل وبخ من هٰذا فعله، وقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

فأهل السنة والجماعة ينهون عن هٰذا، ويقولون: كن متواضعاً في القول وفي الفعل، حتى في القول، لا تثن على نفسك بصفاتك الحميدة؛ إلا حيث دعت الضرورة أو الحاجة إلى ذٰلك؛ كقول ابن مسعود رضي الله عنه: «لو أعلم أحداً هو أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل؛ لركبت إليه»[١]؛ فإنه رضي الله عنه قصد بذٰلك أمرين:

الأول: حث الناس على تعلم كتاب الله تعالى.

والثاني: دعوتهم للتلقي عنه.

والإنسان ذو الصفات الحميدة لا يظن أن الناس تخفى عليهم خصاله أبداً، سواء ذكرها للناس أم لم يذكرها، بل إن الرجل إذا صار يعدد صفاته الحميدة أمام الناس؛ سقط من أعينهم؛ فاحذر هٰذا الأمر.

* والبغي: العدوان على الغير، ومواقعه ثلاثة بينها الرسول

---

(١) رواه مسلم (٢٤٦٣).

ﷺ في قوله: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام»[1].

فالبغي على الخلق بالأموال والدماء والأعراض.

ـ في الأموال؛ مثل أن يدعي ما ليس له، أو ينكر ما كان عليه، أو يأخذ ما ليس له؛ فهٰذا بغي على الأموال.

ـ وفي الدماء: القتل فما دونه؛ يعتدي على الإنسان بالجرح والقتل.

ـ وفي الأعراض: يحتمل أن يراد بها الأعراض؛ يعني: السمعة، فيعتدى عليه بالغيبة التي يشوه بها سمعته، ويحتمل أن يراد بها الزنى وما دونه، والكل محرم؛ فأهل السنة والجماعة ينهون عن الاعتداء على الأموال والدماء والأعراض.

* وكذٰلك الاستطالة على الخلق؛ يعني: الاستعلاء عليهم بحق أو بغير حق.

فالاستعلاء على الخلق ينهى عنه أهل السنة والجماعة، سواء كان بحق أو بغير حق، والاستعلاء هو أن الإنسان يترفع على غيره.

وحقيقة الأمر أن من شكر نعمة الله عليك أن الله إذا من عليك بفضل على غيرك من مال أو جاه أو سيادة أو علم أو غير ذٰلك؛ فإنه ينبغي أن تزداد تواضعاً، حتى تضيف إلى الحسن حسناً؛ لأن الذي يتواضع في موضع الرفعة هو المتواضع حقيقة.

---

(١) رواه البخاري (١٧٣٩)؛ من حديث ابن عباس، ومسلم (١٦٧٩)؛ من حديث أبي بكرة.

* ومعنى قوله: «**بحق**»؛ أي: حتى لو كان له الحق في بيان أنه عال مترفع؛ فإن أهل السنة والجماعة ينهون عن الاستعلاء والترفع.

أو يقال: إن معنى قوله: «**الاستطالة بحق**»: أن يكون أصل استطالته حقّاً؛ بأن يكون قد اعتدى عليه إنسان، فيعتدي عليه أكثر.

فأهل السنة والجماعة رحمهم الله ينهون عن الاستطالة والاستعلاء على الخلق، سواء كان ذٰلك بحق أو بغير حق.

* * *

* قوله: «**ويأمرون بمعالي الأخلاق**».

أي: ما كان عالياً منها؛ كالصدق والعفاف وأداء الأمانة ونحو ذٰلك.

* «**وينهون عن سفسافها**»؛ أي: رديئها؛ كالكذب والخيانة والفواحش ونحو ذٰلك.

* * *

* قوله: «**وكل ما يقولونه ويفعلونه من هٰذا وغيره؛ فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنة، وطريقتهم هي دين الإسلام، الذي بعث الله به محمداً ﷺ**».

* «**كل ما يقولونه**»؛ أي: أهل السنة والجماعة.

* «**ويفعلونه**»: من هٰذا وغيره.

* «**فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنة**»: وهٰذه حال ينبغي أن يتنبه لها، وهو أننا كل ما نقوله وكل ما نفعله نشعر حال قوله أو فعله أننا نتبع فيه الرسول عليه الصلاة والسلام، مع الإخلاص لله؛ لتكون أقوالنا وأفعالنا كلها عبادات لله عز وجل، ولهٰذا يقال: إن عبادات الغافلين عادات، وعادات المنتبهين عبادات.

فالإنسان الموفق يمكن أن يحول العادات إلى عبادات، والإنسان الغافل يجعل عباداته عادات.

فليحرص المؤمن على أن يجعل أقواله وأفعاله كلها تبعاً لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ لينال بذٰلك الأجر، ويحصل به كمال الإيمان والإنابة إلى الله عز وجل.

* * *

* قوله: «**لكن لما أخبر النبي ﷺ أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة؛ كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة**»[1]:

---

(١) رواه: أحمد (٤/١٠٢)، وأبو داود (٤٥٩٧)، وابن ماجه (٢/٤٧٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١/٣٣)، والآجري في «الشريعة» (١٨)، واللالكائي في «شرح السنة» (١٥٠)، والحاكم في «المستدرك» (١/١٢٨)؛ من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن ساق حديث معاوية: «هذا حديث محفوظ من حديث صفوان بن عمرو، وعن الأزهر بن عبد الله الحزازي، وعن أبي عامر عبد الله بن لحي، عن معاوية، رواه عنه غير واحد..»، وانظر: «اقتضاء الصراط» (١/١١٨)، و«السلسلة الصحيحة» للألباني (٢٠٤).

* «**أن أمته**»؛ يعني: أمة الإجابة، لا أمة الدعوة؛ لأن أمة الدعوة يدخل فيها اليهود والنصارى، وهم مفترقون؛ فاليهود على إحدى وسبعين فرقة، والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وهٰذه الأمة على ثلاث وسبعين؛ كلها تنسب نفسها إلى الإسلام واتباع رسول الله ﷺ.

* وقوله: «**كلها في النار إلا واحدة**»: لا يلزم من ذٰلك الخلود في النار، وإنما المعنى أن عملها مما تستحق به دخول النار.

* وهٰذه الثلاث والسبعون فرقة؛ هل وقعت الآن وتمت أو هي في المنظور؟

أكثر الذين تكلموا على هٰذا الحديث قالوا: إنها وقعت وانتهت، وصاروا يقسمون أهل البدع إلى خمسة أصول رئيسة، ثم هٰذه الخمسة الأصول يفرعون عنها فرقاً، حتى أوصلوها إلى اثنتين وسبعين فرقة، وأبقوا فرقة واحدة، وهي أهل السنة والجماعة.

وقال بعض العلماء: إن الرسول عليه الصلاة والسلام أبهم هٰذه الفرق، ولا حاجة أن نتكلم فنقسم البدع الموجودة الآن إلى خمسة أصول، ثم نقسم هٰذه الأصول إلى فروع، حتى يتم العدد، حتى إننا نجعل الفرع أحياناً فرقة تامة من أجل مخالفتها في فرع واحد؛ فإن هٰذا لا يعد فرقة مستقلة.

فالأولى أن نقول: إن هٰذه الفرق غير معلومة لنا، ولٰكننا نقول: بلا شك أنها فرق خرجت عن الصراط المستقيم؛ منها ما

خرج فأبعد، ومنها ما خرج خروجاً متوسطاً، ومنها ما خرج خروجاً قريباً، ولا نلزم بحصرها؛ لأنه ربما يخرج فرق تنتسب للأمة الإسلامية غير التي عدها العلماء؛ كما هو الواقع؛ فقد خرج فرق تنتسب إلى الإسلام من غير الفرق التي كانت قد عدت في عهد العلماء السابقين.

وعلى كل حال؛ فالرسول عليه الصلاة والسلام أخبر أن أمته أمة الإجابة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، كلها ضالة، وفي النار؛ إلا واحدة:

* قال: «وهي الجماعة»؛ يعني: التي اجتمعت على الحق ولم تتفرق فيه.

* قوله: **«وفي حديث عنه أنه قال: «هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»**[1]**؛ صار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب هم أهل السنة والجماعة»**.

* قال: **«وفي حديث عنه أنه قال: «هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»»**: والذين كانوا على ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه هم الجماعة الذين اجتمعوا على شريعته، وهم الذين امتثلوا ما وصى الله به: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]؛ فهم لم يتفرقوا، بل كانوا جماعة واحدة.

* قال: **«صار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن**

---

(١) سبق تخريجه في الجزء الأول.

الشوب هم أهل السنة والجماعة»: جملة «صار» جواب الشرط في قوله: «لكن لما».

* فإذا سئلنا: من أهل السنة والجماعة؟

فنقول: هم المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب.

* وهٰذا التعريف من شيخ الإسلام ابن تيمية يقتضي أن الأشاعرة والماتريدية ونحوهم ليسوا من أهل السنة والجماعة؛ لأن تمسكهم مشوب بما أدخلوا فيه من البدع.

وهٰذا هو الصحيح؛ أنه لا يعد الأشاعرة والماتريدية فيما ذهبوا إليه في أسماء الله وصفاته من أهل السنة والجماعة.

وكيف يعدون من أهل السنة والجماعة في ذٰلك مع مخالفتهم لأهل السنة والجماعة؟!

لأنه يقال: إما أن يكون الحق فيما ذهب إليه هٰؤلاء الأشاعرة والماتريدية، أو الحق فيما ذهب إليه السلف. ومن المعلوم أن الحق فيما ذهب إليه السلف؛ لأن السلف هنا هم الصحابة والتابعون وأئمة الهدى من بعدهم. فإذا كان الحق فيما ذهب إليه السلف، وهٰؤلاء يخالفونهم؛ صاروا ليسوا من أهل السنة والجماعة في ذٰلك.

* * *

* قوله: **«وفيهم»**؛ أي: في أهل السنة.

* «**الصديقون**»: جمع صديق، من الصدق، وهٰذه الصيغة للمبالغة، وهو الذي جاء بالصدق وصدق به؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣]؛ فهو صادق في قصده، وصادق في قوله، وصادق في فعله.

ـ أما صدقه في قصده؛ فعنده تمام الإخلاص لله عز وجل، وتمام المتابعة للرسول عليه الصلاة والسلام، قد جرد الإخلاص والمتابعة، فلم يجعل لغير الله تعالى شركاً في العمل، ولم يجعل لغير سنة الرسول ﷺ اتباعاً في عمله؛ فلا شرك عنده ولا ابتداع.

ـ صادق في قوله، لا يقول إلا صدقاً، وقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً»[(١)].

ـ صادق في فعله؛ بمعنى: أن فعله لا يخالف قوله، فإذا قال؛ فعل، وبهٰذا يخرج عن مشابهة المنافقين الذين يقولون ما لا يفعلون.

ـ وأيضاً يصدق بما قامت البينة على صدقه؛ فليس عنده رد للحق، ولا احتقار للخلق.

* ولهٰذا كان أبو بكر أول من سمي الصديق من هٰذه الأمة؛ لأنه لما أسري بالنبي عليه الصلاة والسلام، وجعل يتكلم أنه أسري

---

(١) رواه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧)؛ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

به إلى بيت المقدس وعرج به إلى السماء؛ صار الكفار يضحكون به ويكذبونه ويقولون: كيف تذهب يا محمد في ليلة وتصل في ليلة إلى ما وصلت إليه في السماء ونحن إذا ذهبنا إلى الشام نبقى شهراً حتى نصله وشهراً للرجوع؟! فاتخذوا من هٰذا سلماً ليكذبوا الرسول عليه الصلاة والسلام، ولما وصلوا إلى أبي بكر، وقالوا: إن صاحبك يحدث ويقول كذا وكذا! قال: إن كان قال ذٰلك؛ فقد صدق[1]. فمن ذٰلك اليوم سمي الصديق، وهو أفضل الصديقين من هٰذه الأمة وغيرها.

* قوله: «**وفيهم الشهداء**»: جمع شهيد؛ بمعنى: شاهد.

* فمن هم الشهداء؟

ـ قيل: هم العلماء؛ لأن العالم يشهد بشرع الله، ويشهد على عباد الله بأنها قامت عليهم الحجة، ولهٰذا يعد العالم مبلغاً عن الله عز وجل ورسوله شريعته التي جاء بها رسوله محمد ﷺ، فيكون شاهداً بالحق على الخلق.

ـ وقيل: إن الشهيد من قتل في سبيل الله.

والصحيح أن الآية عامة لهٰذا وهٰذا.

* قوله: «**وفيهم الصالحون**»، والصالح ضد الفاسد، وهو

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣/٦٢)، وصححه ووافقه الذهبي، وعزاه ابن كثير في أول تفسير سورة الإسراء للبيهقي. وانظر: «السلسلة الصحيحة» للألباني (٣٠٦).

الذي قام بحق الله وحق عباده، وهو غير المصلح؛ فالإصلاح وصف زائد على الصلاح؛ فليس كل صالح مصلحاً، فإن من الصالحين من همه هم نفسه، ولا يهتم بغيره، وتمام الصلاح بالإصلاح.

* * *

* قوله: «**ومنهم أعلام الهدى ومصابيح الدجى**»:

* الأعلام: جمع علم، وهو في الأصل الجبل؛ قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الشورى: ٣٢]؛ يعني: الجبال، وسمي الجبل علماً؛ لأنه يهتدى به ويستدل به.

* و«**أعلام الهدى**»: الذين يستدل الناس بهم ويهتدون بهديهم، وهم العلماء الربانيون؛ فإنهم هم الهداة، وهم مصابيح الدجى.

* والمصابيح: جمع مصباح، وهو ما يستصبح به للإضاءة.

* والدجى: جمع دجية، وهي الظلمة؛ أي: هم مصابيح الظلم، يستضيء بهم الناس، ويمشون على نورهم.

* قوله: «أولو المناقب المأثورة، والفضائل المذكورة»:

* «**المناقب**»: جمع منقبة، وهي المرتبة؛ أي: ما يبلغه الإنسان من الشرف والسؤدد.

* وأما «**الفضائل**»؛ فهي جمع فضيلة، وهي الخصال الفاضلة، التي يتصف بها الإنسان من العلم والعبادة والزهد والكرم

وغير ذٰلك؛ فالفضائل سلم للمناقب.

* * *

* قوله: «**وفيهم الأبدال**»: «**الأبدال**»: جمع بدل، وهم الذين تميزوا عن غيرهم بالعلم والعبادة، وسموا أبدالاً: إما لأنهم كلما مات منهم واحد؛ خلفه بدله، أو أنهم كانوا يبدلون سيئاتهم حسنات، أو أنهم كانوا لكونهم أسوة حسنة كانوا يبدلون أعمال الناس الخاطئة إلى أعمال صائبة، أو لهٰذا كله وغيره.

* * *

* قوله: «**وفيهم أئمة الدين الذين أجمع المسلمون على هدايتهم**»:

* الإمام: هو القدوة.

* وفي أهل السنة والجماعة أئمة الدين الذين أجمع المسلمون على هدايتهم؛ مثل: الإمام أحمد، والشافعي، ومالك، وأبي حنيفة، وسفيان الثوري، والأوزاعي، وغيرهم من الأئمة المشهورين المعروفين؛ كشيخ الإسلام ابن تيمية، وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب.

* وقوله: «**أئمة الدين**»: خرج به أئمة الضلال من أهل البدع؛ فهٰؤلاء ليسوا من أهل السنة والجماعة، بل هم على خلاف أهل السنة والجماعة، وهم؛ وإن سموا أئمة؛ فإن من الأئمة أئمة يدعون إلى النار؛ كما قال تعالى عن آل فرعون: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً

﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١].

* * *

* قوله: «وهم الطائفة المنصورة»:

* يعني: أن أهل السنة والجماعة هم الطائفة المنصورة التي نصرها الله عز وجل؛ لأنهم داخلون في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١]؛ فهم منصورون، والعاقبة لهم.

* ولٰكن لا بد قبل النصر من معاناة وتعب وجهاد؛ لأن النصر يقتضي منصوراً ومنصوراً عليه؛ إذاً؛ فلا بد من مغالبة، ولا بد من محنة، ولٰكن؛ كما قال ابن القيم رحمه الله:

الحَقُّ مَنْصورٌ وَمُمْتَحَنٌ فَلا تَعْجَبْ فَهٰذي سُنَّةُ الرَّحْمٰنِ

فلا يلحقك العجز والكسل إذا رأيت أن الأمور لم تتم لك بأول مرة، بل اصبر وكرر مرة بعد أخرى، واصبر على ما يقال فيك من استهزاء وسخرية؛ لأن أعداء الدين كثيرون.

لا يثني عزمك أن ترى نفسك وحيداً في الميدان؛ فأنت الجماعة وإن كنت واحداً، ما دمت على الحق، ولهٰذا ثق بأنك منصور إما في الدنيا وإما في الآخرة.

* ثم إن النصر ليس نصر الإنسان بشخصه، بل النصر الحقيقي أن ينصر الله تعالى ما تدعو إليه من الحق، أما إذا أصيب الإنسان بذل في الدنيا؛ فإن ذٰلك لا ينافي النصر أبداً؛ فالنبي عليه

الصلاة والسلام أوذي إيذاء عظيماً، لٰكن في النهاية انتصر على من آذاه، ودخل مكة منصوراً مؤزراً ظافراً بعد أن خرج منها خائفاً.

* قوله: «**الذين قال فيهم النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة؛ لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم، حتى تقوم الساعة**»».

* هٰذا الحديث أخرجه البخاري ومسلم[1] بنحو ما ساقه المؤلف عن عدد من الصحابة عن النبي ﷺ.

* قوله: «**لا تزال**»: هٰذا من أفعال الاستمرار، وأفعال الاستمرار أربعة، وهي: فتىء، وانفك، وبرح، وزال؛ إذا دخل عليها النفي أو شبهه.

* فقوله: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق**»؛ يعني: تستمر على الحق.

* وهٰذه الطائفة غير محصورة بعدد ولا بمكان ولا بزمان، يمكن أن تكون بمكان تنصر فيه في شيء من أمور الدين، وفي مكان آخر تنصر فيه طائفة أخرى، وبمجموع الطائفتين يكون الدين باقياً منصوراً مظفراً.

* وقوله: «**لا يضرهم**»، ولم يقل: لا يؤذيهم؛ لأن الأذية قد تحصل، لٰكن لا تضر، وفرق بين الضرر والأذى، ولهٰذا قال الله تعالى في الحديث القدسي: «يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري

---

(١) رواه: البخاري (٧٣١١)، ومسلم (١٩٢٠).

فتضروني»[1]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وفي الحديث القدسي: «يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر، وأنا الدهر»[2]؛ فأثبت الأذى ونفى الضرر، وهٰذا ممكن، ألا ترى الرجل يتأذى برائحة البصل ونحوه، ولا يتضرر بها.

* وفي قوله: «**حتى تقوم الساعة**»: إشكال؛ لأنه قد ثبت في الصحيح أنها «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله، الله»[3]؛ أي: حتى يمحى الإسلام كله، ولا يبقى من يعبد الله أبداً؛ فكيف قال هنا: «حتى تقوم الساعة»؟!

وأجاب عنه العلماء بأحد جوابين:

ـ إما أن يكون المراد حتى قرب قيام الساعة، والشيء قد يعبر به عما قرب منه إذا كان قريباً جدّاً، وكأن هٰؤلاء المنصورون إذا ماتوا؛ فإن الساعة تكون قريبة جدّاً.

ـ أو يقال: إن المراد بالساعة ساعتهم.

ولٰكن القول الأول أصح؛ لأنه إذا قال: «حتى تقوم الساعة»؛ فقد تقوم ساعتهم قبل الساعة العامة بأزمنة طويلة، وظاهر الحديث

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧)؛ عن حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) رواه: البخاري (٧٤٩١)، ومسلم (٢٢٤٦)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم (١٤٨)؛ عن أنس رضي الله عنه.

أن هٰذا النصر سيمتد إلى آخر الدنيا؛ فالصواب أن المراد بذٰلك إلى قرب قيام الساعة. والله أعلم.

* * *

الخاتمة

* قوله: «فنسأل الله أن يجعلنا منهم، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، وأن يهب لنا من لدنه رحمة؛ إنه هو الوهاب، والله أعلم، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً».

* وبهٰذا الدعاء الجليل ختم المؤلف رحمه الله هٰذه الرسالة القليلة اللفظ الكثيرة المعنى، وهي تعتبر خلاصة مذهب أهل السنة والجماعة، وفيها فوائد عظيمة، ينبغي لطالب العلم أن يحفظها.

* والحمد لله رب العالمين على الإتمام، ونسأل الله أن يتم ذٰلك بالقبول والثواب، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قمت بمراجعة الكتاب وإضافة ما تدعو الضرورة إليه وحذف ما لا يحتاج إليه في يوم الجمعة السابع عشر من شعبان سنة ١٤١٤هـ

وقمت بمراجعته مع المضاف

مساء يوم الخميس السابع والعشرين من صفر سنة ١٤١٥هـ

* * *



الفهارس

* * *

* * *



فهرس الأحاديث النبوية والآثار

فهرس الموضوعات



* * * * *

تم بحمده تعالى الجزء الثاني والأخير من كتاب

شرح

العقيدة الواسطية

نفع الله به

وجعله في ميزان حسنات مؤلفه وشارحه ومخرجه والعاملين عليه

إنه سميع مجيب